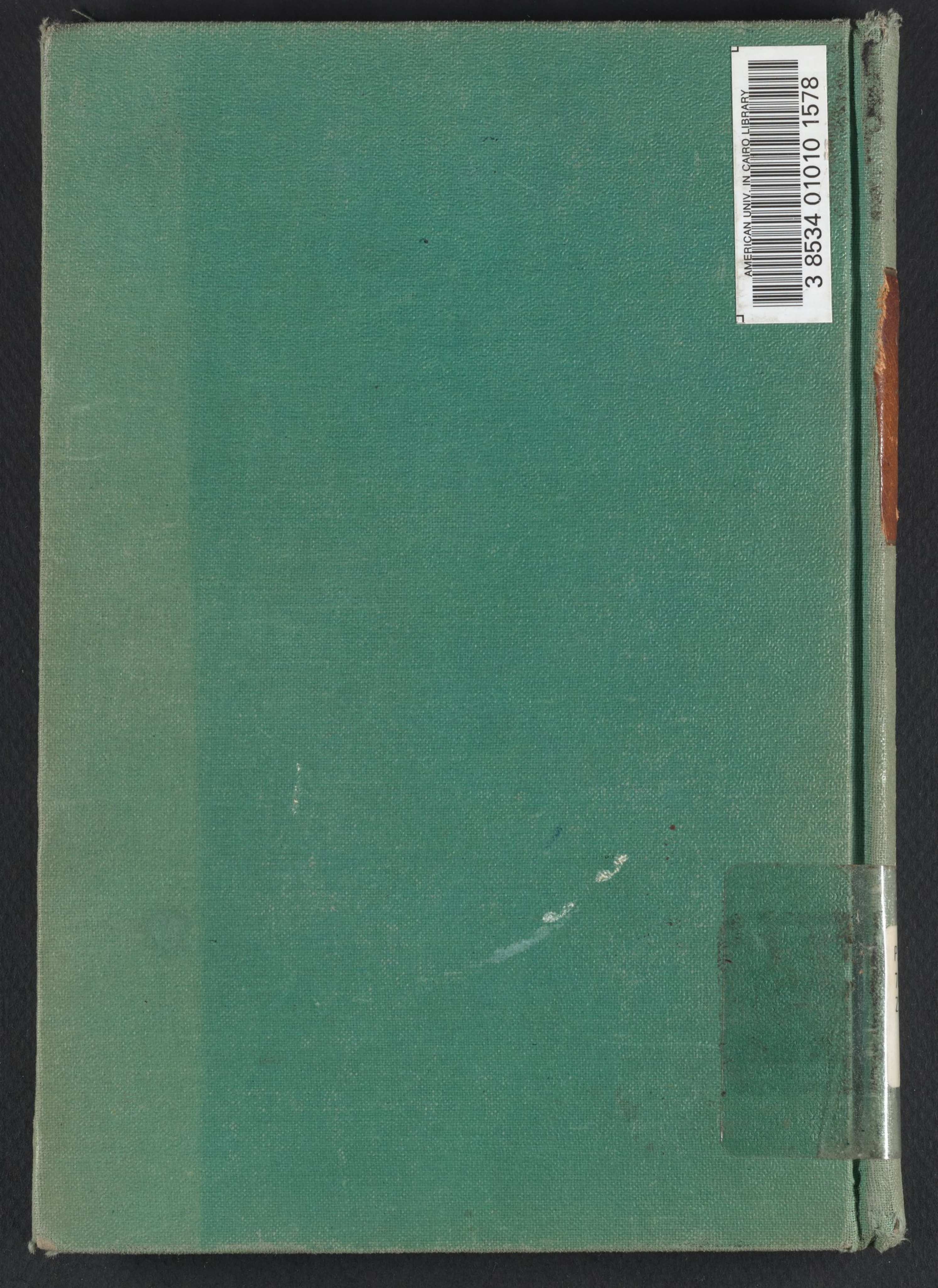
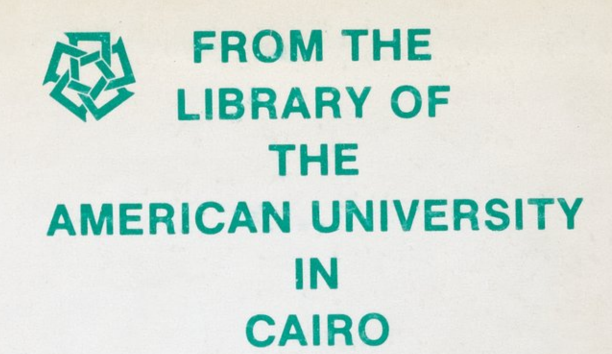
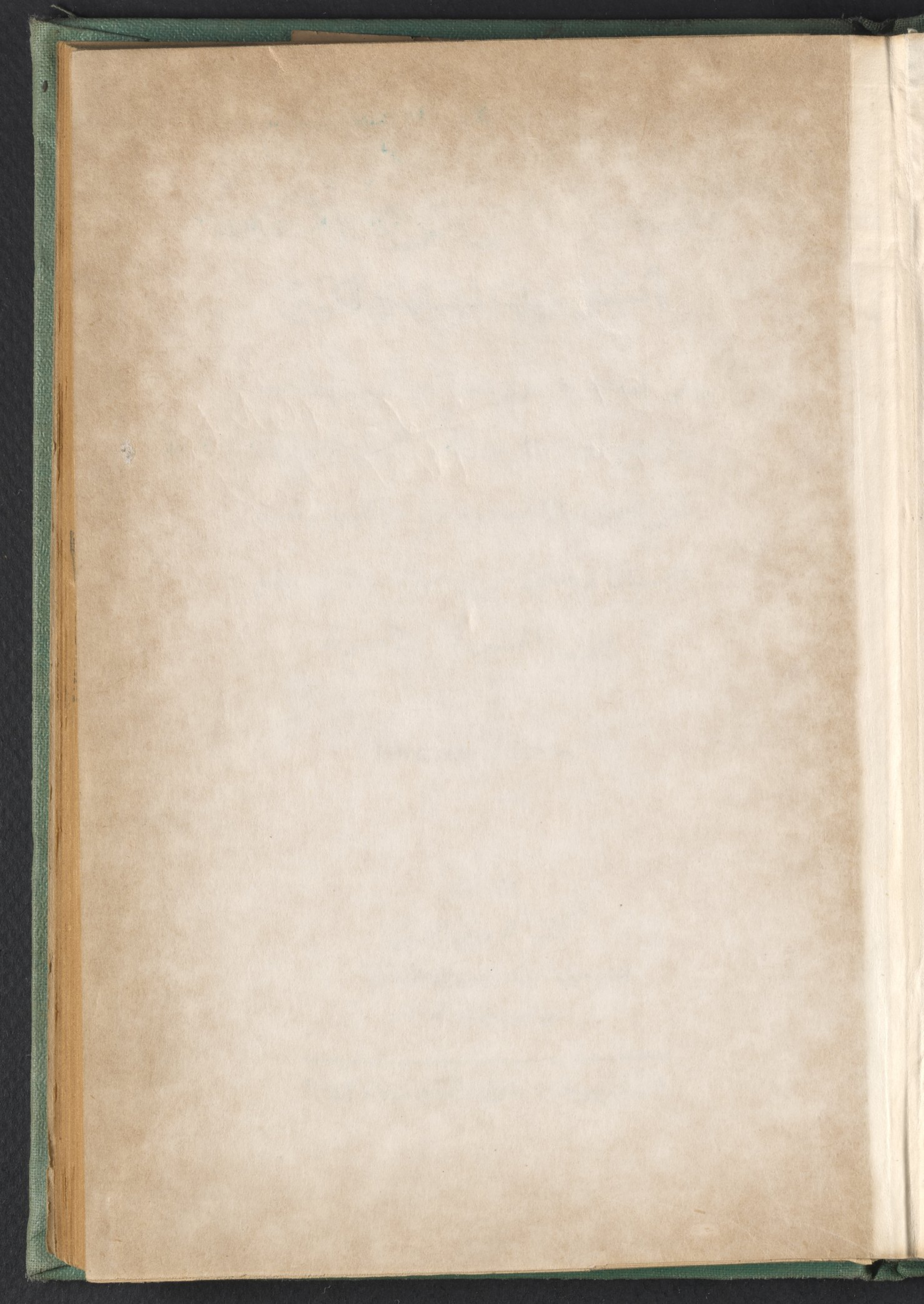
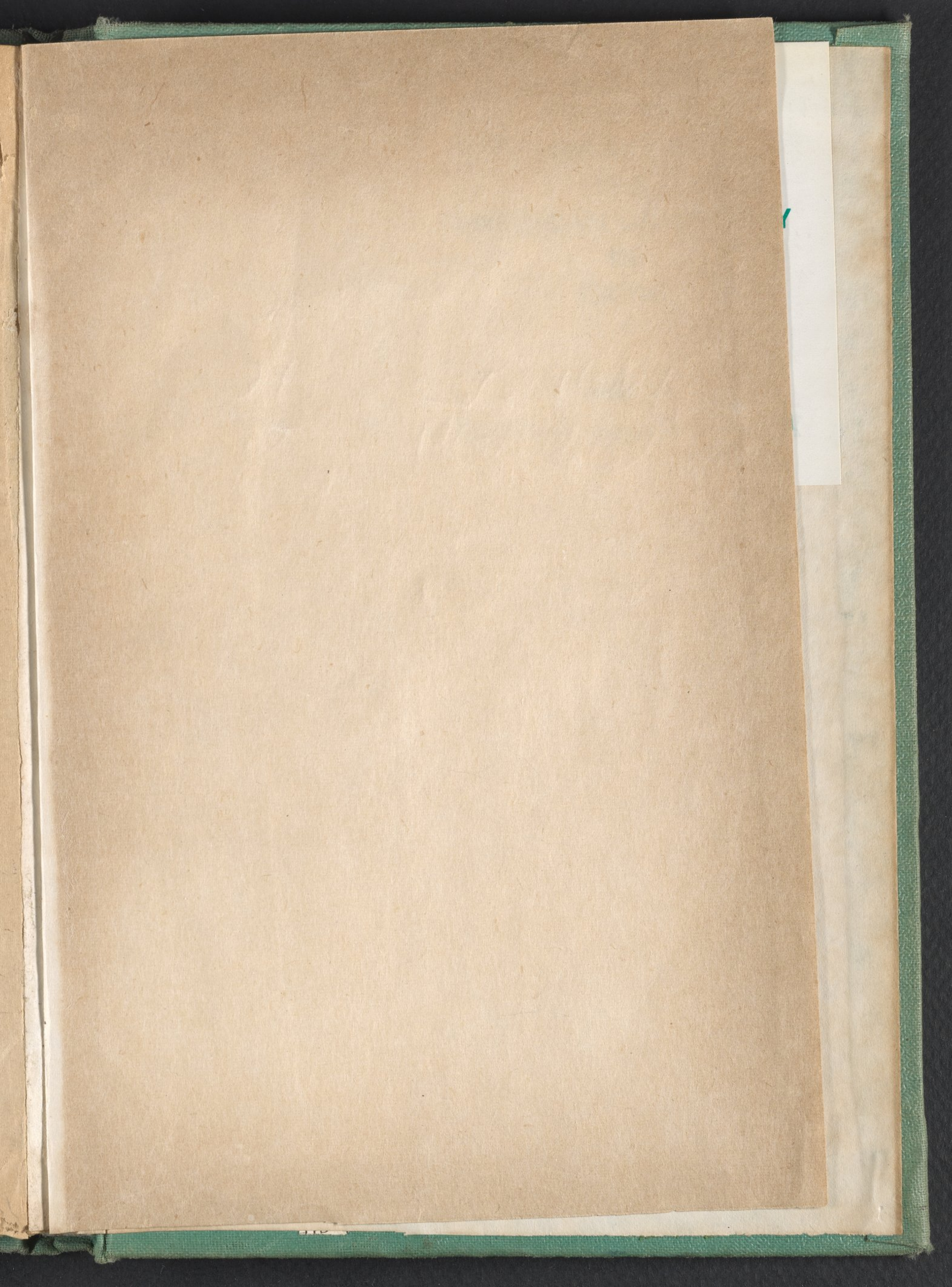



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





قصة الزير سالم

أبو ليلة المهلهل الكبير

وهى قصة بديعة جرى فيها من الحروب العجيبة
والوقائع المهولة المريعة ، وأشعار العرب
أهل الفضل والأدب ، وما كان من كليب وحسان
اليمانى وجساس بن مرة ، وما وقع بينهم
من الحروب والأهوال

الناشر
مكتبة الجمهورية العربية
لصاحبها : عبد الفتاح عبد الحميد مراد
شارع الصنادقية بالأزهر بمصر

المطبعة اليوسفية ٢ شارع دار الكتب ت ٩٠٤٣٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمداً لله ، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه ، وبعد فهذه سيرة الأسد الكرار والبطل المغوار الذى شاع ذكره فى الأقطار وأذل بسيفه كل صنديد وجبار المهلهل بن ربيعة صاحب الأشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة ما جرى له فى تلك الأيام مع ملوك الشام وفرسان الصدام من الحوادث والوقائع التى تطرب القارىء وتلذ السامع ، ولكن قبل الشروع فى هذه السيرة الغريبة وأخبارها المطربة الغريبة رأينا أن نذكر طرفاً من أخبار العرب أهل الفضل والأدب إفادة للطالعين ونزهة للسامعين فنقول والله المستعان :

أن أصل العرب من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ولد نزار بن معد بن عدنان وكان قد ولد لنزار المذكور أربعة أولاد من الذكور كل منهم بالفضل والبأس مشهور وهم : مضر أنمار وإياد وربيعة وفارس الطراد ومنهم تشعبت قبائل الأعراب وملأت البرارى والهضاب فمن نسل إياد ملوك التابعة الذين أخبارهم بين الناس شائعة ومن نسل ربيعة ومضر وأنمار عرف الحجاز ونجد والعراق وسكان القفار وكانت العرب فى تلك الزمان منقسمة إلى قسمين وهما قيس ويمن فكان اليمن هم اليمنيون وباقى العربان هم القيسيون وما زالت العرب تنمو وتكثر وتمتد فى البر الأقفر حتى اشتهرت العشائر والقبائل وظهر الأمير ربيعة وأخوه مرة وأبناء وائل وربيعة المذكور هو أبو الزير الفارس المشهور صاحب هذه السيرة ووقائعها الشهيرة .

(قال الراوى) وكان ربيعة فى ذلك الزمان من جملة ملوك العربان وأخوه عروة من الأمراء والأعيان وكانت منازلهم فى تلك الأيام فى أطراف بلاد الشام وكانا يحكمان على قبيلتين من العرب وهما بكر وتغلب وولد لربيعة خمسة أولاد مثل الأقمار وهم كليب الأسد الكرار وسالم البطل الشهير الملقب بالزير وعدى ودرعيان وغيرهم من الشجعان وكان له بنت جميلة الطباع شديدة الباع تعارك الاسود والسباع إسمها أسما وتلقب بضباع ، وأما الأمير مرة له عدة أولاد أبطال

أبجاد وقد اشتهروا بالشجاعة وقوة البأس منهم همام وسلطان وجساس وله بنت جميلة فاضلة نبيلة ، يقال لها الجليلة ، فاتفق فى بعض الأيام أن الأمير مرة دخل على أخيه ربيعة فى الخيام وخطب إبنته ضباع لإبنه همام ، وخاطبه بهذا الشعر والنظام :

يقول أمير مرة فى قصيدة ... معانيه حكت درر الجواهر
ربيعة يا أخى إسمع كلامى ... أيا قهار فرسان الجبابر
أريد ضباع بنتك يا ربيعة ... إلى همام يا فخر الأكابر
ولما ينشى إبنك كليبا ... ويركب ياأخى الخيل الضوامر
وتكبر يا ملك بنتى الجليلة ... مر تخذها له وزوج لاتشاور
وهذا يا أخى أقصى مرادى ... أيا صدام آساد الكواسر
تبدى له ربيعة ثم قال له ... كلامك . يا أخى مثل العنابر
تريد ضباع خذها يا مسمى ... وزوجها لإبنك لا تشاور
ومعها مائة خادم يخدموها ... ومائة جارية غير السرائر
ومعها مائة حر كالعرائس ... ومائة قعود مع ميتين جوائز
ومعها محمل الفاخر واطلس ... زباد ومسك فايح ودم عاطر
وهمام ابن مرة مثل إبنى ... لغيرك من أناسب أو أطاهر
هلم انهض وزوجها بسرعة ... وافرح فيه واعمل عرس فاخر .

فلما فرغ ربيعة من كلامه وشعره ونظامه أعتنقه أخوه وشكره على حسن اهتمامه ثم باشر القوم بأمر العروس من ذلك اليوم وعقدوا عقد الأمير همام على ضباع بنت الكرام كما جرت عادة الملوك العظام فأولموا الولائم وذبحوا الذبائح وأطعموا كل آت ورائح ومازالوا فى سرور وأفراح وبسط وانشراح ودق طبول ولعب خيول وشرب مدام مدة عشرة أيام ثم زفوا ضباع على الأمير همام فكانت ليلة عظيمة لم يسمع بمثلها فى الأيام القديمة حضر فيها كثير من سادات العرب وأهل المناصب والرتب ودخل همام على ضباع وحظى بحسنها وجمالها ونالت منه غاية آمالها لأنها كانت تحبه محبة شديدة وتوده مودة أكيدة وسوف يظهر لها ولدان وهما شيبون وشيبان وسيأتى حديثهما بعد الآن .

هذا ما كان من خبر بنى قيس المدعوين بالقيسية ولنتكلم الآن عن حديث اليمنية وما جرى لهم فى تلك الأيام من الامور والأحكام والحروب والأهوال فى ميادين القتال فنقول وعلى الله الاتكال .

أنه كان فى قديم الزمان فى بلاد اليمن ملك عظيم الشأن صاحب جند وأعوان وأبطال وفرسان يقال له الملك حسان ويكنى بالتبع اليمانى ولم يكن له بين الملوك ثانى وهو أول اليمنية كما كان ربيعة أول القيسية وكان شديد البأس قوى المراس طويل القامة عريض الهامة لايعرف الحلال من الحرام ولايحفظ العهد والزمام وكان يحب النساء الملاح والمزاح منهن فى المساء والصباح ، ومن أعماله العجيبة واصطلاحاته العجيبة كما ذكر أصحاب الروايات أنه كان فى كل ليلة يتزوج بصبية من بنات الملوك والسادات وكانت الملوك تخافه وتخشاه وتحسب حسابه وتترضاه وتحمل له الخراج وتعلل له الخاطر والمزاج وكان عنده من الأبطال والفرسان الف الف عنان وهم عشرة كرات مستعدين للحرب والغارات وكان يشرب المدام فى الليل والنهار ولايبالى فى الأهوال والأخطار وكان له وزير عاقل خبير قوى الجنان إسمه نبهان قد امتاز على الأقران بفعل الخير والإحسان وكان كثيراً ماينهى الملك حسان عن ارتكاب الظلم والعدوان فاتفق فى بعض الأعوام ويوم من الأيام التقى الملك تبع فى نبهان وقال له فى الديوان بحضور الأمراء والاعيان هل سمعت أيها الوزير والعاقل الخبير عن ملك كبير عنده رجال كرجالى وأموال كعدد أموالى فقبل الوزير الأرض ووقف فى مقام العرض وقال اعطنى الأمان يا ملك الزمان وأنا أحدثك بأخبار ملوك الأمم أصحاب البطش والهمم وما عندهم من الجيوش والعساكر والمهمات والذخائر .

فقال قل وعليك الأمان من نوائب الزمان .

فقال اعلم أيها الملك المعظم أنه لا يوجد مثلك فى هذه الأقطار من الملوك الكبار أصحاب الدين والامطار ولكن يوجد خارج البحار عرب من أهل الشجاعة والاقتدار عددهم كثير وجيشهم غفير يقال لهم بنو قيس وسيدهم إسمه ربيعة ولهم فى الحرب والغارات وقائع مهولة مريعة وهم من أولاد مضر الأسد الغضنفر وقد امتلكوا أكثر جهات الأرض فى الطول والعرض وهم أعظم منا وأكثر

وأشد بأساً ، فلما انتهى الوزير من هذا الكلام وسمعه من حضر فى ذلك المقام اغتاظ الملك وتأثر وكان عليه أشد من ضرب السيف الأبتر فصاح على الوزير وزعق وقال له بكلام الحنق هكذا يا تيس تفضل على بنى قيس ومادام الأمر كذلك لابد أن أفدهم بفرسان المعارك وأقتل ملكهم ربيعة وأردهم موارد المهالك وأخرب بلادهم وديارهم وأمحو بالسيف آثارهم وأتملك الديار بالقوة والاقتدار ثم أنشد هذه الأبيات على مسامع الأمراء والسادات :

يقول النبى اليمنى المسمى ... بحسان فما للقول زورا
ملكت الارض غصبا واقتدارا ... وصرت على ملوك الأرض سورا
وطاعتنى الممالك والقبائل ... وفرسان المعامع والنورا
لقد أخبرت عن بطل عنيد ... شديد البأس جبارا جسورا
وقالوا إنه يدعى ربيعة ... أمير قد حوى مدناً ودورا
تولى الارض فى طول وعرض ... فكم أخرب وكم شيد قصورا
فقصدى اليوم اغزوه بجيشى ... وأترك أرضه قفرا وبورا
أيا نبهان أجمع لى العساكر ... فيأتوا فوق خيل كالنسورا
وجهز الف مركب يا وزيرى ... واوسقهن فى وسط البحورا
ثلاث شهور أنتزع لا تطول ... يكون كل ما قلته حضورا
أسير بهم إلى تلك الأراضى ... وأملك القلاع والقصورا
ويغنم عسكرى منهم مكاسب ... وأزوجهم بنات كما البدورا
ويبقى لى الحكم براً وبحراً ... ويصفى خاطرى بعد الكدورا

(قال الراوى) فلما انتهى السبع من شعره ونظامه وفهم الوزير فحوى حديثه وكلامه ندم وتكدر الذى أعلمه بهذا الخبر ولم يعد يمكنه إلا الامتثال وتجهيز الفرسان والأبطال إلى الحرب والقتال فنزل من الديوان وهو مقهور غضبان وأمر بدق الطبل والنحاس لاجتماع العساكر وباقى الناس وكان هذا الطبل يقال له الرضوح وهو من أعظم الطبول وكانت تدقه عشرة من العبيد الفحول وهو من صنعة ملوك التبابعة العظام وكانت الناس تسمع صرته عن مسافة ثلاثة أيام وكان الملك حسان إذا غزا قبيلة من العربان يأخذ ذلك الطبل معه وأين ما ذهب يتبعه ولم يزل هذا الطبل فى ذلك الزمان يتصل من ملك إلى ملك حتى اتصل إلى الأمير

حسن سيد بنى هلال المشهور بالإحسان والأفضال فلما دقت العبيد الطبل وسمعت صوته قواد الفرسان أقبلت على الوزير من كل جهة ومكان فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وسألوه عن سبب دق الطبل الرجوج فحدثهم بذلك الإيراد والمسير إلى تلك البلاد للغزو والجهاد ثم بعد ذلك فرق عليهم السلاح وآلات الحرب والكفاح ولم تمكن إلا مدة قصيرة حتى تجهزت المراكب وتجمعت العساكر من كل جانب وكان من جملتهم عشرة من ملوك كبار كل ملك يحكم على ألف بطل مغوار فحضروا إلى أمام الملك تبع حسان فسلموا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فشكرهم وخلع عليهم الخلع الفاخرة والتحف الباهرة ووعدهم بالمال الجزيل وبكل خير جميل ثم امر الوزير بالاستعداد والرحيل على غزوة بنى قيس وتلك البلاد وطلبت منه أن يأتى بالعساكر من تحت القصر وهى نازلة إلى البحر ليشاهد أحوالها ويرى سلاحها وأثقالها فامتثل الوزير لما أمر وفعل كما ذكر فانشرح صدر الملك عند رؤية العساكر والجحافل وهى فى السلاح الكامل والاستعداد للحرب والقتال فأنشد وقال :

يقول التبع الملك اليمانى	صفا عيشى وقد طاب فؤادى
اتتنى عساكر كالأسد تسرى	ألوف راكبين على جياد
عليهم كل درع من حديد	له زرد كما عين الجراد
وبهم كل جبار عنيد	يقال ألف ليث فى الطراد
برؤيتهم فقد زاد انشراحى	وزال الهم عنى باهتعادى
أسير بهم لذاك السبر حالا	وأقتل كل من يطلب عنادى
وارجع غانماً فى طيب عيش	ولا يبقى لتبع من يعادى
ألا يا عسكر قروا وطيبوا	على نيل المقاصد والمرادى
ومنى أبشروا فيما تريدون	مهما تطلبوه بازدياد

فلما فرغ من شعره ونظامه صرخت الأمراء وأكابر القواد والجيوش والعساكر والاجناد ودعوا للملك بالنصر وطول العمر وقد استبشروا فى غزوة تلك البلاد وأيقنوا بالنجاح وبلوغ المراد ثم نزلت العساكر والأجناد فى المراكب مع الأمراء والقواد ، وكان الملك حسان قبل خروجه من الأوطان قدسلم زمام ملكه

اليمن إلى الصحصاح بن حسان وهو ملك كبير وفارس شهير كان يميل إليه ويعتمد
عليه فأوصاه أن يجمع له المال فى كل عام ويرسله إلى بلاد الشام ثم نزل مع الوزير
فى مركب كبير واقلعوا من الأطان وقصدوا بلاد الحبش والسودان وعند وصولهم
إلى ذلك الجانب القوا المراسى ونزلوا إلى البر بالقوارب ونصبوا الخيام والمضارب
وفى الحال أرسل الملك تبع وزيرا إسمه زيد بن عقبه بألف فارس منتخبة ليعلم
ابن أخته الرعينى بقدومه إلى تلك الأقطار لأنه كان ملك هاتيك الديار ويأمره
بسرعة الحضور وتقديم الذخر إلى الجيش والعسكر فلما علم الرعينى بذلك الخبر
بادر فى الحال بالفرسان والأبطال والمهمات الثقال إلى أن التقى به فى الصيوان ومن
حوله الوزراء والأعيان فدخل وسلم عليه وقبله بين عينيه وقدم له الذخائر والمهمات
لتلك الجهات فأعلمه بواقعة الحال وإنه قاصد غزو بنى قيس وتلك الأطلال ثم
باتوا تلك الليلة فى الخيام وفى الصباح أمر الملك العشرة الملوك العظام أن يتأهبوا
للرحيل إلى بلاد الشام وأن ينقسموا إلى قسمين ويتفرقوا إلى فرقتين خمسة تسير
من اليمين وخمسة من على الشمال وأوصاهم أنهم كل ما أقبلوا إلى مدينة يملكوها
فى الحال ويقيمون فيها نائباً من سادات الرجال فأجابوا أمره بالخضوع والامتثال
فعند ذلك دقت الطبول والزمور وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتفع الصياح
ولمع السلاح وترتبت الكتائب وسارت المواكب فى تلك البرارى والسباسب
وكانوا كلما وصلوا إلى مدينة أو بلد امتلكوها بحد السيف المهند حتى ملكوا
أكثر البلاد وطاعتهم العباد ومازال تبع يتقدم حتى أقبل إلى مدينة الشام فأحاط
بها من جميع الجوانب بالمواكب والكتائب وكان نائب الملك ربيعة فى دمشق
الشام يدعى يزيد بن علام وكان ربيعة وأخوه مرة فى وادى الأنعمين وهو مكان
بعيد عن المدينة مسافة يومين فارسل الملك تبع إلى نائب الأمير ربيعة أحد
الوزراء العمد يطلب منه الخضوع لأمره وتسليمه .

فلما وصل إليه ودخل عليه وأعلمه بالخبر وما قال تبع وأمره فأجاب بالسمع
والطاعة ونهض مسرعا فى تلك الساعة وأخذ معه الأموال والذخائر وخرج فى
جماعة من الأكابر حتى التقى بتبع فى الخيام فحياه بالسلام فترحب به غاية الترحيب
وأمر له بالجلوس فجلس بمكان قريب منه فقال تبع هل أنت حاكم الشام قال نعم
أيها الملك الهمام فسأله عن حكم ربيعة فقال له ظالم على قومه وكل الرعايا تشكوا

من ظلمه وتمنى له الأذى والضرر والموت الأحمر ، والحمد لله رب البرية الذى أعانك بك حتى نتخلص من نير العبودية فستخدمك خدمة مرضية ، ونصير لك من جملة الرعية وماقوله ذلك لتبع إلا من الخوف والفزع فتبسم تبع من هذا الكلام وقال أبشر ببلوغ المرام فإنك ستكون نائبي فى بلاد الشام وتحمل لى الخراج فى كل عام فقال سمعاً وطاعة يامللك الزمان وجوهرة هذا الأوان ثم عرض عليه الذخائر وما جاء به من نفيس الجواهر فانشرح صدر تبع وخلع عليه الخلع وقال له أذهب الآن وجوه أهل المدينة وباشر فى الضيافات والزينة فاننا سنحضر إلى عندك بعد ثلاثة أيام ونتفرج على الشام ثم نرجع إلى المضارب والخيام فقال له أهلا وسهلا الأرض أرضك والبلاد بلادك ثم ودع الملك وسار بمن معه من الأكابر والتجار وأخذ يسعى فى أمر الوليمة وقد خامرت معه أهل الشام خوفاً من السبي والهزيمة .

هذا ماجرى لهؤلاء من الاخبار وأما ما كان من ربيعة وبنى قيس الأخيار فانهم لما سمعوا بقدوم الملك تبع إلى الديار وافتتاحه المدن والأمصار أخذهم القلق والافتكار وكان قد بلغ ربيعة قول زيد إلى تبع حسان وكيف أنه نسبه إلى الظلم والعدوان مع أنه كان من أعدل ملوك الزمان أخذه الغضب والقلق وزاد به الحنق فجمع أكابر قومه وأخيه مرة ومن يعتمد عليهم من أهل الشجاعة والقدرة وجعل يخاطب الأمراء والسادات بهذه الأبيات :

غنا ربيعة شعراً من ضمايره ... ودمع العيون على الوجنات طوفان
ياقومنا أسمعوا وامتثلوا قولى ... أنتم بنو قيس أبطال وشجعان
كنا بخير والسعد يخدمنا ... نقرى الضيوف ونكسى كل عريان
والجوخ والخز السمور يأتى لنا ... من ساير الأرض والملبوس ألوان
جاءنا من البحر ذا التبع يحاربنا ... صعب المراس شديد البطش سلطان
معه رجال عوابس الف الف بطل ... من كل درغام قلبه مثل صوان
حاز البلاد وما أمير خالفه ... الكل طاعته القاضى مع الدان
أتى إلينا وماحسب حساب لنا ... منا ومن غيرنا هو ليس فزعان
معاه عسكر كثير ماله عدد ... أبطال حرب وفرسان شجعان
أنا بقيت كبير السن يا عربى ... مالى [illegible] فى اللقا وسط ميدان

خبرة أخوى بهذا الرأي ساعدنى   همام يا ابن أخى ما كنت كسلان
ما يترك الكاس من يديه ولا ساعة   إلا بوقت اللقا أو بعض أحيان
كيف العمل تنهزم أو نقابله   شوروا للصواب إخوتي وخلان

فلما فرغ ربيعة من شعره قالت السادات والفرسان عن فرد لسان أن هذا الأمر لا يطاق وعلقم مر المذاق وليس لنا غير الهزيمة فهى أوفر غنيمة والاحكم سيفه ولاشانا عن بكرة أبينا وبعد مداولة طويلة وجلسة مستطيلة استقر رأى الجمهور على أن يذهبوا إلى عند تبع المذكور فيسلموا عليه ويقبلوا يديه ويطلبون لأنفسهم الأمان ويقدموا له التحف الحسان لعلهم يتخلصون بهذه الوسيلة من تلك الورطة الوبيلة هذا ما كان من أمر بنى قيس وأما الملك تبع فإنه فى اليوم الثالث ركب في وجوه قومه وتوجه إلى مدينة الشام لأجل الزيارة كما تقدم الكلام .

فلما بلغ الغاية ووصل السراية التقاه زيد بالتعظيم والإكرام وأجلسه فى أعز مقام وصنع له وليمة عظيمة ذات قدر وقيمة فأحسن إليه وخلع عليه وفرق التحف الثمينة على أكابر أهل المدينة ثم رتب الخراج فى كل عام وبعد ذلك رجع إلى المضارب والخيام وهو مسرور الفؤاد على المرام وأما بنو قيس فإنهم جمعوا التحف الحسان والأموال التى يكل عن وصفها اللسان من عقود وجواهر ومهمات وذخائر وقماش فاخر وحملوها على مائة جمل وركب ربيعة مع أخيه مرة فى مائة بطل وسار معهما جماعة من الأمراء والقواد الذين عليهم الاعتماد وجدا فى قطع البرارى والقفار حتى وصلوا إلى تلك الديار وعند وصولهم إلى المضارب نزلوا عن ظهور الجنائب واجتمعوا بخزندار الملك تبع وكان إسمه ثعلبة ابن الأبشع فقدموا له التحف الحسان ليقدمها إلى الملك تبع حسان ويعلمه بقدومهم إلى الديار فقدمها الخزندار وأعلم بمجىء القوم فى مثل ذلك اليوم مرادهم الدخول عليه ليتشرفوا بتقبيل يديه ورجليه ويحصلوا على أمانة ويكونوا من جملة خدامه وأعوانه فتبسم تبع والتفت إلى وزيره نبهان وقال له أين ملوك قيس العظام الذين كنت قلت عنهم ما هو كذا وكذا من الكلام وإنى لا أصلح أن أكون من جملة خدامه وهم قد حضروا الآن لتقبيل أقدامى ليكونوا من جملة أعوانى وخدامى فقال الوزير وقاك الله من كل شر وضير وجعل عاقبة هذا الأمر إلى خير فبينما هم فى الحديث والكلام إذا دخل على الملك أمراء بنو قيس الكرام فقبلوا الأرض بين يديه ووقعوا على رجليه فأخذ تبع ينظر إليهم ويتأمل فيهم فكانت منه التفاتة فنظر

الأمير ربيعة واقف فى باب الصيوان وهو مثل الأسد الغضبان وكان الأمير ربيعة لم يدخل مع قومه على الملك حسان لأن نفسه ما كانت تطاوعه على الذل والهوان فالتفت الملك تبع إلى الترجمان وقال من يكون هذا الإنسان فإنى أراه معجب بنفسه غاية الإعجاب ولا حاسب لى أدنى حساب فسأل الترجمان عنه فقالوا الشمشم سيد بنى قيس الأمير ربيعة المعظم .

فلما سمع تبع هذا الخبر شخر ونخر وتبدل عيشه بكدر واحمرت عيناه حتى صارت مثل الجمر ثم ناداه فحضر وقد تعجب من عظم هيبته وبياض لحيته فسلم ربيعة عليه ووقف بين يديه فقال تبع أأنت سيد بنى قيس الكرام فقال نعم أيها البطل الهمام وقال ولماذا أسأت الأدب واحتقرتنى دون باقى أمراء العرب الذين تمثلوا أمامى وقبلوا يدى وأقدامى فتقدم الآن وقبل رجلى يا مهان وإلا قتلتك بحد الحسام وجعلتك عبرة بين الأنام .

فقال ربيعة وقد استعظم ذلك الأمر واحمرت عيناه من الغيظ حتى صارت مثل الجمر لأنه كان من أشرافهم حسباً وأعلاهم نسباً ثم قال اعلم يا ملك الزمان بأنى ملك من ملوك العربان صاحب قدر وشان وما ذلت نفسى لإنسان وهذه هى بلادى وملك آبائى وأجدادى وأنا ما تعديت عليك وما أوصلت أذيتى إليك بل أنت شنيت علينا الغارة وامتلكت بلادنا وألحقت بنا الخسارة وذلك بدون سبب من الأسباب فكفى الذى فعلته أيها الملك المهاب وقد بلغت منا قصدك فلا أنت تقبل يدى ولا أنا أقبل يدك فلما سمع منه هذا المقال خرج عن دائرة الاعتدال وقال يا نذل بنى قيس ومن هو أذل من التيس إنى ما أتيت من بلادى بهذا الجمع المتزايد إلا لأجعل زمام الدنيا فى قبضة ملك واحد ثم بعد هذا الكلام صاح على الأعوان والخدم بصوت كرعد فى الغمام يا ويلكم اقبضوا على هذا الشيخ الكبير ومن معه من بنى قيس الطناجير وقيدوهم فى الجنازير فامتثلوا أمره فى الحال وقيدوا ربيعة وباقى الرجال وبعد أن قيدوه وأوثقوه أمر الملك بشنقه فشنقوه وهكذا انتهت حياته وانقضت أيامه وساعاته وبقى معلقاً ثلاثة أيام حتى جاء نائبه الأمير زيد إلى الشام فغسله وكفنه ثم وراه التراب ودفنه ثم جاء فى باقى الرجال وأرادوا أن يفعلوا بهم مثل تلك الفعال فانهزم الأمير عرة من بين أيدى القوم وتقدم إلى عند الملك تبع حسان وطلب الأمان يا ملك الزمان نحن الآن عبيدك وطوع يديك وجميع أمورنا راجعة إليك فاعفوا عنا فقد

حضرت لنا ملك ثم أنه بعد هذا الحديث والكلام أشار يخاطبه بهذا الشعر والنظام

مقالات لمرة فى بيوت ... صروف الدهر قد جارت علينا
ألا يا أمير تبع يا مسمى ... أيا ملك الورى فى العالمينا
أنا فى جيرتك يا فخر قومك ... أجيرنا لا تشفى الضد فينا
قتلت أخى ربيعة يا مكنى ... وأسقيت العدا والحاسدينا
وتقتلنى أنا يا أمير بعده ... تهد رجالنا طول السنينا
نحن يا ملك حكام مثلك ... على كل القبائل حاكمينا
فليس بواجب تهدم بيوتى ... ولا هذه فعال الماجدينا
وقد حاربنا وحكمت فينا ... ونحن اليوم فى حكمك رضينا
وبعد اليوم صرنا لك رعايا ... على طول الليالى والسنينا
وندفع كل عام عشر المال كله ... فاحكم بما تريد اليوم فينا

(قال الراوى) فلما سمع تبع شعره ونظامه وعرف قصده ومرامه عفى عنه وأعطاه الأمان وكذلك صفح عن باقى الأمراء والأعيان وجعلهم من حملة الرعايا والخدام يدفعون له الخراج فى كل عام وقال لمرة يا سيد القوم قد صممت أن أتخذ مدينة كرسى بمملكتى بعد هذا اليوم فسر أنت وأهلك من هذه الديار وتفرقوا فى سائر الأقطار وكونوا لأوامرى طائعين ولحكمى خاضعين سامعين

ثم أنه قسمهم إلى عدة فرق وأقام على كل فرقة ملك من سادات بنى قيس الأعيان فجعل الأمير مرة على الفرقة الأولى وأمره أن يسكن مع قومه فى نواحى بيروت وبعلبك والبقاع وجعل الأمير عدنان على الفرقة الثالثة وأمره أن يقيم فى بلاد العراق وتلك المنازل والآفاق وكان الملك تبع قد شتت بنو قيس بهذه الوسيلة خوفاً من أن يقع فى مكيدة أو حيلة ثم أنه التفت على الأمير مرة وباقى السادات وأشار إليهم بهذه الأبيات

يقول التبع المدعو اليمانى ... أبا مرة المنكم منى الامان
ألا يا قيس روحوا لا تخافوا ... فقد سدتم على أهل الزمان
ربيعة أنت يا مرة بداله ... كبير القوم من قاس ودان
وأولادهم لهم موضع أبوهم ... وأنت أكبرهم فيهم تعانى
ولكن خلق لا تسكنوها ... وكونوا فى أمان مدى الزمان

فلما فرغ تبع من كلامه وشعره ونظامه أجابت بنو قيس أمره بالامتثال وتفرقت جموعهم فى البرارى والتلال وهم يبكون على ما جرى عليهم وما وصل من الأذى إليهم لأنهم كانوا فى أرغد عيش وأهناه وفى عز وجاه كلمتهم بين الناس مسموعة ورواياتهم فوق هام المجد مرفوعة لا يعرفون الهم والكدر ولا يأخذهم قلق ولا ضجر إلى أن أصابتهم البلية وحلت بهم تلك الرزية فبكوا على تفرق بعضهم البعض وتشتتهم فى أقطار الارض .

ومن غريب الاتفاق المستحق التسطير فى الأوراق هو ما جرى للاربعة إخوة الذين اشتهروا من بنى قيس بالحمية والنخوة وذلك أنه كان لزوجة الأمير ربيعة المذكور والد كليب والزير الفارس المشهور أربعة إخوة من الذكور وهم جوشن وناجد وجودر والأمير منجد والأسد الغضنفر وكانوا من أجود الناس قد اتصفوا بالشجاعة وقوة البأس .

فلما رأوا أفعال تبع الشنيعة وكيف أنه قتل صهرهم ربيعة ساءهم ذلك الامر وتوقد قلبهم من الغيظ بلهيب الجمر ولكنهم أخفوا الكمد وأظهروا الصبر والجلد فحملوا بيوتهم وعيالهم وساقوا غنمهم وجمالهم وجدوا فى قطع البرارى والآكام حتى وصلوا إلى بلاد الشام فنزلوا بقرب صيوان تبع حسان فقال لهم من تكونوا من العربان فقال له ناجد إعلم أيها السيد الماجد أننا من خيار العرب أصحاب الحسب والنسب وكان الأمير ربيعة متزوجاً بأختنا جميلة وكنا على زمانه فى نعم جزيلة والآن قد أمسينا فى ذل وهوان ليس لنا قدر ولا شان وقد قصدناك وأتينا إليك وجعلنا اعتمادنا بعد الله عليك لعلك ترحمنا وترثى لحالنا وتبلغنا غاية آمالنا وتجعلنا من جملة الأعوان والعبيد والغلمان فتستقيم أمورنا بعد الذل والكدر ونحظى بالشرف الرفيع وبلوغ الوطن فأعجبه كلامهم وبلغهم مرامهم وجعلهم من جملة وزرائه وأكابر أمرائه وكان يستشيرهم فى أكثر الأوقات ويفضلهم على الرؤساء والسادات وكانوا يترقبون الفرص ليأخذوا بالثار ويزيلوا عن قلوبهم الغصص ولما بلغ تبع الغاية دخل إلى مدينة الشام ونزل بالسراية فطاعته العباد وخضعت له جميع البلاد وشاع ذكره فى الأقطار وتحدث به الملوك الكبار واستمر على هذه الحالة مدة ثلاثين سنة تهاديه الملوك الأكاسرة وتهابه الملوك القياصرة .

وكان قد بنى له قصراً مرتفع البنيان مشيد الأركان وجعل أبوابه من الفضة

والذهب ومرصع حيطانه بالجواهر والدر المنتخب فكان من عجائب الزمان وذلك لما فيه من التحف الحسان التى تدهش النواظر وتحير العقول والبصائر .

فاتفق ذات يوم بينما هو جالس فى الديوان ومن حوله الأكابر والأعيان وهم يتحدثون بذكر نساء العرب اللواتى اشتهرن بالفضل والأدب والحسن والجمال واللطف والكمال إذ قال بعض الوزراء أنه لا يوجد فى هذا الزمان بين بنات العربان فى المحاسن والأوصاف البديعة أجمل من الجليلة إبنة أخى ربيعة وأخذ الوزير يطيب فى أوصافها وآدابها وألطافها ثم قال فى آخر الكلام إن هذه الصبية التى كأنها البدر التمام مخطوبة لابن عمها الأمير كليب ومراده أن يتزوج بها فى هذه الأيام فهنيئاً لمن كانت هذه زوجته وقرينته وحبيبته .

فلما سمع تبع بذكرها وأنها من أجمل بنات عصرها اشتد غرامه بها وتعلق قلبه بحبها وكتب إلى أبيها مرة كتاباً بالحال يأمره أن يرسل له الجليلة بدون إهمال لأن مراده أن يتزوج بها ويكون صهره وبهذه الوسيلة يعلو بين الناس قدره ثم ختم الكتاب بهذا الشعر والنظام وبه يتهدده بالانتقام إن لم يمتثل إلى هذا الكلام وأشار يقول :

يقول التبع الملك اليمانى ... ملكت الأرض والسبع البحار
ألا يا غادياً منى لمرة ... على فرس تشابه ريح سارى
بحال وصول مكتوبى إليه ... فأعلمه بحالى وانتظارى
أيا مرة فأرسل لى الجليلة ... بلا إهمال من بين السرارى
سمعت بأنها زينة مليحة ... ويخجل حسنها ضوء النهار
وحين سمعت بها طار عقلى ... وقل اليوم منى اصطبارى
أريد تكون باكر وسط قصرى ... وتتسلطن على كل الجوارى
وأرسل جزية السبع المواضى ... خزين فى صناديق كبار
واحضر يا ملك مرة عندى ... واخضع لى بذلى وانكسارى
وأدخل على الجليلة وسط قصرى ... وأتمتع بها وأطفى لنارى
وإن كانت كما وصفوا وقالوا ... سأمضى الليل معها مع نهارى
وأعطيك أتباع إلى بعلبك ... وأرفع لك مقاماً فى جوارى
وإن لم تمتثل قولى وأمرى ... ترانى جئتكم مثل الضوارى
وأمحى جمعكم بحد سيفى ... وأنهب مالكم وأنال ثارى

ثم أمر تبع وزيره نبهان أن يركب فى جماعة من الفرسان ويقصد تلك القبيلة ويسلم الكتاب إلى مرة ويأتيه بالجليلة فامتثل أمره وسار وجد فى قطع القفار حتى وصل إلى تلك الديار فرأى القوم فى سرور وأفراح وشرب مدام وانشراح لأنهم كانوا مهتمين فى تلك الأيام فى جواز كليب بالجليلة بدر التمام .

فلما سمع مرة بقدوم وزير تبع خفق قلبه من شدة الخوف والفزع فنهض فى الحال واستقبله أحسن استقبال ثم أتى به إلى الخيام واحترمه غاية الاحترام وأمر الخدام أن يأتوا بسفرة الطعام وآنية المدام فامتثلوا إلى أمره كما ذكر وبعد أن أكلوا وشربوا ولذوا وطربوا قال الأمير مرة إلى الوزير إعلم أيها السيد الخطير لقد زاد سرورنا الآن وتزينت بقدومك الأوطان ثم سأله عن سبب زيارته وما هى غاية حضرته فقال قد أتيتك بكتاب من تبع ملك الأعارب وبه يطلب إبنتك امرأة له وأنت تعلم بطش هذا الجبار وفعله فقد قال المثل لا تعاند من قال فعل وأنا والله فى غاية الحياء والخجل وليس لى إرادة بهذا العمل ولكننى أتيتكم فى زى رسول لأعلمك بالخبر اليقين وليس على الرسول إلا البلاغ المبين ثم أخرج الكتاب وسلمه إياه ففتحه الأمير مرة وقرأه ولما وقف على حقيقة فحواه انقطعت أمعاه وضل عقله وتاه لأنه أبى وامتنع يقتل الملك تبع وإن أجابه إلى ما طلب يصير معيرة بين قبائل العرب وتشتمه الناس وتزدريه حيث كان قد أنعم بزواج إبنته إلى كليب ابن أخيه فانهار وحار وأخذ يتأمل فى عاقبة هذا العمل فلم يجد سوى الخضوع والامتثال لأوامر تبع فى الحال خوفاً من العواقب وحلول النوائب فالتفت إلى الوزير نبهان وقال له أمام الأمراء والأعيان ومن حضر فى ذلك المكان لقد أجبت الملك إلى ما طلب وبلغته من إبنتى غاية الأرب لأن ليس لنا بعد الله سوى أمره ورضاه لأنه الملك الأكبر وبمصاهرته نحظى على الشرف الرفيع والحظ الأوفر وبعد ثلاثة أيام يكمل جهازها بالتمام فنضعه بالصناديق ونحمله على ظهور الجمال مع باقى الأمتعة والأحمال وتركب الجليلة فى هودجها وتسير أمام الفرسان وتذهب أنت معانا إلى عند الملك تبع حسان فانشرح صدره بهذا الكلام وأيقن بالنجاح وبلوغ المراد والحصول على الخلوع والأنعام تلك الليلة وهو فرحان .

(قال الراوى) فهذا ما كان من الوزير نبهان وأما الأمير مرة فإنه استدعى بكليب سراً وقص ذلك الحديث عليه وقال إعلم يا ثمرة فؤادى ومن هو عندى

أعز من أولادى أن الضرورة أحوجتنى إلى ذلك خوفاً من الوقوع فى المهالك وقد أعلمتك بما جرى وتجدد فما رأيك أيها البطل الأمجد فلما سمع هذا الكلام صار الضيا فى عينيه كالظلام وقال أرجوك أن تمهل الوزير ثلاثة أيام عن المسير حتى أنظر فى هذا الأمر العسير

(قال الراوى) وكان لكليب صديق يتمنى له النجاح والتوفيق يدعى العابد نعمان وكان كثيراً ما يوعده بالخير والإحسان فقصده تلك الليلة وأخبره بما جرى وما كان من أمر الملك تبع حسان فقال له أبشر بالخير يا نور العين فإن الرأى عندى أن تجهز مائة صندوق يكون كل واحد بطبقتين فى الطبقة الواحدة تضع فارساً من أبطال المكافحة والمجادلة وفى الثانية جهاز الجليلة وأنت تكون مهراجاً لها أمام سادات الجليلة وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتنال المراد من رب العباد .

واعلم لا خفاك أنه عند وصولك إلى هناك تجد سلسلة من النحاس الأصفر معلقة فوق الباب الأكبر وهى مرصدة من سحر هذا الزمان لهلاك من أراد الضرر للتبع حسان فتقع عليه بالحال وتديقه الوبال فخذ لنفسك الحذر واتكل على الله إله البشر فهو يحفظك ويحميك وينصرك على جميع أعاديك فإذا بلغت الإرادة وفزت بالسعادة بنيت مسجدى برسم العبادة وخذ لك هذا السيف الخشب وبه تنال القصد والأرب وأشار يقول :

قال عمران يا ابن زبيعة	أتاك الخير وسعدك تم
روح لقومك بشرهم	وقول لعمك وابن العم
وبشر المسمى همام	بأن الشمل اليوم يلتم
وقول للسعد آتى لقيس	واستوفى ثارك والدم
تأخذ ثارك من التبع	وتسقيه انمر بكاس السم
هذا السيف تقلد فيه	وفى كفك يا أمير يتم
والبس قموعه سموطه	تبقى تضرب فيه بعزم
وحط بعينك عرق الشب	تبقى أحمر مثل الدم
حط عروسك فى هودج	وقدم بينا زمام صفه
وشوى عرضك فشمرها	أحذر منه فى حقك ذم
هين وأحد فاك لك ما تكرب	فاجل وأعمل حالك صم

والعب ، وارقص واتهرح ° واحفظ ما يخرج من الفم
جملت ° مرة والفرسان باكر لعندى تلتم
وأنا دبرت هل . رأى من خالف قولى يندم
وسير لعنده بالإبطال قبل ما يغضب وينسم
سلسلة معمولة هناك يعلم السحر مع الطلسم
تبين كل ساعة أعداء احذر منها لا تصدم
طيب ° قلبك لا تغتاظ من ذات العايق لا تهتم
سألت المولى ينصركم ويزيل عنكم كل الهم

فلما فرغ العابد من كلامه وعده كليب ببناء المقام على أحسن نظام ثم رجع على الأثر وأعلم عمه بذلك الخبر وقال له يقتضى الآن أن نبادر بإتمام هذا الشأن وننتخب مائة من الفرسان ونضعهم فى الصناديق على ظهور الجمال مع باقى الجهاز والأموال فى صفة أمتعة وأحمال على عيون الرجال ويكونوا جميعاً بالأسلحة الكاملة والعدد الشاملة وتركب الجليلة هودجها وهى مزينة بالجواهر ويكون فى صحبتها جماعة من السرارى يدقون أمامها بالدفوف والمزامير وأنا أجعل نفسى مهرجاً لحضرتها وقائد لزمام ناقتها وندخل على تبع بهذه الوسيلة فإن تمت عليه الحيلة نلت المرام وأخذت إبنة عمى بحد الحسام وأكون قد بلغت أربى وأخذت بثار أبى ومتى قتل الملك تبع يقع فى قلب قومه الخوف والفزع .

(قال الراوى) فاستصوب الأمير مرة كلام كليب وعلم أنه سينال المراد بدون أدنى شك ولا ريب فقال لقد بالصواب أشرت وبالأمر الذى لا يعاب فافعل ما تريد أيها الفارس الصنديد .

وكان قد أمهل الوزير ثلاثة أيام حتى تتم هذه الأمور والأحكام وقد أطلع مرة إبنته الجليلة على ما تقدم ذكره وعلى قصد كليب فعله فلما كان يوم الارتحال انتخب كليب مائة من الأبطال وقص على مسامعهم واقعة الحال ثم وضعهم فى صناديق الأحمال وحملوهم على ظهور الجمال . وكان من جملتهم الأمير جساس وجماعة من عظماء الناس .

وركبت فى هودجها الجليلة وركب أيضاً الوزير والأمير مرة وجماعة من فرسان القبيلة وتقلد كليب بالسيف من تحت الثياب ولبس فروا من جلود

الثعالب والذئاب وأرخى له سوالف طوال من أذناب الكدش والبغال وركب على قطعة من قصب وحمل دبوساً من خشب وكان يقود بزمام ناقة الجليلة أمام فرسان القبيلة .

فلما رآه الوزير نبهان قال لبعض الفرسان من يكون هذا الإنسان فإن زيه عجيب وحاله غريب فقالوا هذا مهرج الجليلة بنت مرة واسمه قشمر بن غمرة زاد عجبه وتبسم وهو لم يعلم بأنه كليب الأسد الغشمشم .

وكانت السرارى تدق أمام الجليلة بالمزاهر والدفوف والفرسان تلعب فالرماح والسيوف وما زالوا يقطعون البرارى والآكام مدة ثلاثة أيام حتى اقتربوا من مدينة الشام فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات .

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني من قصة الزير سالم

الجزء الثانى

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

والأعلام وأرسلوا رجلا من أكابر العمد لكى يعلم تبع بوصولهم إلى البلد فسار على الأثر وأعلم الملك بذلك الخبر ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر وأحضر الرمال وكان عنده رمال شاطر فحضر بين يديه فقال له التبع اضرب لى تخت الرمل لمجلس وضرب الرمل فرأى جميع ما فعلته بنو قيس وقال الصناديق فيها رجال وأشار يقول :

قال الفتى الرمال صادق　　سقانى الدهر كاسات المرارا
تبعت الرمل أنا كنت طفلا　　وقبلته يمين مع يسارا
ولا أحد مثلى بالرمل عارف　　ولا غيرى يعرف كيف سارا
أحط الرمل بأربع أمهات　　وولد الصغارا مع الكبارا
ألا يا أمير تبع يا ملكنا　　يا عز العذارى يوم غارا
أقول لك عن التقادير والجنايب　　وتحسب إن جابوا لك تجارا
جوا يا ملك هم يقتلوك　　ويدعوا القصر بعدك دشارا
صناديق التى لك حملوها　　بها أبطال بالعدد أمارا
يريدون قتلك يا ملك عاجل　　لهم ثار عليك وأى ثارا
هذا قد أعلمك يا مسمى　　وبالدنيا يشيع لها خبارا

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه وتبع يسمع نظامه نادى على العبيد احضروا مائة عبد وقال لهم روحوا إلى العمارة وكل صندوق تلاقوا فيه رجال اكسروه فانطلق العبيد إلى العمارة وهم أسد وسعيد وبقية المائة عبد هذا فى يده عصا والآخر فى يده بلطة والثانى فى يده دبوس حديد ولما وصلوا إلى العمارة ابتدأوا بكسر الصناديق وكسروا الأول والثانى إلى العشرة فصاحت الجليلة يا عبد السوء لماذا تكسروا صناديق فقال لها العبيد الرمال قال إن فى هذه الصناديق رجالات فتقدمت وفتحت لهم عشرة صناديق فما وجدوا فيها غير جهازها والقماش فقالوا إن الرمال كذاب وعادوا يردون الجواب يقع كلام ثم يرجع الحديث إلى

عجوز يقال لها حجلان وكانت رمالة وهى التى علمت الرمال بان لها جميع ما فعلوه بنى قيس وتباين لها أن الصناديق طبقتين فى السفلى رجال وفى العليا قماش فافتكرت ساعة من الزمان وضربت ثانى زمل رأت بنى قيس يقتلون التبع لا محالة فقالت خيراً لى أخذ الوجه الأبيض عند بنى قيس فقامت أخذت عصاتها بيدها وسارت إلى أن وصلت عند بنى قيس وهم فى ارتباك عظيم فقالت لهم أنا آتيت من عند تبع فقالوا لها وما قصدك قالت قصدى كشف الصناديق لأن الرمال قال أن فيها رجال ففتحوا لها أول صندوق والثانى فقالت إنى أرى الصناديق من الظاهر ذات عمق ومن الداخل بخلاف ذلك وضربت على الطبقة السفلى فلما رأوها عارفة قالوا استرى على ما ستره الله وفتحوا صندوق وأعطوها ثلاث بدلات حرير فقالت من الآن وصاعداً أساعدكم على قتل تبع ثم أن العجوز طلعت إلى عند تبع والرمال بين يديه وعمال يضرب الرمل لأن العبيد أخبروا تبع بما شاهدوا وكذلك العجوز أخبرته كما أخبروه العبيد فقال تبع يا عجوز الرمال كذاب قالت أن الرمال عمى من أكل الثوم والبصل فأمر الملك بضرب عنقه وراحت روحه إلى الوادى الأحمر وتقدمت العجوز إلى الملك وأشارت توصف حسن الجليلة وما أعطاها الله من الحسن والجمال :

تقول العجوز التى شاهدت ... مليحة تريح العنا والصدود
يا أمير تبع يهنيك فيها السعد ... وأقبل الخير لك والسعود
أتوك بنى قيس أهل السماح ... وجابوا لك الخيل ثم النقود
وجابوا الجليلة لشخصك حليلة ... بخدين حمر وعينين سود
وقامة طويلة كعود القنا ... فوق الكتاف ترخى الجعود
بشعر طويل وشعر كحيل ... بلا جرميل تصيد الأسود
حواجب كما قوس ترمى الهزوم ... وذات حزام الذهب على النهود
وذات شفاف رقاق نطاف ... عقايل طرايف تزيل النكود
ولها وجه كبدر بليلة قدر ... وجنات حمر كما الورد
وجسم رقيق وريق رحيق ... وسنان لولو سبت الورود
لها عنق كعنق الغزال ... وطوق الذهب يوقد وقود
كتاف كالعاج مثل الزجاج ... والنقش مواج فوق الزنود

وكفين أطرى من الياسمين ... من قد حواها ينال السعود
وصدر كاللوح خلقه الإله ... وقد زين الصدر جوز النهود
وأعطاف وأرداف مثل العجين ... خلق الإلــه مهيمن ودود
أما الحجول تزيل العقول ... حب الطرف يطفى الصـــدود
أما القلائد مناسل ذهوب ... من الرأس مكعوب مثل البنود
وطبوسها ملينح حرير مقصب ... مطيب بمسك وزهر وعود
وإن شافها رجل عابد فقيه ... غدا العقل منه شارد شرود
قد زينوا بنى قيس لك عروساً ... تجلى لأجـلك كل هم وكود
للملك حقاً قـــد أحضروا ... مليحة خلالها يزيل النقود
فأرسل وراها وخلى المحال ... واسمع كلامى واجلى الصدود
وادخل على بنت مرة وكن ... لطيفاً بقطف ثمـار النهود

(قال الراوى) فلما فرغت العجوز من كلامها والملك تبع يسمع نظامها فراح عقله من وصف العجوز ونادى على الوزير يأمره أن يحضر الجليلة بالتبجيل والتكريم وخلفها السرارى بموكب عظيم. فدخلت على تبع وكان جالساً على كرسى المملكة وعلى رأسه تاج من الذهب الفاخر مرصعاً بأنواع الجواهر فسلمت عليه ووقفت بين يديه فرد عليها السلام وآنسها بالحديث والكلام وقال لها أهلا وسهلا بالسيدة الكريمة والدرة التى ليس يقـدر لها قيمة ثم أجلسها بمكان قريب منه وترحب بها غاية الترحيب وقد انبهر من فرط جمالها وعذوبة ألفاظها وفصاحة مقالها لأنها كانت متصفة بالأدب ومن أجمل نساء العرب فأخذ الملك يسألها عن أهلها وعشيرتها فقالت له بكلام الدلال إعلم أيها الملك المفضال أن اتصالى بجانبك وتشريفى بساحة بابك جعل لقبلتنا إسماً كبيراً وذكراً بين الناس شهيراً كيف لا وأنت ملك هذا الزمان والجوهرة الثمينة فى هذا الأوان الله يحفظك لنا ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك فإن كنت تعظم شأنى وترفع مرتبتى على أقرانى لا تترك أبى وأعمامى وسادات أهلى وأقوامى بعيد عن فضلك وإحسانك لأنهم قد صاروا من جملة أتباعك وأعوانك فأمر لهم بمكان ينزلون فيه وأمر بصناديق جهازى وباقى الأحمال تحضر إلى هنا فى الحال لأنها مملوءة من التحف والجواهر والقماش ومع كل ذلك فنحن أولاد عم .

(قال الراوى) فأمر تبع وزيره نبهان يذهب فى جماعة من الأعيان ويعد إلى الأمير مرة أبى الجليلة ومن معه من بنى عمه قصراً من القصور الجميلة وأن ينزل بقية الفرسان فى غير مكان ويقدمون لهم الطعام والشراب وما يلزم من الثياب فأجاب الوزير بالسمع والطاعة وفعل كما أمر مولاه من تلك الساعة وبعد أن نفذ الوزير الأمر ووضع الصناديق فى داخل القصر التفت الملك تبع إلى مرة وقال له ياعمى ما بقى من بعدى إلا أنت من مقامى فإن غبت أنا تكون أنت حاكم مكانى ثم أنه قربه إليه وأخذ يترحب بالجليلة ويقول :

يقول التبع اليمن الكبارى ... أنا ياقيس زال الهم عنى
ألا يا مرحبا يا أمير مرة ... أنا منكم وأنتم اليوم منى
ترى لولا الجليلة لى تعانب ... وجابت لى الحسب والنسب منى
فما علمت أننا يمنا وقيسا ... بنى جدين أخوين بظنى
فلا تعتب على بقتل أخيك ... ما قد صار ما بالعلم منى

(قال الراوى) فلما فرغ تبع من كلامه والحاضرين يسمعون نظامه أخذوا بالكاس والطاس وقال للجماعة حلت البركة فيكم فقعدت تشرب معه المدام وشرب الملك تبع إلى أن سكر وغنت البنات ورقصت فقال تبع للجليلة ياسيدة الملاح وكوكب الصباح قد أجرينا المطلوب طبق المرغوب فهل لك غرض آخر تقضيه حتى نفعل ماترغبينه وتشتهيه وكانت الجليلة تجول أفكارها لأجل أن تستدعى كليب إلى عندها وقد سمعت صوته عند القصر وهو يصرخ من جوانب القصر لأنه راكب على فرسه القصب وبيده دبوس من الخشب وكان يرقص فى البستان وينتقل من مكان إلى مكان فقالت نعم أيها السيد الماجد باقى لى غرض واحد وهو أن لى نديم إسمه قشمر لايوجد مثله بين البشر حلو الصفات سريع الحركات يضحك الأحجار بأفعاله ويزيل الهموم بغرائب أعماله قد أحضرته هذه المرة فى خدمتى ليسليني عند حزنى فإن حسن لديك أمر أن يدخل إليك ويلعب بين يديك فيزداد سرورك وانشراحك وتزول أحزانك واتراحك فضحك من كلامها وأجابها إلى مرامها وأمر الخدم بإدخاله ليرى طرفاً من أعماله وعند وصوله إلى باب الإيوان نظر السلسلة التى ذكرها العابد نبهان فامتنع عن الدخول وأخذ يتكلم بكلام مجهول ويقول ما هذه الحيلة التى أراها وأنا خايف من شرها وأذاها فقال ادخل وماعليك

من باس فما هى إلا سلسلة من نحاس فأبى وامتنع وهو يظهر على نفسه الخوف والفزع ولما طال المطال التفتت الجليلة إلى تبع فى الحال وقالت له بكلام الدلال إعلم أن قشمر من أخوف البشر فإن حسن لديك ولم يصعد عليك أمر الخدام والحجاب برفع السلسلة عن الباب فرفعوها وأتوا بقشمر إليه فلما صار بين يديه سلم عليه ودعا له بطول العمر والبقاء ودوام العز والارتقاء وأخذ كليب يمزح أمامه ويلعب بسيفه قدامه وهو فى تلك الثياب التى ذكرناها والصفة المضحكة التى وصفناها فكان تارة يبحلق عينيه ويرقص الأرض بيدية ورجليه وتارة يقول أين الفرسان الفحول وأين أبو عطبول واحياناً يرقص ويضحك بلا سبب وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب كان من أعجب العجب فاندهش تبع من أعماله واستغرب من أحواله وأقواله .

ثم قال للجليلة والله يا كاملة المعانى وشريكة عمرى وزمانى لقد أصبت فى منادمة هذا البهلول الذى يدهش بأفعاله العقول فإنه من كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام والجواب فقالت له صدقت فيما نطقت فإننى لم أر رجلا مثله بين الأنام فى الزلاقة وفصاحة الكلام ومتى بقى عندك عشرة أيام يقوم بمنادمتك حق القيام ويدعوك مشروح الخاطر على طول الزمان ثم قال قشمر وهو كليب للتبع حسان إن كنت تريد أن تطرب الآن فأمر سيدتى الجليلة أن تغنيك بأبيات من الشعر فإن صوتها مليح ولفظها فصيح فقال لها هل تحسنين الغناء ياسيدة النساء فقالت أى وأبيك فإن كنت تريد منى أن أغنيك وأطربك وأسليك فأمر قشمر أن يقفل الباب لئلا يسمعنا أحد الخدام والحجاب فاستصوب كلامها الملك تبع وأمر قشمر أن يقفل باب المخدع فقفله وعاد بالعجل وقد أيقن ببلوغ الأمل وانشدت الجليلة تقول من فؤاد متبول :

لقد قالت الجليـــلة بنت مرة   شربت الخمر ما بين الأماره
شربنا الخمر فى كاسات جوهر   فزال العقل واصبحنا سكارة
بحضرة تبع الملك المســمى   بحسان إذا ما شن غارة
وقد أمسيت فى قبضــة يديه   ومن حبه شعل قلبى ناره
ألا يا حارس البستان صنه   وإن فرطت الطير طاره

(قال الراوى) فلما انتهت الجليلة من هذا الشعر والنظام زاد بالتبع الوجد

والغرام وسكر من غير مدام وقال مثلك من تكون من النساء فقد زاد سرورنا فى هذا المساء. فلما رآه زاد به الطرب وأخذ يرقص أمامه ويلعب بالسيف الخشب فقال له تبع عيب عليك يا قشمر أن ترقص بهذا السيف أمام الملك الأكبر فقال اعطينى إذن حسامك وأنا ألعب به أمامك فقالت له الجليلة بحياتى عليك أن تبلغه الأرب وتعطيه ماطلب فإنك ترى منه العجب فأمره أن يدخل إلى قاعة السلاح فيأخذ السيف ويرجع بالعجل فأجاب كليب وامتثل وكانت الجليلة أومت إليه أن يسرع فى العمل وعند دخوله إلى ذلك المخدع وجد سلاح تبع فلبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه وخرج بالعجل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل بعد أن فتح صناديق الأحمال وأخرج الفرسان والأبطال فبقوا فى ساحة الدار وقاموا له بالانتظار وكان قد سل الحسام من غمده وهو يهزه فى يديه ثم دخل على الملك وقد أحمرت عيناه وتذكر أباه فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الأبطال فى ساحة القتال وبعده تقدم وهجم عليه فعرفه حينئذ الملك تبع وقد انقطع من الخوف وأيقن بالهلاك والقلعان فقال بالله عليك ياسيد الشجعان وفارس الميدان أن تعفو عنى وتسمح عما فرط منى فقال لابد من قتلك كما قتلت أبى وأكون قد أخذت ثارى وبلغت أربى فقال تبع إذا كان لابد لك من هذا الشأن فأمهلنى ساعة من الزمن حتى أفيدك عن جميع الأمور والأحوال التى تحدث إلى آخر الأجيال فقد اتضح لى الحال ووقعت فى شرك العقال ثم أنشد وقال :

الملحمة الكبرى للتبع حسان

يقول التبع الملك اليمانى ... لهيب النار تشعل فى فؤادى
أمير كليب يا فارس ربيعة ... ويا حامى النساء يوم الطراد
أريد اليوم أن اعلمك شيئاً ... لتعرف حال أخبار العباد
فموسى كان فى الدنيا نبياً ... له التوراة أعطت للرشاد
وداود النبى قد جاء بعده ... يبشر بالزبور أهل الفساد
وعيسى ابن مريم جاء ايضاً ... بإنجيل الخلاص لكى ينادى
نبى لم يكن فى الناس مثله ... لأن الله أختاره يفادى
فكم ميت بكلمته أقامه ... وسقوم شفاء من الأمراض

وعبدى قد تبين بالملاحم بأنك قاتل دون العباد
وبعده شاعر تنزل عليكم وتفتن بين قيس فى البلاد
وأنت برج جساس ستطعن وعبدى يذبحك بين الجياد
وتكتب بدمائك على البلاطة لمن بعدك لتشتيت الأعادى
ويأتى أبو ليلى المهلهل فيصلى الحرب فى كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد يضرب بالسيف فى يوم الجلاد
وتأخذ الجليلة لك قرينة وتحظى بالمسرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك يسمى الجرو قهار الأعادى
يقتل إلى جساس خاله وأما الزير تقتله الأعادى
وسيف ذو يزن بعدك سيظهر وتصحبه السعادة فى العباد
ويبقى ملكه سبعون عاماً وبعد ذلك يطوى فى الوهاد
ويظهر له ولد يدعى بدمر شديد البأس مرفوع العماد
فيملك فى بلاد الشام بعده يجهب الماء من أقصى البلاد
وبعده يظهر المدعو بعنتر يهين الضد فى يوم الطراد
وبعده يظهر الهادى محمد يقيم الدين ما بين العباد
وأصحابه معه عشرة كوامل كرام الناس سادات البلاد
أبو بكر وسعد مع سعيد وطلحة والزبير ابن الجياد
وعثمان مع عمر وعلى وعامر مع حسين أهل الرشاد
يموت الهاشمى ويصير خلف على الأحكام بعده بالعباد
أبو بكر يموت بلسع حية وبعده عمر يقتل بالطراد
على بالسيف يرديه ابن ملجم يتيما انتشى بين الولاد
ولا يعرف له قبر محقق على وجه الثرى بين العباد
وتختلف الصحابة على الحكومة ويحكمها حسين بالبوادى
وبعده بنو أمية سوف تحكم وأولهم معاوية ابن عاد
ومن بعده بنى العباس تحكم سنين كثيرة بين العباد
وبعده الخوارج سوف تظهر فواطمة الفواحش والعناد
يقيموا الشر فى كل الأراضى ويملوا الأرض طرا بالفساد

ونظهر من بلاد الشر عصبة فيقصد جيشها غرب البلاد
هلال وعامر مع آل قيس يزيد وحرب حمير مع أياد
حسن أمير فخر البرايا وبعد دياب قهار الأعادى
وأبو زيد ابن عمه ليث أروع شديد البأس فى يوم الطراد
يطوفون البلاد فيملكوها ويسبون العداد أهل العناد
ويمحوا العجم مع كل طاغ بأرماح وأسياف حداد
وقبرص والجزائر يملكوها وبدربس الخزاعى والأعادى
شبيب التبعى بالشام يقتل وتترك جثته فوق الحماد
وسركيس بن تاذب سوف يقتل بسيف دياب قهار الأعادى
كذا فرمند مع مصر العدية ستخرب دورها بين البلاد
وبعده يظهر الأشطان ظالم خبيث الأصل من قوم شداد
بنو أيوب تظهر بعد منه ينيمون النين من بعد الفساد
ويظهر ابن عثمان المساعد بأرض الشرق ويحكم بالعباد
ملوك الأرض تخشى من لقاهم لأن جيوشهم مثل الجراد
عداد ملوكهم عشرة وعشرة وتسعة بعدهم دون ازدياد
ويظهر تمرلنك من الأعاجم وجنكزخان من قوم كراد
ويظهر بعده ملكا قوياً يثير الفتن الحرب فى كل البلاد
طويل لملبسم ذو همة عالية له إسمين من ظاهر وبادى
يضيم السيف فى الأقطار عمداً ويجرى الدم فى كل البواد
ويظهر فارساً يدعى قطيعة فعشر سنين يظلم العباد
ويظهر بعده الدجال حقاً فتتبعه الورى أهل الفساد
يطوف الأرض من شرق وغرب ويفعل معجزات فى البلاد
ويظهر ضد المهدى سريعاً ويسطع نوره فى كل وادى
فهو عيسى المسمى ابن مريم فيقتلك ويملك فى البلاد
وبعده دابة تظهر سريعاً فتفعل معجزات فى البلاد
ونار من عدن تظهر وتسطع فتشكوا الناس من هول النكار
وبعده الشمس تظهر من مغيب وتزداد الخلائق فى الفساد
ويأجوج ومأجوج جميعاً تحيط رجالهم كل البلاد

فلا نهر الفرات لهم يروى ولا سيحون والدجلة المدد
ويغشى الأرض موتاً يا كليبا وجوع وقتل فى كل العباد
ونيران تعم الأرض طراً على أعلى الجبال وفى كل واد
وبعده يغلق باب المراسم وباب الشر يفتح باقتصاد
فلا يصعد ولا يأتى جواب فذاك الوقت يحترق العباد
وبعده يظهر من جهنم وينفخ ريح من أقصى البلاد
يموت الخلق منه ليس يبقى سوى الرحمن خلاق العباد
وبعده يظهر الديان حقاً إله العرش ديان العباد
فعندى الجفر قد أخبر مؤكد بما أخبرتكم دون ازدياد
واسمع يا أمير كليب منى حقايق قصتى وافهم مرادى
ولا تفرح عن حالى وضعفى أجرنى ياملك واطلق قيادى
واعلم يا أمير إنى عتيقك مدى عمرى إلى يوم الميعاد

(قال الراوى) ولما فرغ الملك تبع من هذه الملحمة وسمع كليب ما فيها من الأخبار المتقدمة والمتأخرة تعجب غاية العجب وقال لست أعفو عن قطع رأسك وإخماد أنفاسك لأنك افتريت وظلمت وتعديت ثم أجابه بهذا القصيد على سبيل التهكم والتهديد

يقول كليب قهار الأعادى كلام أشد من ضرب الهنادى
أنا قد صرت هذا اليوم حاكم أتانى السعد مع نيل المراد
أيا تبع إلينا قد جيت عاجل قتلت أبى وخربت البلاد
فما ابقيت قيمة للأمارة وقد البستهم ثوب السواد
هتكت الارض ياتبع بفعلك وصيرت الأنام لك أعادى
جعلت رجالنا تشبه نسانا وأذللت الأمارة فى البلاد
فوالله ثم والله ثم والله إله خالق كل البوادى
فلست براجع عن قطع رأسك ولو ملكتنى كل البوادى

(قال الراوى) فلما فرغ الامير كليب من كلامه وفهم تبع فحوى قصده ومرامه قال بالله عليك أيها السيد المحترم أن تعفو عنى وتجعلنى من الخدام فقال كليب لابد من قطع رأسك ياماهان ولكن أسألك كيف قتلت أبى غدراً وبالميدان فقال تبع إذا كان لابد لك من ذلك يافارس المعارك فأمهلنى ساعة حتى أخبرك عن قتل أبيك وأتودع من هذه الدنيا قليلا ثم إنه أبدى حزنا وعويلا وأشار يقول من فؤاد متبول وعمر السامعين يطول :

قال الملك تبع حسان ... ظلمنى دهرى دون الناس
يا ابن ربيعة يا مخدوم ... أنت أمير شديد البأس
طويل الباع بيوم نزاع ... عفيف شجاع ثقيل الرأس
تسألنى عن قتل أبيك ... فكل بناية لها أساس
فلما جيت لأرض الشام ... أتى للقانا كل الناس
أتانى كل أكابر قيس ... وكل أمير لدى باس
إلا أبوك فقد خالف ... ولم يفعل كباقى الناس
فزاد الغيظ بوسط القلب ... أمر بشنقه للحراس
وهذا بأمر الله مكتوب ... فوق جبينه بأعلى الرأس
وأنا بقيت بهذا اليوم ... وحيد فريد بلا إيناس
أريد العفو عما جنيت ... بحياة عمك مع جساس
إنى كنت زعيم القوم ... وحكمى نافذ بين الناس
فلما أتانى وعد الله ... بطل العزم وظنى خاس
دعتنى الجليلة بالحيلة ... وعانت عنى كل الناس
وهذا أمر الله مختوم ... وأمره نافذ فوق الناس

(قال الراوى) فلما فرغ تبع من هذا الشعر والنظام قال له كليب لابد من قتلك بحد الحسام حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدوك ثم ضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلا وفى دمه جديلا فلما رأته الجليلة قد مات زادت بها الأفراح واعتنقت ابن عمها وقبلته وقالت له مثلك من تكون الفرسان ياليث الميدان فشكرها كليب وهناها بسلامتها وزادنى إعزازها وكرامتها ثم خرج من المخدع وأعلم الفرسان بقتل الملك تبع وقال لهم لقد بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد فقالوا نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ثم وضع رأس الملك على رأس السنان وخرج الأبطال والفرسان وطافوا فى شوارع البلدة وضربوا من وجدوه بالسيف المهند وهم يقولون عن فرد لسان هذا رأس سيدكم حسان فقد عدمناه وقتلناه وأرحنا الناس من شره وبلاه فمن عصى هلكناه ومن أطاع أبقيناه فى قيد الحياة وله منا الأمان على طول الزمان .

(قال الراوى) فكانت أكثر أهل الشام تكره التبع لظلمه وجوره وتتمنى هلاكه فاجتمعت العساكر والأعيان وطلبوا من كليب الأمان وإنهم يكونوا له

من جملة الرعايا والغلمان على طول الزمان فأجابهم كليب إلى ذلك الطلب ورفع عنهم السيف الأحدب ووعدهم بالجميل والخيرات وسمح لهم بخراج عشر سنوات فدعوا له بطول العمر ودوام العز والنصر ثم اجتمعت بنو مرة وأكابر العشائر وقواد العساكر والبسوه تاجا مرصعا بالجواهر ثم أجلسوه على كرسى المملكة وجلس بقربه وزير الميمنة وهو نبهان وزير التبع حسان ووقفت أمامه الحجاب والأمراء والنواب فحكم معاملا الناس بالجود والكرم ومنصفا المظلوم ممن ظلم وفى الليلة الثانية اجتمعت سادات القبيلة وزفوا عليه إبنة عمه الجليلة وقد كنا ذكرنا فى أول السيرة عن أوصاف هذه السيدة الخطيرة وما احتوت عليه من الحسن والجمال والفضل والكمال فاعتنقا اعتناق الأحباب وزال عنهما الغم والاكتئاب وباتا فى حظ وانشراح إلى وقت الصباح وفى اليوم الثانى وردت إليه المدائح والتهانى واشتهر ذكره فى البلدان وهابته ملوك الزمان .

(قال الراوى) وكانت الجليلة قد طلبت من كليب أن يبنى لها قصراً من أجمل القصور وينشىء فيه بستان يحوى جميع أنواع الزهور فأجابها إلى ذلك ووعدها ببناء قصر لا مثيل له فى جميع الممالك ثم إنه نزل إلى الديوان وجميع الوزراء والأعيان وأعلمهم بذلك الشأن فقال له الوزير نبهان اعلم ياملك الزمان أنه لا يوجد فى هذه الأيام من يقدر أن يبنى لك ذلك القصر طبق المرام إلا معمر المختص بالريان ملك مصر لأنه هو المشهور ببناء القصور الحسان وهو الذى عمر قصر تبع حسان فأرسل كليب واستدعاه إليه ولما حضر بين يديه قبل الأرض وسلم عليه فقال له كليب أريد منك أن تبنى لى قصر من القصور الحسان لا يوجد مثله فى جميع المدن والبلدان ويكون له جنينة جميلة المنظر تحتوى على جميع الأشجار والخضر فإن أتقنت الصنعة طبق المرغوب نلت المقصود والمطلوب فأجابه بالسمع والطاعة وباشر فى بناء القصر فى تلك الساعة .

(قال الراوى) ولما اشتهر قتل تبع فى اليمن تواصل الخبر إلى صنعاء وعدن فماجت الرجال وكثر القيل والقال وكان للملك تبع ابن عم من الأمراء المشاهير يقال له عمران القصير وكان شديد البأس قوى المراس فلما بلغته تلك الأخبار صمم على غزو بنو قيس بعسكر جرار فجمع العساكر والجنود وفرق الرايات والبنود وركب فى مائة ألف مقاتل وجد فى قطع المراحل قاصدا بلاد الشام بكل سرعة واهتمام ولما بلغ كليب هذه الأخبار استعد للحرب والقتال وخرج للقائه بالفرسانه

والأبطال ولما التقى الجيشان أمر كليب أن تقدم الفوارس إلى ساحة الميدان وأخذ
ينشطهم بالكلام على قتال الأخصام فهاجت الشجعان وتبادرت للضرب والطعان
وكان الأمير كليب أول العسكر كأنه الأسد الغضنفر وعلى رأسه البيارق
والسناجق ثم التقت الرجال بالرجال واشتعلت بين الفريقين نيران الحرب والقتال
حتى عظمت الأهوال فلله در الأمير كليب بطل الأبطال وما فعل فى ذلك اليوم
من الفعال فإنه هجم هجوم الأسود وانطبق على العساكر والجنود بقلب أقوى من
الجلمود فبادر فرسان الكفاح وخطف المهج والأرواح وما زال الدم يسيل
والرجال تقتل إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقت العساكر عن
بعضها البعض وباتوا فى تلك الأرض وعند الصباح رجعوا إلى الحرب والكفاح
فبرز الأمير عمران إلى ساحة الميدان فصال وجال وطلب براز الأمير والأبطال
فأراد كليب أن يبرز إليه فمانعه حجابه وقالوا أيها الملك أن فينا أبطالا وفرسانا
تستطيع أن تحاربه ثم برز إليه فارس من الصناديد يقال له ميمون بن الرشيد
فالتقاه الأمير عمران بقلب أقوى من الصوان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى
استظهر عمران وطعن ميمون بالرمح فوقع قتيلا وفى دمه جديل فأخذ سلبه
وحصانه ثم قوم سنانه وتقدم إلى معركة الحرب وقال أين فرسان الطعن والضرب
اليوم تبان الفروسية وتعرف شجاعة اليمنية والقيسية فبرز إليه آخر فأذاقه الموت
الأحمر وما زالت تبرز إليه الرجال وهو يجندلها على بساط الرمال حتى قتل سبعة
من الأبطال وكانوا من أكابر السادات قد اشتهروا فى الحرب والغارات واستمر
القتال على هذا المنوال مدة تسعة أيام وهم فى إبراز واقتحام وفى اليوم العاشر
جرح الأمير همزة لقتال عمران ولما صار فى الميدان تقنطر عن ظهر الحصان فأدركه
ابنه همام وجاء به إلى الخيام فعند ذلك برز إلى عمران الأمير جساس وصدمه
بقوة قلب وشدة بأس غير أنه لم ينجح فى قتاله ورجع عند المساء عربه ونزاله
فوقعت هيبة الأمير عمران فى قلوب الفرسان والشجعان فاستعظم كليب ذلك
الأمر واشتعل قلبه بلهب الجمر وقال ما لريد إلا عمر فإذا كان الصباح بارزته فى
معركة الكفاح لأنه طغى وتجبر وقتل منا كل أسد غضنفر وبات تلك الليلة
وهو فى غم شديد وقلق ما عليه من مزيد فما أقبل الصباح ركب كليب الحصان
واعتقل بالسيف والسنان وبرز لساحة الميدان لقتل الأمير عمران الذى برز فى

ذلك اليوم وهو ينادى أين الأبطال الصناديد لا يبرز إلا كليب المحتال الذى قتل الملك تبع بالغدر والاحتيال فما تم كلامه حتى صار الأمير كليب قدامه وصدمه صدمة منكرة أشد من صدمات عنترة فقال له عمران ممن تكون من الفرسان فقال له اعلم أيها التيس أنى ملك على بنى قيس فسوف ترى منى ضرباً يفك الحديد ويذهب أبصار الفرسان لما غدت تبع بالحيلة مع إبنة عمك الجليلة فقال كليب أما علمت يا قرنان بأن الرجال عند أغراضها نسوان وإنى ما قتلت الملك تبع إلا لغدره وقلة حياه وكثرة شره فإنه قتل والدى وكان عونى ومساعدى وحق هذا الذى أوجب ذلك اليوم سألحقك به وأسقيك كاس المهالك فلما سمع عمران من كليب هذا الكلام اشتد بينهم الخصام فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما أسدان درغامان فانبهرت من قتالهما الفرسان وأحدقت إليهما الأبصار من اليمين واليسار واستمرا على ذلك الحال إلى قرب الزوال حتى تعجب عمران من ثبات كليب أمامه لأنه كان يظن أنه لا يوجد فى الدنيا من يقدر أن يقف قدامه فعند ذلك قاربه وفاجأه وطعنه بالرمح قاصدا هلاكه وفناه فخلى كليب من الطعنة فراحت خايبة بعدما كانت صايبة ثم هجم كليب وقال خذها يا عمران من فارس الميدان وليث الحرب والطعان وضربه بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قطعتين وحان عليه غراب البين وبعد ذلك حملت العساكر على بعضها وتقاتلت بالسيوف والخناجر فكثر القتل والجراح وجرى الدم وساح وزعقت النفوس والأرواح من ضرب السيوف وطعن الرماح وكان بعد قتل الأمير عمران تضعضعت من عساكر اليمين الأركان فولوا الأدبار وركنوا إلى الهرب والفرار فتبعهم كليب بالعسكر وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف نفر وغنم غنائم عظيمة لها قدر وقيمة وما زال تابع آثارهم حتى دخل ديارهم فخرجت إليه أكابر البلاد طالبين العفو والأمان فأجابهم كليب إلى ذلك الشأن وارتد راجعا إلى الشام بعد أن رتب عليهم خراجاً يدفعونه فى كل عام فدخل القصر بالعز والنصر فاجتمع بابنة عمه الجليلة وباقى سادات القبيلة وطاب له الوقت وزال عنه المقت ثم بعد ذلك بعشرة شهور تم بناء ذلك القصر المذكور فكان من عجائب الزمان والأوان لأنه كان فى غاية الإتقان ولا سيما البستان فإنه كان كفردوس الجنان فيه من جميع الأشجار والفواكه والأثمار والمياه الغزيرة والزهور الكثيرة حتى أعجب كليب به وأنعم على بانيه وفرشه بالفراش الفاخر الذى يبهر النواظر ويحير العقول وجعل أبوابه وشبابيكه من ذهب ورصعها بأنواع الجواهر المنتخب

ثم نقل إبنة عمه الجليلة إليه وكانت قد ولدت سبعة بنات مثل البدور الطالعات فربتهن بالدلال والعز والإقبال فاتفق له ذات يوم من الأيام أن زاره مرة ابن أخيه كليب فى جماعة من بنى الأعجام وبعد أن دار بينهم الكلام قال مرة يا ابن أخى كثرت عليك الرجال والأغنام لسبب كثرة المواشى والازدحام فمرادى الآن أن أرحل عنك بأنعامى ورجالى وباقى أموالى ولا شك بأننا فى هذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الأحوال ونحصل على راحة البال فقال كليب أفعل يا عمى ماتحب وأنزل فى أى مكان تريد قرب الديار فان البلاد بلادنا ونحن ملوك الأقطار (قال الراوى) فرحل مرة بقومه ورجاله ونوقه وجماله ونزل فى واد كثير النبات يبعد مسافة تسع ساعات وكان مرة قد شاخ وكبر فى العمر فأقام الأمير جساس على بنى بكر فكان يحسن إليهم ويحكم بالإنصاف عليهم فشاع ذكره واشتهر أمره فكانت تقصده الشعراء والفرسان وهو يكرمهم ويخلع عليهم الخلع الحسان ولم تسكن الاسنة من الزمان حتى صار يحكم على مائة وعشرون الف عنان هذا ما كان من أمر جساس وأما كليب الفارس الدعاس فانه كان فى سنوح الفرص يخرج إلى الصيد والقنص وكان له عدة إخوة كل منهم مشهور بالمروءة والنخوة وكان من جملتهم المهلهل الملقب بالزير وكان جميل الصورة كأنه البدر وهو صاحب هذه السيرة والوقائع المشهورة وكان فى تلك الأيام ابن عشرة أعوام وكان فى الشجاعة كسبع الغاب لايخاف من أحد ولا يهاب فصيح الكلام منعكفا على شرب المدام وسماع الأصوات والانغام ينشد الاشعار البديعة ويأتى بالمعانى النفيسة الرفيعة وكان كليب لحبه لايعترضه بأمر من الأمور بل يقابله بالفرح والسرور وكان الزير يتباهى بشجاعته أمام أخيه وأنه لا يوجد فى الفرسان ما يضاهيه فقال له كليب فى بعض الأيام أراك يا أخى مشتملا بالملاهى وشرب المدام فقلبك خالى من الهموم والأحزان كأنك لاتسأل عن تقلبات الزمان فمن الواجب أن نحسب حساب العواقب لأن الدهر دولاب سريع الانقلاب إذا أضحكك يوما أبكاك سنة وليس على أحد جميل ولاحسنة فقال المهلهل مادمت أنت فى الوجود وأنا فى خير لا أحسب حساب الغير ولكن إن جار عليك الزمان وأحاطت بك الحساد والخوان فانا أرد عنك الاثقال وأجندل أمامك الابطال أنا الاسد الغالب فارس الكتائب والمواكب أنا قهار الأعادى إذا نادى المنادى فتبسم كليب من كلامه وتركه مشتغلا بشرب مدامه وارتد راجعاً إلى الديوان وقد راق له الزمان .



(الزير سالم وهو معتلي ظهر الاسد)

(قال الراوى) وقد اتفق بعد ذلك بأيام أن أولاد مرة اجتمعوا مع بعضهم في الخيام وضربوا تختا من الرمل ليروا مايحل بهم وما يجرى عليهم ما يصيبهم فبان لهم أن الأمير جساس لابد أن يقتل الأمير كليب ويظهر الوزير ويأخذ تارة بدون ريب ويقتل منهم كل أمير وجبار وبعد وقائع تستحق الاعتبار فاعتراهم

القلق والكدر وأجمع رأيهم على أن يقتلوا الزير قبل أن يكبر وكان من جملتهم الأمير سلطان بن مرة فأنشدهم يقول :

على ما قال سلطان ابن مرة ... مبيد الضد فى يوم النزال
تبين عندنا جساس يقتل ... كليب بن ربيعة ولا يبالى
ويأتى الزير بعده يا أمارة ... يشتت جمعنا بين الجبال
ويمحى ذكرنا من كل أرض ... ويفنينا ويسبى العيال
هلموا نقتله ونبيد إسمه ... ونسلم من تصانيف الليالى
فيلزم أن تروح إلى الجليلة ... وتعلمها على ما قد بدالى
فهذه أختنا ليست غريبة ... فتسعفنا على نيل الأمانى
جليلة عارفة فى كل فن ... وتعرف فى الزيارج والرمال
فقوموا كلنا نذهب إليها ... ونقضى شغلنا قبل الوبال

فلما انتهى السلطان من هذا الشعر والنظام وسمعه الأمير جساس ومن حضر من أبناء مرة الكرام استحسنه جميع القوم وركبوا من ذلك اليوم وخرجوا من القبيلة قاصدين أختهم الجليلة وكانوا ثلاث وأربعين ولدا ذكر كل منهم أسد غضنفر ولما وصلوا اليها دخلوا وسلموا عليها فتلقتهم بالترحاب والاكرام وأقاموا عندها ثلاثة أيام ثم قالوا لها عن فرد لسان قد ظهر لنا فى الرمل بأنه يظهر للزير شأن وأى شأن فيقهر الابطال والشجعان ونهاية ملوك الزمان ويعاملنا بالجور وسوء الأدب وتنحط منزلتنا بين ملوك العرب فاتفق رأينا على قتله قبل أن يكبر وأتينا لنعلمك بالخبر فما هو رأيك فى هذا الامر المنكر فقالت إذا قتلتموه فينكشف الامر ويأخذ كليب بثاره منكم فيزداد الشر وما دام الامر كذلك فأنا أجعل كليب يلقيه فى المهالك ثم أنشدت تقول :

مقالات الجليلة بنت مرة ... تعالوا إخوتى اصغوا لقولى
تريدوا قتل أبو ليلى المهلهل ... أخوه كليب خلفه مثل غول
ومن خلفه عدير وزير قان ... سباع الغاب فى يوم المهول
وست وأربعين بنو أبيه ... يجوكم راكبين على الخيول

وتركب خلفكم كل الفوارس ... فوارس تلقب مثل الفحول
ولكن سوف أرميه بحيلة ... تحير كل أصحاب العقول
ومتى كليب يقتله بيده ... ويجعله طريحاً على السهول

(قال الراوى) فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها شكرها اخوتها على حسن اهتمامها وركبوا ظهور خيولهم وراحوا فى حال سبيلهم فصبرت الجليلة إلى وقت العصر حتى حضر كليب إلى القصر وكانت قد شقت جميع ما عليها من الثياب وأظهرت الغم والاكتئاب فلما رآها كليب على تلك الحال تغيرت منه الأحوال لأنه كان يحبها محبة عظيمة ويودها مودة جسيمة لحسنها وجمالها ودلالها ولا سيما انها إبنة عمه ومن لحمه ودمه فقال لها علامك ياجليلة مالى أراك فى هذه الوبيلة فبكت من فؤاد متبول وأجابته بهذه الأبيات تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ... كليب أنت قيدوم السرايا
وتحكم فى القبائل والعشائر ... وفى كل المدائن والقرايا
وحكمك نافذ فى كل أرض ... وتخدمك الملوك مع الرعايا
وإنى بنت عمك يا مسمى ... ومثلى ليس يوجد فى البرايا
أتانى الزير أخيك فى غيابك ... يريد فضيحتى بين الصبايا
قبضت عليه من عنقه فولى ... وراح يسرعة وسط الخلايا
ألا يا أمير قل كيف تعمل ... فاقتله وأرده المنايا
وإن لم تقتله حالا فإنى ... أروح اليوم من وسط الخبايا
وتبقى الناس تشتم فى قفايا ... وتبلى بالدواهى والرزايا
وهذا الأمر لا يصلح لمثلك ... كريم الأصل عكاز المطايا
فاقتله واخلص من بلاه ... ولا تخشى أثام ولا خطايا
فقتل الزير أصوب من حياته ... لأنه خائن دون البرايا

فلما سمع كليب منها هذا الشعر والنظام غاب عن الصواب وأرسل أحد الرجال ليأتيه بأخيه الزير فى الحال فذهب الرسول واستدعاه فامتنع عن الحضور لأنه كان فى ذلك الوقت يشرب الخمر .

(تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث)

الجزء الثالث

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وجلسائه وهم فى فرح وسرور فرجع الرسول على الأثر وحدث الأمير كليب بذلك الخبر فازداد كدر على كدر وأرسل الرسول إليه ثانيا فما حضر فعند ذلك سار كليب اليه وقد عظم الأمر لديه فلما دخل عليه نهض الزير على قدميه فسبه كليب وشتمه وضربه حتى آلمه ثم نزع عنه ثياب الحرير حتى صار معيرة للكبير والصغير وأرسله مع الرعيان ليرعى النوق والجمال ورجع إلى الجليلة وأعلمها بما فعل مع أخيه المهلهل فلما رأت أنها لم تبلغ الآمل زادت غما وكدرا وأخذت تدبر على هلاكه بحيلة أخرى فقالت ذات يوم لكليب أما تخشى من الهتيكة والعيب أما فى رأسك نخوة وناموس من جهة أخوك المهان المعكوس فقال لها ما معنى هذا الكلام وما هو المراد بهذا التوبيخ والملام قالت بلغنى من بعض الغلمان الذين تدورون مع الرعيان بأنهم فعلوا مع القبيح وأنت جالس مستريح ليس عندك علم ولا خبر وقد تحدث فيك جميع البشر ثم شرحت له واقعة بهذ الشعر والمقال

تقول الجليلة يا محفوظ ... أتانى علم بحال أخوك
وشاع العلم بكل القوم ... غنى الناس مع الصعلوك
وصار الناس بقيل وقال ... وكل البدو عليك ضحوك
أنت أمير كبير القوم ... وقيس وحمير قد هابوك
فكيف يكون أخوك الزير ... وقومك من أهله يجافوك
كيف بقالك رأس يقوم ... والرعيان لقد عابوك
فافتقر أخوك فى سيفك ... وإلا قومك قد لاموك
فكل العالم تحكى فيه ... يقولوا الزير بقى مهتوك
فهذا الأخ ومثله الف ... فى يوم الضيق فما عانوك
أخاف يقولوا كل أهله ... مثله والعالم يشكوك

فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر ووقف كليب على حقيقة الأمر التهب فؤاده واضطرب من شدة الغيظ والغضب وأخذته الحمية وعصفت فى رأسه نخوة الجاهلية وقد صمم النية على أن يقتل أخوه ويسقيه كأس المنية فقالت الجليلة لا تقتله يا أمير

لأن كلام الناس كثير فالأوفق أن تأخذه إلى وادى العباس وهو مكان منقطع عن الناس كثير النمور والأسود فتقتله هناك وتعود فتفترسه الوحوش والأساد وتتخلص من كلام العباد فقال هذا هو الصواب والأمر الذى لا يعاب ومن وقته ركب ظهر جواده واعتد بآلة حربه وجلاده واستدعى الزير اليه فلما تمثل بين يديه قال له مرادى أن أذهب للصيد والقنص لأزيل ما بقلبي من الغصص فسر أمامى فامتثل أمره وسار وجد فى قطع البرارى والقفار حتى وصلا إلى الوادى المذكور وهو مكان مهجور وما زالا سائرين حتى صارا فى وسط ذلك المكان وإذا بجواد كليب قد شخر ونخر وضرب الأرض وتأخر وإذا بسبع من بطن الوادى قد ظهر فلما رآه الأمير كليب هجم عليه بالجواد ورماه بالرمح فاخطأه فتبعه الأسد فانهزم كليب من أمامه خوفا من العطب فلما رأى الزير أخاه قد هرب تقدم نحو الأسد بقلب أقوى من الحجر وطعنه بخنجر كان معه فقده نصفين فأخرج قلبه فأكله وصاح على أخيه ارجع يا أخى ولا تخاف فرجع كليب وهو يتعجب من أفعال الزير فنزل عن ظهر الحصان وقبله بين عينيه وصفا له قلبه وقال فى سره من يكون له أخ مثل هذا ويفرط فيه وإن عاش هذا الغلام يكون من عجائب الزمان ثم رجع وإياه فلما رأته الجليلة قالت لماذا ماقتلته فأخبرها بواقعة الحال وكيف أنه قتل الأسد والذى يكون مثله لا يستاهل القتل بل يجب له الإكرام ثم أشار يقول

يقول كليب من صفوة ربيعة	شديد البأس ذو عزم رجيح
كريم الأصل سلطان متوج	وفى طريق الكرم مانى شحيح
ألا يا بنت عمى يا جايـلة	ألا يا صاحبة الوجه المليح
نظرت اليوم من سالم فعالا	يشيب لها الطفل الطريح
لقانى السبع من خلفى وزمجر	فصار الزير من خلفه يصيح
فكر السبع نحو الزير هاجم	فعاد الزير واقف مستريح
ولما قد دنا منه وقارب	فغار عليه كالسبع الجريح
طعنه الزير بالخنجر فقده	والقاه على الغبر طريح
فلما شفت هذا الفعل منه	علمت بأنه فارس رجيح
رجعت إليه من فرحى سريعا	وصحت عليه فى قول مليح
مهلهل يا مهلهل يا مهلهل	فأنت اليوم أولى بالمديح

(قال الراوى) فلما فرغ كليب من شعره زاد كدر الجليلة وقالت له وهى تبكى مادام الامر كذلك فإنى سأذهب نهاراً غداً إلى بيت أهلى وأعلمهم بما ظهر من الزير فى حقى فهم يقتلوه لأنى لست آتمنه على نفسى إذا بقيت عندك لانه لابد أن يغدر بى لأن عيونه محمرة على وأنت بعد كل هذا ليس لك نخوة ولا ناموس فقال اذكرى الله ياجليلة ودعينا من هذا فكيف أسمح بقتل أخى وهو من لحمى ودمى ولاسيما أنه شديد ومن أشجع الناس فإذا قتلته افتضحت بين العرب وتحدث فى الناس فقالت لابد من قتله على طريقة غير هذه وهو أن تأخذه إلى بير صندل السباع وتدليه بحبل على نية أن ينشل الماء وحينئذ تقطع الحبل فيسقط فى البير ويموت ولا يعلم به أحد وأشارت تقول :

ما قالت الجليلة بنت مرة ودمعى فوق وجناتى غراره
أخوك الزير ما هو كثير فالح بلعب مع ولبدات الصماره
أخوك الزير شوفه مثل الضبع كما المجنون يلعب بالحجاره
يا ريته ما يشوف الخير دائم كأنه شبه ضبع فى معاره
ياليت الزير ينقص من حداكم ولا يبقى تظهر له خباره
ألا ياحيف هذا من ربيعة وتعدوه بنات الأماره
ترى خمس خليفة مثل أبيك أماره من أماره من أماره
يبقى الزير هو بدل فيكم لينه لا يطلب من الحراره
قتل الزير أحسن من حياته ولا نهتك ما بين الامارة
افتل هل ردى لا عاش عمره وأهيفه فى حسامك مثل ناره
انت ابن عمى نور عينى وشورى إليك ما هو فشاره
ما قالت الجليـلة بنت مره ونارى عالقة من ذى شرارة

(قال الراوى) وكان كليب يحب الجليلة محبة عظيمة ولا كان يخالفها فى شىء فلما ألحت عليه وافقها على ذلك إكراما لخاطرها فنهض ثانى الأيام وركب جواده وأخذ فى صحبته أخوه الزير ومائة من الفرسان وسار بهم إلى بير صندل وعند وصولهم قال كليب ياسالم خيولنا قد عطشت فرادنا أن ننزل ونسقيها وأنت تنزل إلى البير فتملأ دلو فقال حباً وكرامة يا أخى فدلوه فى حبل وأخذ يلى الادلية وهم ينشلوا ويسقوا حتى ملأوا الأرض الذى على باب البير وجاءوا بالخيل ليسقوها

فتزاحمت على بعضها البعض وأخذت بالصهيل والازدحام فعجز كليب وجماعته عن ردها على بعضها البعض فسمع الزير وهو بالبير صهيل الخيل وجميرها فصرخ عليها صوتاً مثل الرعد القاصف حتى ارتجت منه الوديان واضطربت منه قلوب الفرسان فجفلت الخيل وتأخرت وانفصلت عن بعضها فلما رأى كليب ما فعله أخوه سالم، تعجب غاية العجب وندم على مافعل وفى الحال أخرجه من البير وازدادت محبته عنه ورجع إلى الديار فلما رأته الجليلة غابت عن الوجود من شدة الغيظ وقالت لكليب بارك الله فيك أهكذا المفارقة فقال والله ياجليلة من كان هذا الفعل فعله يحرم الله قتله ثم حدثها بما جرى وكان يقول وعمر السامعين يطول .

يقول كليب من شعر نفيس ... قصيدة ما نظمه قط قائل
جليلة اسمعى يا بنت عمى ... أرى عقلك بهذا اليوم زائل
أأقتله ليشفى اليوم قلبك ... ومنه قد ظهرت لنا فعايل
سباع الغاب هابت من لقائه ... كذلك الخيل صيرها جفايل
ثلاث ألوف يلقاهم بصدره ... من الشجعان فرسان القبايل
تقول اقتله وارتاح منه ... تقولك ما هو قول عاقل
فإنى لا أبيعه بألف مثلك ... ولو مهما جرى منه من فعايل
أراكى تطلبى قتله سريعاً ... فقولك عنه ليس له دلائل
فقولك يا جليلة قول باطل ... لحاش الزير أن يتبع رذائل
فقلى من كلامك لا تعيدى ... أيا بنت الأماجد والأصايل

فلما فرغ كليب من شعره ونظامه وفهمت الجليلة فحوى كلامه اغتاظت فى الباطن ولكنها أظهرت له السرور وقالت له إن قصدى امتحانك لأرى هل أنت تحبه أو تبغضه لأنه فصيح اللسان ومن أشد الفرسان وأخذت تمازح كليب بكلام النفاق حتى صفا قلبه وراق ثم إنها صبرت مدة أيام وبعد ذلك أظهرت عن نفسها إنها مريضة فرقدت فى الفراش وقالت لكليب إن لى حاجة إليك ولا يقدر عليها سوى أخوك الزير فقال وما حاجتك قالت أريد مقدار كاسين من حليب السباع لأنه يقوى الأعصاب وأنا فى غاية الضعف والعنا وقد وصفت دايتى هذا عاجلا لمرضى وقالت إن هذا الدواء يأتى بولد ذكر وأشارت تقول :

مقالات الجليلة بنت مرة ... كليب اسمع لى يا أبا اليماما

أنت اليوم ملك البوادى ... ياليت الحق بك يا أمير داما
وتحكم يا ملك شرقا وغربا ... من أرض الروم للكعبة دواما
وتحت يداك ألوف من العساكر ... وكم حاكم وكم فيه مقاما
وكم أبراج من ذهب وفضة ... جواهر تشرق جناح الظلاما
ولا لك طفل تحي فيه ذكرك ... سوى سبع بنات مثل الحماما
أتانى منك سبع بنات أتانى ... ولا جانى منك ذكر غلاما
وقالت دايتى لى يا جايلة ... معى لك علم يبرى السقاما
لبان لبوى بصوفة احمليها ... تروحى فى ذكر حامل قواما
فنادى الزير وأخبره سريعاً ... أدام الله عمرك بالسلاما

(قال الراوى) فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها صدق مقالها وأرسل فى الحال يطلب أخاه الزير فدخل وسلم عليه وقبل يديه وقال بقلب جسور أنا عبده مأمور ولا أخالفك بأمر من الأمور فاعلمه كليب بالواقعة وقال أريد منك يا أخى أن تأخذ هذا الحق الصغير وتملاه من حليب لبوة فقال على الراس والعين ولكن يا أخى اعطنى سيف أتسلح به خوفا من هجوم السباع فقال كليب للجليلة أن تعطيه السيف فقالت له ألا تستحى يازير أن تطلب سيف وأنت فى هذه الشجاعة فخجل وأطرق رأسه وسار من وقته وساعته وقد تأكد أنها تريد هلاكه وضرره ومازال يسير حتى وصل إلى غابة كبيرة كثيرة الاشجار والصخور وليس معه سوى سكين وعصاه فبينما هو ينظر من خلف وقدام وإذا بأسد قد ظهر وهو هائل المنظر وعيناه تقدح بالشرر .

فلما اقترب منه قبض عليه الزير ونشله بقوة ساعده وزنده ولوحه بيده مثل المقلاع وخبط به الارض فرض عظامه ثم نزل عليه بالعصا حتى قتله وأراد أن يجز رأسه وإذا بلبوة قد أقبلت عليه ومن خلفها سبعة أشبال فلما رأت ذكرها قدمات احمرت عيناها فأراد الزير أن يلاعبها قليلا وقد علم إنها مغتاظة فجعل نفسه إنه خائفا منها فركض من أمامها فتبعته وكان قد وصل إلى شجرة كبيرة فطلع اليها وبقيت هى تنظر إليه وتهمهم ثم أقبلت أشبالها وجعلوا يرضعون من ثديها فوجد الزير لها ثدى مثل الحق فقال هذا الذى طالبة منى أخى ثم أراد النزول فقال إن نزلت تفترسنى من رجلى ثم رمى نفسه من الشجرة فجاء راكبا عليها فقبض عليها

من رقبتها والقى رجليه على بطنها بقوة شديدة حتى لم يعد لها سبيل أن تتحرك من مكانها ثم سحب السكين وهو يضحك عليها وينحرها كما ينحر الجزار الغنم وملأ الحق من حليبها وقطع رأسها ورأس الأسد بعد أن ربط أشبالها بالحبال وساقهم أمامه كالكلاب فلما أقبل إلى الحى ولاقته فرسان العرب وأصحاب المناصب والرتب واستعظموا ذلك الأمر واعتراهم العجب وعند وصوله إلى القصر سمعت الجليلة الضجة فطلت برأسها من الشباك فرأت الزير وهو مقبل على تلك الحالة فالتهب قلبها بنار الغضب لأنها كانت تظن أنه يموت ويهلك ثم دخل الزير على الجليلة وكان كليب جالس معها فسلم عليها وأرى الرؤس أمامها وقدم الحق لامرأة أخيه وقال لها هل تجدين شيئاً آخر حتى أقضيه فقالت بارك الله فيك يا سبع الرجال فإنك تستحق المدح والثناء وكان كليب لما رأى رؤس السباع تعجب من قسوة قلبه وشدة بأسه وقال له كيف فعلت وإلى أين وصلت فأشار الزير يقول :

يقول الزير قهار المواكب ... رمانى الدهر فى كل المصائب
فلا تسمع أخى قول الاعادى ... لأن الضد شوره ليس صائب
يشوروا عليك فى رأى وخيم ... ليسقونك أخى كأس العواطب
فأهل العقل لا تسمع لأنى ... لأن كلامها لاشك كاذب
فاعلم يا أخى فى ما جرالى ... بهذا اليوم فى وادى الثعالب
وجدت سبع وسط الغاب دائر ... كأنه جائع للصيد طالب
فلما شافنى حالا أتانى ... وكشر عن سنانه والمخالب
فصحت عليه صيحة جاهلية ... فتقدم يا أخى إلى هاجم وطالب
حززته بخنجرى فأهوى ... على وجه الثرى للأرض قالب
أتتنى بعده لبوة مغيرة ... فلما شفتها وليت هارب
رأيت أشبالها سبعة وراها ... فداروا الجهق من كل جانب
فلما شفتهم جاؤا لنحوى ... طلعت لشجرة ذات الشناغب
فداروا حولها فرميت نفسى ... فصرت لظهرها بالحال راكب
حززت لرأسها وملئت حق ... حليباً بعد أن نلت المآرب
ورأس السبع واللبوة قطعته ... علامة للأعارب والأقارب
وسقت أولادها السبعة أمامى ... فلما صرت فى وسط المضارب

فلاقتنى جميع رجال قوى وحيتنى الأقارب والأجانب
وهذا ما جرى لى فى نهارى وما قاسيت من هول المصائب

(قال الراوى) فلما فرغ الزير سالم من شعره ونظامه وأخوه كليب مع الجليلة يسمعوا كلامه فغضبت الجليلة من كلام الزير وكيف أنه لمح بشعره عليها فقالت فى سرها لابد لى أن أعمل على قتله وبعد ذهابه قالت لزوجها كليب كيف يعلم إنى ساعية فى قتله ولم يكن عارف بما فعله معى فوالله إن الموت ألذ عندى من الحياة فلا بد لى أن أشنق نفسى واستريح من جور أخيك القبيح ثم صارت تصيح وتبكى فقال كليب اخزى الشيطان ودعينا من هذا الكلام الآن وأخذ يتلطف بخاطرها ويقول لها كم مرة رميناه بالأخطار وهو يرجع سالما كاسباً غانما فقالت الجليلة مرادى أن تسمع منى ما أقوله لك الآن ولا عدت تسمع منى غير هذه المرة وهو أن تجعل نفسك مريضاً وترقد فى الفراش فاذا أتاك أخوك الزير حتى يراك فتقول له أصابك مرض شديد ووصف له الأطباء شربة من بير السباع إذا سمع منك هذا الكلام فأخذته النخوة والغيرة ويذهب فى الحال لقضاء حاجتك فإذا راح لا يعود يرجع أبدا من كثرة وجود السباع فى ذلك المكان والكثرة تغلب الشجاعة فيفترسوه فى الحال ونكون قد بلغنا الآمال لأننى كلما تذكرت أعماله أريد أن أخنق حالى والعرض عند الحر غالى ثم أنشدت تقول من فؤاد متبول :

ألا اسمع لشورى ما أقولك على علم الصحيح أنا أدلك
أخوك هبيل مايسوى مسلة ولو قلع فى الجبال والف تلة
فأرسله غدا إلى بير صندل وإن أرسلته لهناك يقتل
ومنه تستريح مدى الدهور ونحظى بالمقاصد والحبور

فلما سمع كلامها أجابها إلى مرامها وانقطع عن الديوان ومقابلة الناس وجعل نفسه مريض وأقام بالفراش مدة أيام ولما شاع هذا الخبر علم الزير بذلك فتشوش خاطره لأنه كان يحبه محبة عظيمة فدخل عليه فرآه راقد فى الفراش وهو يئن من قلب حزين فقال له سلامتك يا أخى ثم جلس بقربه وهو يتوجع عليه ويتأسف ويسليه بالكلام فقال له كليب اعلم أن مرضى شديد وأنا خائف منه وقد وصفت لى الأطباء شربة ماء من بير السباع فمتى شربتها شفيت من هذا الداء وليس لى غيرك يا أخى من يأتينى بها فإن كنت تحبنى أريد منك الان يا فارس الفرسان

وقهار العدا فى ساحة الميدان أن تذهب إلى ذلك المكان و تأتينى بالمطلوب والمقصود من بين الاسود فقال الزير أبشر ياأمير ثم نزل من عنده وجاء بقربتين فحزمهما على حمار ثم سار وجد فى قطع القفار إلى أن وصل إلى بير السباع وكانت السباع فى ذلك الوقت سارحة فى البرية سوى سبع واحد كان راقد على حافة البير وهو واضع يديه على فمه وهو نايم فقال الزير فى سره هذا نايم وعيب على أن أقتله غدراً فتركه وفك القرب وربط الحمار من يديه ورجليه ونزل البير من الدرج فملأ القرب واتفق أنه عند نزوله إلى البير شهق الحمار فوعى السبع ولما رأى الحمار هجم عليه وضربه بمخلبه فقتله وجعل يأكله فلما خرج الزير من البير ووجد السبع قد قتل الحمار وهو يأكله اغتاظ جدا فوضع القرب على الأرض وقصد نحو السبع بقلب كالحديد وقال ويلك يامشئوم كيف تأكل حمارى أما علمت ببطشى واقتدارى فوحق ذمة العرب لابد من تحميلك القرب وكان الأسد قد وثب عليه ونهض برجليه فالتقاه الزير بالعصا وضربه ضربة شديدة وقعت على رأسه فدوخته فوقع على الأرض طائشاً فجاء الزير بالحبل ولجمه لجاماً قويا ووضع بردعة الحمار على ظهره ثم وضع القرب ورفسه برجله فنهض مثل السكران فقال الزير ياقليل الأدب الذى يأكل حمير العرب فهو أولى أنه يحمل القرب ثم ركب على ظهره وساقه مثل الكلب وكان كلما عرج عن الطريق يضربه بالعصا على رأسه حتى طاعه قهراً وجبراً ثم سار وجد فى قطع القفار حتى اقترب من الديار فعند ذلك تذكر ماجرى له مع أخيه والأسد وكيف عاد ظافراً منصوراً فجاش الشعر فى خاطره فأنشد يقول :

أنا مهلهل فعزمى يفلق الحجرا	الإنس والجن تخشى سطوتى حذرا
كيد النساء فيبقى فى عدم	نخيب الله من يسمع كلام مرا
قالوا أخوك كليب اليوم منطرحاً	عالفراش ضعيف الجسم والبصرا
فجأته عاجلا حتى أسأله	والعقل فى حيرة مما عليه جرى
فقلت له كيف حالك أنت اخبرنى	فقال يا مهلهل كيف أنت ترى
أريد شربة ماء أطفى بها ظمئى	من صندل تزول الهم والكدرا
فسرت حالا لذلك البير فى عجل فذ	ات قصدى وعدت اليوم مفتخرا
هذه فعالى وكل الناس ترهبنى	حتى الأسود وأهل البأس والأمرا

(قال الراوى) ومازال يقطع القفار وينشد الأشعار حتى وصل إلى الديار وهو راكب على ظهر الأسد غير مبال بأحد لأنه بلغ المقصود والأرب وفعل



(الزير سالم أبو ليلى المهلهل يسوق الأسد بعصا وعلى ظهره القرب)

أفعال تعجز عنها فرسان العرب ولما دخل الحمى جفلت الخيل والجمال واندهشت
النساء والرجال لما رأوا الأسد على تلك الحال وكثرت الضجات وتصايحت الاولاد
والبنات وسمع كليب والجليلة تلك الضجة فطلا برؤسهما من الشباك فوجد المهلهل
قد أقبل وهو يسوق الأسد بعصا فبكى كليب لما رآه وقال لابنة عمه الجليلة هل
ينبغى لهذا البطل أن يقتل فقد جاء بالأسد وعلى ظهره القرب وهذا أعجب العجب
فاشتعل قلبها والتهب من شدة الغضب حتى كادت تموت قهراً ثم نزل كليب إليه

وقبله بين عينيه وقال لله درك يا فارس الميدان وزينة الشبان وبعد ذلك سأله عما جرى له وكان فأنشد يقول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... ودمعى فوق وجناتى سايل
ذهبت اليوم نحو البير قاصد ... أجيب الماء يا ابن الأكارم
وجدت السبع قرب البير راقد ... فقلت بخاطرى ذا السبع نايم
نزلت البير أملا منه أشربه ... وربي بالذى قد كنت عالم
ملأت القربتان وعدت حالا ... لأرجع القبيلة والمعالم
وجدت السبع قد أكل البهيمة ... ضربته بالعصا فعاد نايم
وحملت القرب من فوق ظهره ... وجئت إليك يا فخر الأكارم
أطال الله أيامك وعزك ... على طول الزمان وأنت دايم

فلما سمع كليب هذا المقال أجابه على شعره :

يقول كليب إسمع يا مهلهل ... فما لك من مثيل فى العوالم
سباع البر خافت من قتالك ... وولت فى الفلا منك هزايم
سألت الله أن يحفظك دوماً ... وتحظى بالسروز والغنايم
فقم البس ثيابا من حرير ... وافعل ما تريد يا ابن الأكارم
فهما طبت منى يا مهلهل ... أنا أعطيك والله عالم
أخى ما عاد عندى أعز منك ... وحق الله خلاق العوالم

فلما فرغ كليب من كلامه أنزل الزير القرب من على ظهر الأسد وضربه بالسيف ألقاه قتيل ثم قطع رأسه أمام أخيه وقال الله أكبر فقد أخذنا بثار الحمار وبلغنا ما نحب ونختار بعون الواحد القهار فأمر كليب الخدم أن يدخلوا الزير إلى الحمام فدخله واغتسل ولبس حلة من أرجوان وذهب إلى عند أخيه فى الديوان فقام له على الأقدام وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه فى أعلى مقام فزاد اعتباره عند الخاص والعام وارتفعت منزلته عند الأمراء والأكابر واشتهر إسمه بين القبائل والعشائر وقال له كليب ذات يوم اطلب يا أخى مهما تريد فإن شئت مدينة أوهبك إياها أو امرأة جميلة أزوجك بها فمالى جميعه بين يديك فلا أبخل بشىء عليك لأنك اليوم ساعدى وزندى وأنت الحاكم من بعدى فقال لا أريد سوى سلامتك والذى أريده منك أن تأمر لى بصيوان يكون كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع

ويكون عندى جماعة من الخدم يقدمون لى ما أحتاجه من الاكل والخمر لانى أريد
أن أنفرد عن باقى جماعة الناس وأكون وحدى خصوصاً من كيد النساء وعندما
اشتاق إلى تزورنى فقال كليب ما هذا العمل فوالله ما عاد لى صبر على فراقك
يا مهلهل ولا عدت أسمع فيك كلام الاعادى اللئام فابق عندى فى العز والإكرام
فقال يا أخى قد صممت النية على الارتحال فإن الانعزال أفضل للرجال الاحرار
ولا سيما قد صار على السباع ثار على قتل الحمار ولا بد لى من قتل جميع الاسود أو
أن الحمار رجع ويعود فضحك كليب من كلامه وتعجب وأمر له بما طلب وقدم
له جواداً من أطيب الخيول وجميع ما يحتاج إليه من السلاح والنصول والمشروب
والمأكول وأرسل معه عبدان يخدمانه ثم ودعه وسار حتى وصل إلى بير السباع
فنصبوا له الصيوان وأقام فى ذلك المكان وهو يأكل ويشرب المدام وكان فى كل
يوم يلبس عدته ويركب جواده ويصيد السباع وكان كلما قتل أسداً يقول لثارات
الحمار وما زال على تلك الحال حتى أفناها وبنى له قصراً من رؤوسهم فلما طال
عليه الزمان أخذه القلق والضجر لانفراده عن البشر وكان بينه وبين همام بن
مرة محبة عظيمة ووداد فزاره الامير همام فى بعض الايام ففرح بقدومه عليه
وقال أهلا وسهلا يا ابن العم ورحب به غاية الترحيب وقال له لقد ضاقت
نفسى من الوحشة والانفراد فوالله ما عدت أدعك تذهب من عندى أبداً وكان
همام يصرف أكثر أوقاته عنده فينادمه ويشرب معه المدام ويتناشدان الاشعار
فى الليل والنهار وما زالا كذلك وهم فى بسط وانشراح وطرب وأفراح وشرب
المدام وسماع الانغام مدة ثلاثة أعوام هذا ما كان من حديثهم فى تلك الايام .

فى حرب البسوس بين بكر وتغلب

(قال الراوى) وأعجب ما اتفق وسطر من الاحاديث التى تروى وتذكر هو
حديث العجوز الشاعرة أخت الملك تبع حسان الذى قتله كليب كما شرحنا قبل
الآن وهى المرأة التى ذكرها تبع لكليب فى ملحمته بأنها سوف تظهر بعده وتلقى
الفتنة فى القبائل وسببها يقتل كليب بن وائل وتثير الحرب بين بكر وتغلب وباقى
عشائر العرب وكانت هذه العجوز من عجائب الزمان وغرائب الاوان ذات مكر
[illegible] أربعة أسماء سعاد لانها فى يوم ولادتها
وردت إليها أموال السبعة أقاليم وأما سميتها تاج بخت لانها كانت كثيراً ما تأكله

من جوز الهند وكانت مع هذه الأوصاف القبيحة جميلة المنظر فصيحة الكلام شديدة البأس ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة فكانت تسارع الطواشية وتركب الخيل فى الميدان وتبارز الأبطال والفرسان وشاع صيتها فى كل مكان وتواردت إليها الخطاب من جميع المدن والبلدان فكانت تقول لا أتزوج إلا من يقهرنى فى الميدان فكانت تقهرهم فى القتال وتعلو عليهم فى ساحة المجال فاقتصرت عنها الخطاب وتباعدت عنها الطلاب وكان قد سمع بخبرها ملك عظيم إسمه سعد اليمانى وكان ملك بلاد السرو وابن عم أخوها تبع وبطل أروع ليث صميدع صاحب مدن وبلدان وجيش وفرسان فهام قلبه فى حبها فركب فى جماعة من أبطاله وسار قاصداً ديار ابن عمه تبع ليخطب أخته سعاد فلما وصل إلى تلك البلاد ترحب به الملك تبع وإضافه ضيافة عظيمة لانه ملك وأمره نافذ فى القبائل فلما كان فى اليوم الثالث قال سعد لتبع اعلم يا ابن العم بأنى حضرت من بلادى لاخطب أختك سعاد الدرة المصونة والجوهرة المكنونة فلا تردنى خائب فهى إبنة عمى ومن لحمى ودمى وأنا أحق بها من كل أحد فقال تبع إنى أرغب فى ذلك غير أنه كما لا يخفاك بأنها لا تتزوج بأحد مهما كان إلا بمن يقهرها فى الميدان فقال إنى ما أتيت إلا على هذا الشرط فعند ذلك دخل عليها أخوها وأخبرها بقدوم الامير سعد ابن عمها وإنه قد جاء ليخطبها ويتزوجها بعد أن يبارزها ويحاربها فأجابته إلى ذلك المرام وفى ثانى الايام اعتدت بآلة الحرب والجلاد وركبت على ظهر جوادها وبرزت إلى الميدان ومحل الضرب والطعان وكان الامير سعد قد ركب حصانه وبرز إلى الميدان والتقاها بقوة القلب وجنان وأخذا يتقاتلان نحو ساعة من الزمن وكان الامير سعد صاحب نخوة وحمية ومن أشد فرسان الجاهلية فحاربها حتى أتعبها ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالغلبة وبعد ذلك تزوجها وأقام الحفلة سبعة أيام ورجع بها إلى بلاده وكانت قد أخذت معها جميع ما تملكه من أمتعة وأموال وعبيد وغلمان وأقامت مع زوجها فى أرغد عيش وهناء مدة عشر سنين إلى أن عمى وفقد البصر فصارت تحكم مكانه وأطاعتها العرب وعظم أمرها واشتهر ذكرها وما زالت على تلك الحال وهى فى أرغد عيش وأنعم بال إلا أن كليب قتل أخوها تبع كما سبق الكلام فلما بلغها هذا الخبر أخذها القلق والضجر وتنغص عيشها وتمرمر وقالت لا بد لى من المسير إلى تلك الديار وأقتل كليب الغدار فإذا

قتلته انطفى نارى وأكون قد أخذت نارى فأقامت مكانها وكيلا يحكم بالنيابة عنها وركب هى وزوجها وبناتها وأخذت معها عبدان وما زالت تقطع البرارى والآكام حتى وصلت إلى بلاد الشام فسألت عن رحلة بنى مرة فأرشدوها إليها فلما صارت هناك قصدت الأمير جساس دون باقى الناس ودخلت عليه وهو فى الديوان وحوله جماعة من الأمراء والأعيان فتقدمت إليه وسلمت عليه ودعت وترحمت وبأفصح لسان تكلمت وقالت له أدام الله أيامك ورفع على ملوك الأرض قدرك ومكانك وبلغك أربك ومناك ونصرك على حسادك وأعدائك فتعجب جساس من فصاحة مقالها فأثنى عليها وسألها عن حالها فقالت له إننى شاعرة أطوف القبائل والعشائر وأمدح السادة والسادات والأكابر وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك فأتيت إلى دارك حتى أعيش فى جوارك وأكون مشمولة بأنظارك ثم إنها بعد هذا الثناء والمديح أشارت إليه بهذا الشعر الفصيح :

تقول سعاد من قلب موجع ... زمان السوق أبقانا ذلائل
وبعد غلانا صرنا رخاصا ... وبعد الكثر قد صرنا قلائل
وبعد العز قد صرنا أذلا ... وبعد السمن قد صرنا هزايل
فهذا الدهر ماله قط صاحب ... فهذا مستقيم وذاك مائل
وذا يبكى وذا يضحك ويلعب ... وذا يندب عياله والحلائل
فسبحان الذى قدر علينا ... بغربتنا وتشتيت الشمائل
فبعد أن كنت فى خير ونعمة ... دعانى الدهر كالطلاب شائل
أدور على المناصب والامارا ... وأنزل فى القرايا والمدائن
سمعت بذكركم يا آل مرة ... ثلاث شهور لى عندكم أسائل
أيا جساس يا فخر السرايا ... ويا كهف اليتامى والارامل
قصدتك لا تخيب فيك ظنى ... أيا ابن الأماجيد الأصائل
تاجبر خاطرى ربى يجبرك ... ويعطيك السعادة والفضائل
فكم أوهبت من مال ونوق ... وكم فرقت من خيل أصائل
فأنت اليوم بين الناس فردا ... ثناه مشاع فى كل القبائل
عديم المثل مابين الامارا ... وقد تفاخرت عربان القبائل
عساك اليوم تنعم لى بمال ... ولا تصغى إلى واشٍ وقائل

فارجع بالغنايم والعطايا وبالخيل المسومة الصواهل

فلما فرغت العجوز من شعرها ونظامها وفهم جساس فحوى كلامها قال لها أهلا ومرحباً الأرض أرضي والديار دياري وأنت نزيلتي وفي جواري فكل من تعدى عليك قتلته ثم أشار يترحب بها ويقول :



(العجوزه ألقت جلد ناقتها أمام جساس وتقول ذبحها كليب جئت أشتكي لك)

قال جساس بن مرة يا عجوز	مرحباً بك بلا بطا
مرحبا بك مرحبا بك مرحبا	عدد ما مشت الركاب بالوطا
في قدومك حلت البركة لنا	فابشري بالخير مع كثر العطا
اسرحي ثم امرحي في حينا	ما أغيظك لو بدا منك خطا

(قال الراوي) فلما فرغ جساس من كلامه دعت له العجوز بالنصر وطول العمر والبقاء وقالت في سرها لقد نلت المراد بعون رب العباد وأقامت عنده شهرين وجساس كل يوم يزيد في إكرامها وكانت قد رأت اتفاق قوم كليب مع بني مرة

وهم فى محبة ومؤالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحده فما هان علينا
ذلك الأمر فأخذت تلقى الفتنة والفساد بين الامراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع
وكثر القيل والقال ولما اشتد الأمر اجتمع كل أكابر الناس عند الأمير جساس
وأخذوا يشكون من بنى تغلب وعن سوء معاملتهم وإنهم يعتدون عليهم فى أكثر
الاوقات بدون سبب وهذا كله من يوم ماقتل كليب السبع اليمانى وامتد ملكه فى
الاقطار فابتدأ يجور ويظلم ولا يحسب حساب أحد وهكذا قومه تفعل كفعله وكان
مرادهم بهذا الكلام يحمسوا الامير جساس ويهيجوه على قتال كليب ولكنه لم يصغى
لهم ولم يطاوعهم على مرامهم وقال لهم إنه من الصواب أن أجتمع أولا مع ابن
عمى كليب وأعلمه عن تعديات قومه وجورهم علينا فإن وجدت كلامه قاسيا يكون
هو السبب فى تقويتهم وإن أمر بتأديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا

(قال الراوى) وما زالت الفتنة بين الفريقين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبر إلى
مسامع الامير كليب وبلغه أن بنى مرة هم أصل ذلك الخصام وانهم كل يوم فى
جميعات واستعدات فضاق صدره وتكدر وأرسل اعلم جساس بذلك الخبر طالبا
منه أن يبادر الحال بقصاص المذنبين وتوقيف حركات البكريين وإخراج العجوز
من القبيلة التى كانت سببا لهذه الورطة فاغتاظ جساس من ذلك وتأثر وتأكد عنده
كلام قومه وعلم أن أصل ذلك كله من كليب فلم يجبه بجواب ولا بخطاب وأخذ
جساس من ذلك اليوم يجمع الجموع ويفرق على قومه السلاح ويقويهم بآلات
الحرب والكفاح فبلغ ذلك الامير كليب فازداد كدره واحتار فى أمره وحس
بزوال ملكه وكان تذكر أخاه الزير الفارس النحرير فركب من يومه فى جماعة
من الفرسان وقصده إلى بير السباع فوجده جالساً على سفرة المدام مع ابن عمه الامير
همام وهما يناشدان الاشعار ويتحادثان بالاخبار فنهضا له على الاقدام وأجلساه فى
أعلى مقام وفرح الزير بقدوم أخيه لانه كان له مدة طويلة غائبا عنه غير عالم بأن مجيئه
لم يكن ناتج إلا عن سبب ضرورى جداً وبعد أن جلس قليلا قال كليب للزير اعلم
يا أخى إن سبب مجيئى إليك أولا لاجل المشاهدة وثانيا حتى آخذك إلى القبيلة وأقيمك
ملكا مكانى لانى طعنت فى السن ولم يعد لى طاقة على معاطاة الاحكام ولاسيما وقد
تغيرت الاحوال ووقع بين القبيلتين النزاع والجدال فاشتغل منى القلب والبال فقم معى

الآن ياسيد الفرسان فقال الزير والله لقد اشتغل بالى بهذا المقال فأنشد كليب يقول :

أخى سالم إسمع ماأقول لك ‏ ففكرك ديره والذهن ليا
أراك اليوم فى زهو ولهو ‏ ولا تدرى بما قد حل فيا
بنو قيس قد وقعوا بخلف ‏ وجساس نوى يركب عليا
فقوم وشد عزمك يا مهلهل ‏ لأنك انت جبار عتيا
والا راحت البلدان منى ‏ وصرنا معيرة عند البقية

(قال الراوى) فلما فرغ كليب من شعره ضحك الزير حتى استلقى على ظهره فقال كليب وما هو ضحكك قال لقلة عقلك قال أنا قليل العقل قال لولم تكن قليل العقل ما كنت تكلمت بهذا الكلام بعد أن نظرت القصر هو أمامك قال وما يكون هذا القصر قال هذا قصر قد بنيته من رؤس السباع الذين قتلتهم بثأر الحمار ومع كل ذلك أنت ملك عظيم وصاحب ولايات وأقاليم فكيف تقول أنك خائف وفزعان وأخوك الزير فارس الفرسان فكن فى أمان واطمئنان من نوائب الزمان فإن كنت بثأر الحمار الذى ليس له قدر ولا مقدار قد بنيت قصراً من رؤس السباع الا أبنى من رؤس الأعادى مدائن وضياع وقلاع وحصون فاذهب بالسلامة ولا ترتاع ثم أجابه على شعره يقول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ‏ أنا لى فى الحرب عزما قويا
سباع الغاب خافت من قتالى ‏ وتخشانى ولم تقدر على
فاذهب يا كليب ولا تبالى ‏ واحكم بالقبائل بالسوية
فإن جارت بنو بكر وخابت ‏ فلا أترك منهم أخى بقية

فلما سمع كليب شعره احتار من فعله وندم على مجيئه ثم كرر عليه السؤال وطلب منه أن يسير معه خوفا من حدوث أمر من الأمور فقال الزير سر أنت اولا وأنا سأتبعك فيما بعد فقال لماذا لا تسير الآن قال لاخفاك لما حضرت إلى هذا المكان قتلت جميع السباع ماعدا سبعين أوثلاثة فتى قتلتهم أدركتك فى الحال إلى الأطلال فعند ذلك ركب كليب جواده وسلم أمره للواحد القهار إلى أن وصل إلى تلك الدار وهو فى قلق وافتكار هذا ما كان من أمر كليب ويرجع الكلام والسياق إلى حديث سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة فإنها لما أثارت الفتنة بين القوم وصار لها عند بنى مرة ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول أخذت طاسة

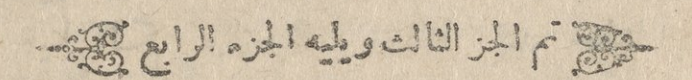
من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر وخففت الجميع فى بعضه البعض وعمدت إلى ناقتها الجربانة وأخذت تطلى أجنابها وتدهنها بذلك الطيب وأمرت بعض العبيد أن يأخذها إلى المرعى ويمر بها قرب صيوان جساس فى الصباح والمساء وأوصته إذا سأله أحد عنها وعن سبب رائحتها يقول لا أعلم وإنما مولاتى تعلم فأخذ الناقة ومر على ذلك المكان فعبقت رائحة الطيب فاستنشق جساس الرائحة وكانت ذكية جداً فتعجب وكان قد نظر إلى العبد وتلك الناقة فأمر بإحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه ولما حضر وإذا رائحة كريهة جداً فسأله عن تلك الرائحة فقال من الناقة فازداد تعجبا وسأله عن سبب ذلك فقال لست أعلم يامولاى إنما مولاتى سعاد الشاعرة تعلم ذلك فقال جساس هذا غريب فاستدعى العجوز إليه فحضرت ثم سألها عن قضية الناقة فتنهدت من فؤاد موجوع وقالت لاخفاك أطال الله عمرك وأبقاك إن هذه الناقة من سلالة ناقة صالح وفيها خواص غريب ياابن الأجواد فإن بعرها من المسك وعرقها من الزباد فتعجب جساس غاية العجب وقال فى نفسه تبارك الله رب العالمين فلابد لى من أخذ هذه الناقة فأفتخر بها على جميع الملوك فقال لها هل تبيعنى إياها ياحرة العرب وأنا أعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها وقالت والله هذا الحساب الذى كنت أحسبه فإنى ماهاجرت من بلادى إلا لأجل هذه الناقة وكلما نظرها أمير أو ملك يطلبها وما دام الأمر كذلك فإنى سأرحل من عندك ثم بكت من قلب حزين وأنشدت تقول :

تقول سعاد من قلب موجوع	سقانى الدهر كاسات الحمام
حنى منى الفؤاد وغاب نومى	عمى بعلى وقد زادت سقامى
أنا حرمة لى يد قصـيرة	ولا لى قيمـة بين الأنام
وهـذه ناقتى قد شتتنى	عن الأوطان يا ابن الكرام
فكم من سيد جاء يشتريها	فما نالوا بها نيـل المرام
وقد جينا لكم والتجينا	وقلنا قد حطينا بالسلام
وأنت تريد أن تأخذها منى	فعاد رجوعنا أشهى المرام

فلما فرغت من كلامها أخذ جساس يعطف بخاطرها ويقول لها إن كلامى معك هو على سبيل المزاح فناقتك مباركة عليك وأنت المعزوزة عندنا فقالت من

بحيث ذلك أريد أن تجعل ناقتى دون باقى النوق والجمال لأنها قد تربت بالدلال وأريد مرعى لأنه أليق بها فقال أرسلها إلى المراعى مع نوقى وجمالى فقالت إنها لا تأكل إلا من الرياحين وزهر البساتين فقال إنه ليس لنا كروم ولا بساتين قالت وهذه الكروم التى بجانب القبيلة من هو صاحبها قال هى لابن عمى كليب زوج أختى الجليلة وهمام متزوج أخته ضباع قالت ما دام أنكم أهل وأقارب وأنت ملك نظيره فلماذا يكون كليب أعظم منك فقال انه من بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وطاعته العباد فلما سمعت هذا الكلام قالت والله لقد أخطأت وبئس مافعلت فإنى تركت البحر وجئت إلى الساقية وتعلقت بالذنب وتركت الرأس فاغتاظ جساس وحس وقال ما معنى هذا الكلام ياحرة العرب فإنك قد خرجت عن دائرة الصواب وباديتنا بقلة الأدب أهذا جزاء المعروف والإحسان فقالت لا تغضب ولا تغتاظ وما قولى هذا إلا من سبيل المحبة فكيف يكون ابن عمك وصهرك وزوج أختك ويملك على هذه الاراضى العظيمة وأنت ليس لك قدر ولا قيمة أهكذا يكون الأهل وأبناء الاعمام أيها الملك الهمام فقال جساس وذمة العرب وشهر رجب لقد تكلمت بالصواب وأنا من الآن وصاعدا لست أحسب له أدنى حساب لانه قد اعتز وتمرد ولا عاد يحسب حساب لأحد وأنا لا بد لى أن أطالبه أن يقاسمنى على أملاك المملكة وإلا ألقيه فى التهلكة فروحى واطلق ناقتك لكى ترعى فى احسن البساتين والمرعى ثم انشد وقال :

يقول جساس شعراً من ضمايرى ... قدمع عينى على الوجنات طاف


تم الجز الثالث ويليه الجزء الرابع

الجزء الرابع

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

والنار فى مهجتى قد أحرقت كبدى ... من جور قوم مالهم أنصاف
قولك صحيح مالنا عنده قيمة ... ولا كلام ونحن من الأشرافه
سبعة أقاليم ملك تبع حازها ... وعلى المدائن والقرايا طافه
والكروم والنخل والأثمار أجما ... حاز الجميع من البلدان والأطراف
روحى ياسعادة خلى ناقتك ترعى ... بين الكروم ولست منه أخاف

(قال الراوى) فلما انتهى جساس من شعره ونظامه فرحت العجوز وانشرح صدرها فقبلت يده وخرجت من عنده وقالت لعبدها خذوا هذه الناقة واتركوه ترعى فى البستان المعروف بحى كليب واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع الأشجار وتأكل الأغصان وإذا اعترضكم فاشتموه وسبوه وإذا اقتضى الأمر اقتلوه ولا تخافوا فقالوا سمعاً وطاعة ثم أخذوا الناقة وساروا بها إلى ذلك المكان .

(قال الراوى) وكان هذا البستان كأنه روضة جنان كثير الأشجار والفواكه والأثمار وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن متنزهات الدنيا وكان لا يسمح لأحد أن يدخل إليه سوى هو وعياله فقط فلما أخذت العبيد الناقة دخلوا بها بعد أن هدموا الحائط وصاروا يقلعوا الزهور ويكسروا أغصان الشجر وكانت الناقة تأكل العرايس وأثمار الكرم وكان كليب قام حارسا يحرسه إسمه ياقوت فلما نظر الحارس تلك الفعال هجم على العبيد بالعصا وقال لهم أخرجوا يا كلاب من البستان قبل أن يحل بكم الهوان فشتموه وسبوه ثم ضربوه فهرب من بين أيديهم وجاء إلى كليب وأعلمه بواقعة الحال فاغتاظ غيظا شديدا وجاء إلى ذلك المكان ومعه أربعة غلمان فرأى العبدين أحدهما جالس على سريره أى الذى كان يجلس عليه وقت النزهة والآخر دائر مع الناقة بين الكروم والزهور وهو يسب الأمير كليب ويشتمه فعند ذلك تراكضت غلمان كليب على العبيد لتقبض عليهما فتركا الناقة وهربا فأحضرت الغلمان الناقة أمام كليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان وكانت عبيد العجوز تراقب عن بعد ما يجرى على الناقة فلما شاهدوا ما كان من أمرها رجعوا على الأعقاب وأعلموا مولاتهم بما جرى وكان وكيف أن غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان فقالت الآن

جلغت مرادى وأخذت ثارى من الأعادى ثم أمرت العبد أن يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها فسار العبد وسلخها وجاء بجلدها اليها وقامت من وقتها ووضعت التراب على رأسها وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجواريها وأخذت جلد الناقة وسارت بها لعند الأمير جساس فدخلت عليه وهو فى الديوان مع الأكابر والأعيان وصارت تندب وتبكى وألقت الجلدين بين يديه فقال ملامك أيتها العجوز وما الذى أصابك فحدثته فى القصة وقالت له فى آخر الكلام لو كنت أعلم بأن ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتى فى حماه حتى يذبحها بل أنى اعتمدت على كلامك نظرا لعلمى برفعة مقامك بين أهلك وأقوامك حتى جرى ماجرى بسببك ثم أنشدت تقول :

تقول سعاد من قلب موجع	أيا جساس غابوا فى نزيلك
أتيت اليوم مع أهلى وبعلى	لحيك يافتى نطلب جملك
نزلنا فى جوارك يا معظم	وقلنا ليس فى الدنيا مثيلك
فقلت لهم دعوا الناقة ترعى	بغيظ كليب تحسبه خليلك
فرحت طلقتهم وسمعت قولك	ذبحها جئت حالا اشتكى لك
فإن كانت لكم ذمة وحرمة	فانهض يا أمير وشد حيلك
نخذ حقى من الباغى كليبا	ورب العرب مولانا كفيلك

(قال الراوى) فلما فرغت العجوز من كلامها استعظم جساس تلك القضية وعصفت فى رأسه نخوة الجاهلية وقال للعجوز اذهبي بأمان فأنا أعرف شغلى فذهبت إلى خيامها واستبشرت ببلوغ مرامها ثم التفت الأمير جساس إلى من حوله من الأمراء وأكابر الناس أنظروا مافعله ابن عمنا فى حقنا وهو صهرنا فقد أهاننا بهذا العمل وأنا لابد لى أن أستعد لقتاله فى هذا اليوم فإما أن أقتل أو أبلغ الأمل فقالت له أكابر العشيرة تمهل يا أمير فإنه لربما يعلم أنها ناقة نزيلك ومن الصواب أن ترسل له كتابا على سبيل العتاب وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه فإن أرسل الثمن واعتذر كان خيراً وإن أبى وامتنع فحينئذ تفعل ماتريد فاستصوب جساس هذا الرأى وكتب كتابا إلى كليب يعلمه بذلك الحال ويطلب منه ثمن الناقة وأرسل الكتاب مع عبده أبو يقظان فأخذ أبو يقظان الكتاب وفى طريقه مر على تلك العجوز اخبرها بالقصة فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له

الطعام ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب فعند ذلك فتشته فى ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب فقرأته فوجدته كتابا بسيطاً خالياً من التهديد والوعد والوعيد وأضافت إليه كلاما مغيظا وهى هذه الأبيات :

أمير كليب ياكلب الأعارب ... أبا ابن العم لا تكبر على
فلازم اذبحك فى حد سيفى ... وانت شبيه حزمة أجنبية

ثم طوت الكتاب ووضعته فى مكانه وقام العبد فنهض وركب جواده وصار حتى وصل ديوان الأمير كليب ودخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب فأخذه وقرأه ولما وقف على معناه اغتاظ غيظاً شديداً وأراد أن يقتل العبد ولكنه كان رجلا عاقلا موصوفا بالحلم والحزم فأطرق رأسه إلى الأرض وتفكر قليلا ثم قال فى سره لعل الأمير جساس كتب لى هذا الكتاب وهو فى حالة السكر غائب عن الصواب فمزق الورقة وأمر بضرب العبد فضرب وقال له إذهب ياابن اللئام إلى عند مولاك بسلام وإلا سقيتك كاس الحمام فقام وهو على آخر رمق وركب حصانه وسار إلى عند جساس وقال له إنه بحال ما قرأ الكتاب مزقه وأمر بضربى وقد شتمك وسبك وهذا الذى تم وجرى .

(قال الراوى) فلما سمع جساس هذا الكلام صار الضيا فى عينيه كالظلام فنهض فى الحال ودخل إلى خزانة السلاح ولبس آلة الحروب والكفاح وركب ظهر حصانه وانحدف إلى صيوانه وصاح على أبطاله وإخوته وفرسانه فجاؤا إليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجدال وقال لهم استعدوا لقتال بنى تغلب الأنذال وأخذ يكلمهم بهذا الشعر والنظام :

يقول جساس نار القلب مشتعلة ... على الضمائر يا قوم لها لهيب
يا قومنا إسمعوا قولى واصغوا ... قول صحيح بلا تكذيب
كليب خلى كل أحوالنا عبر ... حكم البلاد مشارق ومغيب
وليس يحسب لنا قدر ومنزلة ... الكل عندهم غنم وهو بينهم ديب
ناقة نزيلى ذبحها ما اخشى أحدا ... أجرى إلى دمها شبه الأنابيب
أتت عجوز فألقت جلد ناقتها ... بعد ما بكت بدمع سكيب
تنهدت ثم قالت يا ولد مرة ... ابن عمك كليب عليك يعيب
هكذا كليب يفعل بنزيلك ... مالك قيمة عنده ولا ترحيب

فقلت لها اصبرى ياعجوز على فأنا لك منـــه تمنها أجيب
أرسلت له أبو اليقظان عندى بكتاب ما فيه أسا ولا تعذيب
شق الكتاب وادمى العبد بضربه ومن كثرة الضرب ماأظنه يطيب
أترضون للمذلة يا أهل قومى الذل لايرضاه سوى كل معيب

(قال الراوى) فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وعرف قومه فحوى قصده ومرامه فما أخذ طاوعه على هذا المرام وقالوا له عن فردلسان بئس هذا الرأى وهل يجوز لنا ياأمير لأجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الأمير كليب وترفع فى وجهه السلاح بعد أن صانا وحمانا بسيفه وقبل الملك تبع حسان واستولى على الأقاليم والبلدان وجعل لنا ذكراً عظيما فى قبائل العربان على طول الزمان فإن كان لك عليه دم أو ثار فدونك وإياه فلا تطلب منامساعدة ولا نجدة فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز ولما أجتمع بها قال لها لقد جئت إليك لأرضيك بالعطايا خوفا من ازدياد الشر ووقوع البلايا فاطلبى ثمن ناقتك لأعطيك إياه ولو كان مهما كان قالت أريد واحداً من ثلاثة أشياء قال وماهى قالت أريد إما أن تملا حجرى بالنجوم او تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم أورأس كليب بالدماء يعوم فقال لها أما ملو حجرك بالنجوم او أن الناقة تعيش وتقوم فهذا لا يقدر عليه إلا الحى القيوم أما رأس كليب فابشرى به ثم قوم السنان وأطلق العنان وقصد حى بنى قيس فقالت العجوز اعبدها سعد خذ هذا السكين والمنديل الأبيض واتبع جساس من وراه فإذا رأيته قتل كليب فأسرع اذن والطخ هذا المنديل من دمه فتى فعلت ذلك فإنى أطلقك لوجه الله تعالى فامتثل أمرها وتبع آثار جساس اما جساس فلم يزل سائراً حتى وصل إلى قصر كليب وسأل عنه فقالت له أخته الجليلة قد ركب الآن وهو يطبع مهره فى وادى الحصا والجندل فقصده حتى التقى به وهو يطبع مهره وكان كليب بدون سلاح ولم يكن معه سوى خيزرانه فقط وكان كليب دائر ظهره إلى جساس لأنه كان من عادته دائما انه لا يلتفت فى أيام الحرب إلى أقل من مائة فارس فأراد جساس أن يغدره من قفاه فما طاوعته يده على ذلك مهابة ووقارا فلما وصل وسلم عليه فرد عليه السلام فرآه متسربل بالسلاح فاستعظم كليب الأمر وقال علامك يا ابن عمى أراك بالسلاح الكامل قال بوادى الصيد والقنص لكننى لما لتقيت بك اعرجت إليك لأسألك سؤالا واحدا واعاتبك على ما فعلت فهل كان لك بساتين وكروم ونحن مالنا شىء أتت عندنا

العجوز شاعرة مع بعل لها ابن عمى ورعت ناقتها فى بستانك على نجاهنا فكيف تقتلها أما لنا عندك قيمة ولا اعتبار بهذا المقدار فضرب كليب كفا على كف من شدة الأسف وقال والله يا ابن عمى ما عرفت أنها ناقة نزيلك ثم ذكر عن سوء أدب الرعيان وما فعلوا من الضرر فى البستان ومع كل ذلك فإنى أعوض واعطيها أربعمائة ناقة وإذا أردت اكثر فاعطيها ولا يكون ذلك سببا للنزاع والخصام بيننا فإننا أولاد اعمام وأصهار فقال جساس على سبيل الخداع إنى سأرضيها وهو قاصد قتله ثم قال له مرادى أن العب معك سابقين بالجريدة فقال كليب يا جساس انت راكب ظهر القسيرة وأنا راكب مهر جاهل فقال أنا أسوق أمامك والمهر يسبق الفرس فساق جساس الفرس فتبعه كليب حتى حكمت تحت يمينه وضربه بالجريد فأصابت ظهره فقلبته عن ظهر الفرس فانحدر الدم من فمه ومناخيره فقال كليب قم يا ابن العم فإنه كنت لا تريد أن تلعب غير هذه الجريدة فاصرع واضربنى بها فينتهى الحال ثم نزل كليب عن ظهر المهر ومشى أمامه أما جساس فإنه قد تألم بهذا القدر حتى إنه لم يعد تمكنه القيام وإذا بعبد العجوز أقبل إليه وجذبه من يده فأوقفه وقال والله إنك من أحقر الرجال ثم اعلمه بحاله وكيف العجوز أرسلته خلفه لأجل تلك القضية فتحمس جساس ونهض ومسك له العبد الركاب فركب ثم تقدم نحو كليب وهو فى يده الرمح وطعنه فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض يختبط بدمه فبكى كليب ملء عينيه ودمعه يسيل على خديه فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل فتقدم اليه وقبله فى لحيته وعارضيه وضمه إلى صدره ووضع رأسه على ركبتيه وقال سلامتك يا ابن عمى يا أبا اليمامة فقد حلت بى الندامة فوالله إنى فعلت ذلك بدون عقل ولا تمييز فسامحنى على هذا الارتكاب القبيح فأجابه كليب على حلاوة الروح وقال هذا حكم الإله المتعال ما كان أملى منك أن تباديني بهذه الفعال وتشمت فى الأعداء والأنذال وتفرق بينى وبين اليتامى والأطفال وما بكائى على مال ولا نوال إنما بكائى على اليتامى ولكن لهم رب لا يغفل ولا ينام وابكى أيضا على غدرك فإنك قتلتنى بالغدر والعدوان ولست من أقرانى فى الميدان ولا فى ملتقى الفرسان ولكن سيجازيك العادل الديان وسوف ترى ما يحل بك من الهوان ولا أظن بأنه يصفى لك الزمان بعد الآن فقم واذهب إلى الخيام واقرى الأيتام منى جزيل السلام ولكن اسقنى قبل رواحك شربة ماء لأن قلبى قد احترق من الظمأ وأشار بهذه القصيدة يقول :

يقول كليب اسمع يا ابن عمى	أيا جساس قد أرهقت دمى
أيا غدار تطعنى برمح	ولست انت فى الميدان خصمى
واشمت الأحاسد والأعادى	وباتت إخوتى تبكى وأمى
على ناقة تقتل ابن عمك	أمير كريم من لحمك ودمك
بيوم الضيق كان يزيل همك	ويردى الضد فى يوم النزال

(قال الراوى) فلما فرغ كليب من شعره ونظامه خاف جساس واصفر لونه وارتعش قلبه وقال والله يا ابن عمى لا يعرف الإنسان ماذا مقدر عليه ثم أنه رفع رأسه عن ركبته وأتى له بماء فاسقاه ثم ركب وتركه وخلاه وهو يركض ويلتفت وراه قاصدا أهله وحماه وأما عبد العجوز فإنه بعد ذهاب جساس تقدم ليذبح كليب حسب ما أمرته العجوز فلما اقترب منه وجده يجود بنفسه وهو على آخر رمق فتأمل فيه العبد فوجده ذات هيبة ووقار ووجهه يتلألأ بالانوار فتأخر عنه وخاف منه فنظر إليه كليب ففاق من حلاوة الروح وقال له من أنت وما هو قصدك ومرامك فاعلمنى بحالك فقال له لا اخفى عنك انا عبد التبع اليمانى فلما قتلته انت حضرت أخته سعاد العجوز الساحرة إلى هذه البلاد لتأخذ ثاره منك وتطفى لهيب نارها وهى التى القت الفتنة بينك وبين ابن عمك حتى قتلك وأرسلتنى لاذبحك وآخذ لها أثر من دمك فقال كليب لقد صدقت فقد ذكرلى تبع هذا الكلام ونفذ قوله الآن بالتمام وهذا تقدير رب الأنام فاريد منك يا عبد الخير قبل أن تذبحنى تفعل معى هذا الجميل وهو أن ترمينى بالقرب من هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير لاكتب وصيتى إلى أخى سالم الزير وأوصيه بأولادى ومهجة كبدى وبعد ذلك افعل ما تريد فسحبه العبد إلى قرب البلاطة والرمح غارس فيه والدم يقطر من جنبه فبكى كليب وتفكر وهو يتأمل على ما أصابه ويتحسر ثم أخذ بيده عودا وغطه بالدم وانشد يقول :

يقول كليب إسمع يا مهلهل	مذل الخير قهار الاسود
على ما حل من جساس فى	طعنى طعنة منها يعود
أيا سالم توصى باليتامى	صغار وبعدهم وسط المهود
واسمع ما اقولك يا مهلهل	وصايا عشر افهم بالاكيد



كليب يكتب وصية للوزير على البلاط

فأول شرط أخوى لا تصالح ... ولو أعطوك زينات النهود
وثانى شرط أخوى لا تصالح ... ولو أعطوك مالا مع عقود
وثالث شرط أخوى لا تصالح ... ولو أعطوك نوقا مع عهود
ورابع شرط أخوى لا تصالح ... واحفظ لى ذمامى مع عهود
وخامس شرط أخوى لا تصالح ... فإن صالحت لست أخى أكيد
وسادس شرط أحوى لا تصالح ... وقد زادت نيران الوقود
وسابع شرط أخوى لا تصالح ... واسفك دمهم فى وسط بيد
وثامن شرط أخوى لا تصالح ... واحصد جمعهم مثل الحصيد
وتاسع شرط أخوى لا تصالح ... فإنى اليوم فى ألم شديد
وعاشر شرط أخوى لا تصالح ... ولا قصد شكوتك للودود

(قال الراوى) فلما فرغ كليب من شعره و نظامه بكى العبد عليه ورثى لحاله ثم تنفس كليب الصعداء وهو مطروح وجعل يقول من حلاوة الروح أين الاحباب والحجاب أين جندى ودولتى أين ملكى وصولتى تبا لحكم مصيره الزوال فياويل الذين يتجبرون على الإله المتعال ثم قال للعبد بالله عليك أن تمهل على قليلا حتى أتودع من الدنيا واكتب لاخي أيضا هذه الوصية فقال العبد أكتب يامولاى رحمك الله ثم أخذ العودة وكتب يقول من فؤاد مبتول

يقول كليب من مادة ربيعة — فدمعى فوق خدى كالقناه
جفانى الدهر وأرمانى سقيم — فهذا الدهر كم مثلى فتاه
خرجت أنا على ظهرى أسير — فليس بيدى أنا سوى العصاه
فإذا ابن مرة جاء خلفى — يريد قتلى وإبليس طغناه
ضربته بعصاى فوق ظهره — تقنطر راح من فوق الوطاة
أنى من خلفى عبد غريب — سريعاً أركبه ووقف حداه
فاستعد وجانى فى حال سرعة — وناره بالحشا زادت لظاه
قال لى دير وجهك يا ابن عمى — يريد الغدر منى بالفناه
فأحكم طعنة فى سريعاً — وراح جساس هارب بالفلاه
هديت لك هدية يامهلهل — عشر أبيات تفهمها الذكاه
أول بيت أقوله أستغفر الله — إله العرش لا يعبد سواه
وثانى بيت أقول الملك لله — بسط الارض ورفع السماء
وثالث بيت توصى باليتامى — واحفظ العهد ولا تنسى سواه
ورابع بيت أقول الله أكبر — على الغدار لا تنسى أذاه
وخامس بيت جساس غدرنى — انظر الجرح يعطيك النباه
وسادس بيت قلت الزير أخى — شديد البأس قهار العداه
وسابع بيت سالم كون راجل — لأخذ الثار لا تعطى وناه
وثامن بيت يالك لا تخلى — لا شيخ كبير ولا فتاه
وتاسع بيت يالك لا تصالح — وإن صالحت شكوتك للاله
وعاشر بيت إن خالفت أمرى — انا وإياك إلى قاضى القضاه

ولما انتهى كليب من كلامه التفت إلى العبد وقال له افعل الآن ما تريد فقال والله ياأمير ما تستحق الا كل خير وإن يدى لا تطاوعنى على ذبحك فقال

اذبحنى لأننى فى ألم شديد وعن قريب تأتى إخوتى وباقى الرجال والحريم فعند ذلك أخرج العبد السكين وانحنى عليه وذبحه من الوريد إلى الوريد ولوث المنديل بدمه ورجع إلى عند سيدته فاعلمها بقتل كليب وأراها دمه ففرحت فرحا شديدا وصبرت إلى الليل ثم حملت وسافرت بمن معها من تلك القبيلة سرا حتى لا يعلم بها أحد وقالت لقد أخذت الآن ثارى وطفيت لهيب نارى هذا ما كان منها وأما جساس فإنه لما رمى كليب وولى هارب سار حتى وصل إلى قومه وهو فى خوف عظيم أصفر اللون متغير الكون فسال ابوه الامير مرة اين كنت قال كنت فى البرية فالتقيت بابن عمى كليب فقتلته وزال همى وغمى فلما سمع مرة هـذا الخبر تبدل صفو عيشه بالكدر وقبض على جساس من ذراعه كاد يخرج روحه من بين جنبيه وقال ياعديم الزمان ويا أخبث الانام أتقتل ابن عمك وهو من لحمك ودمك لأجل ناقة حقيرة وصاحبتها سائلة فقيرة فماذا تقول العرب يا غدار إذا سمعت عنك هذه الاخبار فقد أجلبت علينا الاذى والضرر وفضحتنا بين البشر وما زال يوبخه بالكلام ويلطمه من خلف وقدام حتى جاءت إخوته اليه وخلصوه من بين يديه وهم يعنفوه ويسبوه ويشتموه ما عدا الأمير همام فإنه كان عند الزير فى تلك الأيام يتنادمان ويشربان المدام على بير السباع كما تقدم الكلام وليس عندهما خبر بهذه الأمور والأحكام ثم التفت مرة على أولاده وقال لهم لقد حلت بنا المصائب من كل جانب فما الذى عاد يخلصنا من الزير ليث الوادى وقهار الأعادى فوالله لقطع آثارنا ويعجل دمارنا ثم إنه بعد هذا الكلام أشار يقول :

يقول أمـير مرة من قصيد	بأن العار ما يمحوه ماح
جنيت اليوم يا جساس حربا	علينا فى المسا والصباح
وقدت النار فى بكر وتغلب	يعم لهيبها كل النواحى
أيا جساس تقتل ابن عمك	كليب البرمكى ليث البطاح
أمـير ما كان له مثيلا	شديد البأس فى يوم الكفاح
أيا جساس من قتل ابن عمه	يبيت الليـل يسهر للصباح
فسوف ترى بما يجرى بنا	إذا برز المهلهل للكفاح
فيسلب مالنا قهراً وغصباً	بأطراف العوالى والصفاح

(قال الراوى) فلما فرغ من هذا النشيد أجابه جساس بهذا القصيد وعمر السامعين يطول

تأهل مثل أهبة ذى الكفاح ... بأن الأمر زاد عن التلاحى
فانى إن جلبت عليك حربا ... فانى ليث حرب فى الكفاح
فكيف عن الملام فلست أخشى ... بيوم الحرب من طعن الرماح
وانى حين تنشر العوالى ... أعيد الرمح فى أثر الجراح
تعدت تغلب ظلم علينا ... بلا ذنب يعد ولا جناح
ومالى همة أبدا وقصد ... سوى قتل العدى يوم الكفاح

(قال الراوى) فلما فرغ جساس من كلامه قال له أبوه سوف ترى مايحل بنا من البلاء والويل من سيف المهلهل فارس الخيل ثم صار يبكى ويتأسف ويلطم كفا على كف ثم قال لأولاده الرأى عندى أن نكتف جساس ونرسله إلى الزير وإخوته ليقتلوه بثار كليب وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتطفى النار وتزول الأحزان والأكدار فإن المصيبة عظيمة وعاقبتها ذميمة وخيمة فقالت أولاده ما هذا الكلام يا أبانا فهل بعد كليب غير جساس يليق أن يكون ملكا فإن كنت تحسب حساب المهلهل فما هو إلا كالأهبل وليس له دأب إلا أكل الكباب وشرب الشراب فقال مرة للعياذ بالله من كيد الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال لأولاده وأن أخيكم همام له عند الزير مدة أيام فنخاف أن يعلم الزير بقتل أخيه فيقتله ولا يبقيه .

(قال الراوى) وكان لهمام جارية إسمها رباب فاستدعاها مرة اليه وقال لها اقطعى البقاع وسيرى إلى بير السباع واعلمى همام سرا بما جرى وتجدد وقولى له أن يرجع بالعجل خوفا من أن يقتل فسارت الجارية حتى وصلت إلى هناك فوجدت الزير وهمام على سفرة الطعام وهما بالكلام ويشربان المدام ويتحدثان بالكلام فلما رآها همام وثب اليها وقال مادهاك قالت سر طويل وحزن وعويل ثم أعلمته سرا بواقعة الحال وطلبت منه المسير إلى الأطلال فلما وقف على حقيقة الأحوال اعتراه الانذهال وغاب عن الصواب وتبدل انشراحه بالحزن والاكتئاب فلما طال بينهما الحديث والخطاب خرج الزير من بين الأطناب كأنه أسد الغاب فوجدهما يتكلمان سرا ويوميان عليه فعظم الأمر لديه فسل الحسام وقام ماهو الخبر ياهمام فإنى أراكم فى قلق واهتمام وأشار يقول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... أحس النار فى قلبى لهيب
فقلبى موجع والجسم ناحل ... ولا ألقى إلى جسمى طبيب
وشاب الرأس منى والعوارض ... فإنى صرت فى حال عجيب
وافكر فى الزمان وشؤم فعله ... وهذا الدهر يتقلب قليب

آيا همام ألا يا ابن عمى ... فمالك خائف واقف رعيب
فما أبصر الحرمة تقول لك ... تناديك وأنت لها تجيب
أراكم تكتموا الأسرار عنى ... كأنى بينكم رجل غريب
أراكم فى حديث وفى وشاوش ... وبين ذا وذا أمر عجيب
فلا تخل الأمور من الحوادث ... يا همام إعلمنى تصيب
وإلا افتحوا لى الباب حتى ... أروح عنى ندا قلبى يطيب

(قال الراوى) فلما فرغ من شعره أجابه همام بقول :

يقول همام إسمع يا مهلهل ... فدمعى فوق الخدود سكيب
ونارى بالحشا قد أحرقتنى ... أحس لها طى الفؤاد لهيب
أقول أنت تسمع يا مهلهل ... بأنك صاحبى نعم الحبيب
فما نحن فى وشاوش ... ولا أنت بيننا رجل غريب
أنا وإياك فى طرب ولهو ... ولا تحسب حسابات الحسيب
جملنا يا فتى نيت جملكم ... جرى دمه على نحره سكيب

فلما سمع الزير هذا الشعر توقد قلبه بلهيب الجمر وأجابه يقول :

يقول الزير يا همام إسمع ... أن ابن عمى لى نسيب
فما لك علم فى وقتك كله ... ولا فى القضية لك طليب
فقم اذهب إلى أهلك يا نسيبى ... بلا تطويل من قبل المعيب
فتأتى إخوتى ثم يقتلونك ... ويدعونك على الغبرا كئيب
فما أقدر أن أحميك منهم ... وأنت محب أيا نعم الحبيب
فوالله ثم والله ثم والله ... ثلاث أقسام يحلفها الحسيب
فلو جينا ما عيش أكلنا ... وكاسات شربناه بطيب
لكنت أمد يدى تحت سيفى ... وآخذ ثار أخوى عن قريب

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال لهمام أنت من دون بنى مرة نديمى وصديقى وزوج أختى ورفيقى ليس عندك علم بهذا المنكر فلا تخاف ولا تفزع فقال همام لقد جرى القلم يا ابن العم والذى مضى ما بقى يرجع فاما تقتلنى عوض عن أخيك أو تأخذ منا ما يرضيك وترفع عنا الحرب والقتال وتتركنا نبقى فى الأطلال فوالله صعب على هذا الأمر والتهب قلبى بنار الجمر لما سمعت بهذا الخبر المهول فلا كان جساس المهاد قال الزير وحق من يعرف الغيب وروح أخى وحبيبى كليب إنى لا أرفع السيف عنكم

حتى أشفي غليلي منكم ثم أقتلكم عن بكرة أبيكم وأهتك النساء والبنات وأجعلكم مثلا بين الكائنات ولولم تكن زوج أختي وسميري ما كنت أعلمتك بما في ضميري بل كنت قتلتك في الحال وأورثتك النكال فسر الآن إلى الأطلال ولا عدت تريني وجهك في الحرب والقتال فلما سمع هشام ذلك الكلام ركب ظهر الحصان وأومأ إلى ابنه شيبان الذي كان معهما في ذلك المكان أن يسير معه إلى تلك الأوطان فامتنع عن المسير وقال سابقى مع خالي الزير فسار همام وقد عظم عليه الأمر وهو ينفض غبار الموت عن منكبه حتى وصل إلى حلته واجتمع بابيه وإخوته وأخذ يلوم جساس على فعله وكيف انه تجاسر على كليب وقتله وأعلم قومه بما عزم الزير فخاف الكبير والصغير وأيقنوا بالهلاك والتدبير واستعدوا من يومهم إلى الحرب والكفاح وجمعوا آلات الحرب والكفاح هذا ما كان على بني مرة وأما الزير صاحب الشجاعة والقدرة فإنه بعد ذهابه إلى الديار اشتعلت بقلبه لهيب النار واعتراه الاصفرار فصار يلطم وجهه في يده وقد عظم الأمر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ومع ذلك لم تنزل من عينيه دمعة لأنه كان من الجبابرة السبعة وكان يقول وحق رب العباد لابد أن أفتك ببني بكر الأوغاد وأقتل الشيوخ والأولاد ولما طال المطال وهو على هذا الحال قال له شيبان بن همام دع عنك هذا الكلام واشرب المدام فإنك عاجز ياخال عن هذه الفعال فمن أنت من الأبطال حتى تتكلم بهذا المقال وتتباهى على الامراء وأكابر الناس كأبي همام وعمي جساس ثم أنشد اليه يقول وعمر السامعين يطول .

أنشد شيبان وقال في بيوت	ودمعي من عيني طال
خالي إسمع ما أقول	وحط قولي وسط البال
خلي الهرج وطي النفس	واترك عنك قيل وقال
تقول تكيد بني مرة	وتقتل كل الابطال
غدا يا خالي هم يأتوك	بخيل كثير ونعم رجال
يظهر خيول عليك تجول	ودق طبول كما الزلزال
وترج الارض بطول وعرض	ترحوا قتلى بضرب صقال
يجيء جساس قوي الباس	كذا العباس زكي الحال
وياتي عمر بخيل ضمر	وصفر ونمر وابو جفال

يجى ملك القوم كان بيوم الكون كسبع همال
وأخى شيبون بطل مجنون وأبى همام إن جاك ومال
وتأتى الشوس وكل عبوس يخلوا الروس تلال تلال

فلما انتهى شيبان من كلامه أجابه الزير على شعره ونظامه :

يقول الزير أواه أواه يا ابن اختى عقلى زال
بولى غدا الفرسان تجيك يخوفنى من أهل أنذال
أتاريك انت عدو مبين كلامك ما خلالى حال
وأنا العربيد بيوم نكيد للروس اكيد بطعن وعوال
أكيد الشوش نقطع الروس أنا الجبار فغير محال
وبعد كليب لابيع الروح أشلكم بالرمح شلال
وبعد كليب أحلى السيف طول العمر بكم عمال
وبعد كليب سياج البيض ما اعتق منكم رجال
وأنت يا ابن أختى اليوم قطورى عدت بغير محال
وأبوك أغدى سيفى فيه واعشى الرمح من الأبطال

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من إنشاده نهض الغلام ليركب على جواده ويلحق بأبيه وأعمامه فضربه الزير بحامه ألقاه على الأرض قتيل وفى دماه جديلا ثم قطع عنقه ووضعه فى مخلاة حصانه ولفها فى قربوس السرج وتركها فسار الجواد حتى وصل إلى القبيلة وسار إلى بيت مولاه فلما رأت أم الولد جواد الغلام وهو فى تلك الصفة قالت للجارية دونك جواد سيدك فتقدمت الجارية وأخذت المخلاة فوجدت فيها رأس شيبان فاستعظمت ذلك الشأن واعلمت بواقعة الحال فطار عقلها لما نظرت رأس ابنها مقطوع فضجت بالبكاء والنواح والعويل والصياح فاجتمعت عليها نساء الحى من كل مكان ولما سمع همام الخبر طار من عينيه الشرر فبكى واشتكى وقال لزوجته ضباع نظرت مافعل أخوك فوالله لم يبق لى غريم سواه فشقت ثيابها وسارت عند أخيها المهلهل ولامته على مافعل وقالت أتقتل ابن أختك بثار أخيك ثم أشارت تقول :

تقول ضباع يا سالم علامك بجاه كليب ما سويت يا بنى
بثار كليب تقتل ابن أختك وتحرق مهجتى وتزيد حزنى
حزنت على كليب وما جرى له وحزنى فى صميم القلب مبنى

ولكن قد حكم ربى مراده وربى ما كتبه لى يصيبنى

فأجابها الزير بهذه الأبيات :

يقول الزير من قلب حريق بقتل كليب زاد اليوم حزنى
ألا يا أخت قلى من بكاك ولا تخشين من أمر يعينى
فوالله ثم والله ثم والله إله العرش منذ أدعو يجبنى
فلا بد لى من حرب الأعادى وقتل كل جبار طالبنى

فلما فرغ الزير من كلامه قالت له لله درك ياسالم ياقهار الأسود القشاعم لقد زالت لوعتى الآن وخفت عنى الأحزان لما سمعت شعرك يافارس الفرسان وعرفت ما أنت معول عليه من الحرب والطعان وأخذ الثار وكشف العار ثم رجعت إلى الديار وهى فى قلق وافتكار هذا ما كان من أمرها .

(قال الراوى) ولما اشتهر كليب ووصل إلى أبياته الخبر وعلمت بذلك جميع أهله وبناته فمزقوا الثياب وأكثروا من البكاء والانتحاب فتهتكت الوجوه الملاح ووقع فى الحى العويل والصياح وكسرت الفرسان السيوف والرماح وخرجت بنات كليب من الخدور وهن مهتكات الستور ناشرات الشعور حافيات الأقدام يقطعن السهول والآكام وقدامهن أختهن اليمامة وكان ذلك اليوم مثل يوم القيامة ولما وصلن إليه وجدن الطيور حائمة عليه فوقعن على جثته وقبلن يديه وارتمين حواليه ولما قرأن ذلك الشعر الذى كتبه على الصخرة زادت أحزانهن وأخذن يلطمن على وجوههن ثم أقبلت إخوة كليب إلى ذلك المكان وازدحمت الرجال والنسوان والأبطال والفرسان والسادات والأعيان يرثوه بالأشعار وأجروا لهيب نارها سوى البطل الأوحد والسيف المهند والصحصاح الشهير الذى ليس له فى ذلك العصر نظير عمها المهلهل الملقب بسالم الزير فسارت هى وأختها إليه وتواقعت عليه وقالت والله ياعماه ما كأنك حزنان بما جرى علينا وكان من طوارق الزمان بقتل أخيك ملك العصر والأوان ثم ألقت نفسها غيابة فى حجره فضمها إلى صدره وقد حار فى أمره ولما أفاقت اشتدت عليها الحسرات فأنشدت هذه الأبيات :

مات أبى ياعم من طعن القنا غدر به جساس ذالكلاب المشوم
وأنت اليوم جالس فى صفاك يامهلهل بالعجل انهض قوم
يا مهلهل ضاقت الدنيا على وسقانى البين كاسات السموم

(قال الراوى) فلما فرغت اليمامة من هذا الشعر والنظام زادت على المهلهل الأوجاع والآلام فنهض على الأقدام كأنه سبع الآجام وصار النهار فى وجهه مثل الظلام وقال لبنات أخيه سوف ترون ما أفعله وأجريه ثم اعتد بآلة حربه وجلاده وركب ظهر جواده وسار مع البنات يقطع الاراضى والفلوات حتى وصل إلى ذلك المكان فوجده مملوءاً بالأبطال والفرسان والبنات والنسوان وهم يبكون ويلطمون وينوحون ويندبون فلما رأوا المهلهل قد أقبل فتحوا له طريقاً حتى دخل فوجد أخاه وهو مطروح والدماء من جسده تقطر وتسوح والناس واقفة حواليه فألقى نفسه عليه وهو يبكى ملء عينيه ويقول سلامتك يا أمير اليمامة يا صاحب الجاه والكرامة فقد أحرقت قلبى بفقدك فلا كان من يعيش بعدك ولما اشتد عليه الأمر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر فقرأها وقال وحق الإله المتعال إنى لا أصالح إلى الأبد مادامت روحى فى هذا الجسد ثم بكى وتنهد ورثاه بهذه القصيدة أم السادات . وأكبر العمد وهى من أجود مراثى العرب وأحسن أشعار أهل الفضل والأدب .

كليب لا خير بالدنيا وما فيها ... إن أنت خليتها من يبقى واليها
فيها تسمى النعاة كليبا فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أم مالت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... حالت الأرض فاندكت أعاليها
الناحر النوق للضيفان يطعمها ... والواهب الميتة الحمرا براعيها
الحلم والجود كانا من طبائعه ... ما كل اللطافة . ياقوم تحصيها
ضجعت منازل بالخلان قد درست ... تبكى كليب نهاراً مع لياليها
كليب أى فتى زين ومكرمة ... تقود خيلا إلى خيل تلاقيها
تكون أولها فى حين كرتها ... وأنت بالكر يوم الكر حاميها
غدرك جساس ياعزى وياسند ... وليس جساس من يحسب توا ليها
لا أصلح الله منا من يصالحهم ... حتى يصالح ديب المعز راعيها
وتوالد البغلة الخضرا تخذالجة ... وأنت تحيا من الغبرا تاليها
ويحلب الشاة من أسنانها لبن ... وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من هذه المرثاية الغراء وسمعتها السادات والأمراء تعجبوا من فصاحة لسانه وقوة قلبه وجنانه وما احتوت إليه من الألفاظ الرقيقة والمعانى البليغة الدقيقة وقالوا والله لقد جاد سالم الزير وفاق على الشعراء والمشاهير بهذا الكلام الذى هو كالدر النضير ثم اجتمعت الأمراء المقدمين وقالوا العرب المجتمعين أنه ما عاد ينفع البكاء والانتحاب وإن إكرام الميت دفنه فى التراب ثم أتوا بكليب إلى الديار ودفنوه بكل

احترام واعتبار واحتفال ووقار ورثوه بنفائس الأشعار وبنوا على قبره قبة من أعظم القبب وطلوا حيطانها بالذهب والفضة فكانت من العجب فى بلاد العرب زخرفوها بالنقش الفاخر كتبوا على حيطانها أسماء الإله القادر وهى هذه الأسماء التى يتكنى بها رب السماء قد أثبتناها بهذا الكتاب إفادة للطلاب .

﴿ أسماء الله الحسنى ﴾

الله الرحمن . الرحيم . الملك . القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن . العزيز الجبار . المتكبر . الخالق . البارىء . المصور . الغفار . القهار . الوهاب . الرزاق الفتاح . العليم . القابض . الباسط . الحافظ . الرافع . المعز . المذل . السميع . البصير . الحكيم . العدل . اللطيف . الخبير . الحليم . العظيم . الغفور . الشكور . العلى الكبير . الحفيظ . المقيت . الحسيب . الكريم . الرقيب . المجيب . الواسع . الحكيم . الودود . المجيد . الباعث . الشهيد . الحق . الوكيل . القوى . المتين . الولى . الحميد . المحصى المبدىء . المعيد . المحيي . المميت . الحى . القيوم . المقتدر . المقدم . المؤخر . الأول الآخر . الظاهر . الباطن . الولى . المتعال . البر . التواب . المنتقم . العفو . الرؤوف مالك الملك . ذو الجلال والإكرام . المقسط . الجامع . الغنى . المعطى . المانع . الضار . النافع . النور . الهادى . الباقى . الوارث . الرشيد . الصبور . جل جلاله

(قال الراوى) وبعد أن تلوا أسماء الإله القادر وسمعتها السادات ورؤساء العشائر دفنوا الأمير كليب كما تقدم الكلام ذبح الزير على قبره النوق والأغنام وفرق المال والطعام على الأرامل والأيتام ثم جلس فى الديوان وجميع الأكابر والأعيان والأبطال والفرسان وإخواته الشجعان وقال اعلموا أيها الأمراء والسادات الكرام أن جساساً أهانكم وقتل ابن عمكم وملككم فاستعدوا الأخذ الثار وكشف العار من بنى بكر الاشرار فلما سمعوا منه هذا الكلام أجابوه إلى ذلك المرام وقالوا عن فرد لسان إننا بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك لأن الأمير كليب لا ينتهى ولم تلد مثله النساء ثم أنهم تحالفوا معه وعاهدوه على كرسى المملكة وبايعوه وأجلسوه فلما تملك على القبيلة طرد امرأة أخيه الجليلة فسارت إلى بيت أبيها مع أهلها وجواريها وكانت جليلة بولد ذكر سوف يأتى عند الخبر واستعد الزير من ذلك اليوم لقتال القوم وحلف بأعظم الأقسام بأنه لايشرب المدام ولا يلتذ بطعام حتى يأخذ ثاره بحد الحسام وينتقم من بنى بكر أشد الانتقام أو انه يموت تحت أرحل الخيل ولا يبالى بالويل ثم أمر الرؤساء والقواد بجمع العساكر والأجناد



﴿ الزير سالم يأخذ ثأره بحد الحسام وينتقم من بنى بكر أشد الانتقام ﴾

وأن يكونوا فى استعداد للحرب فامتثلوا أمره فى الحال وتجمعت الفرسان والأبطال حتى امتلأت الروابى والتلال وكانت قد انضمت إليه عدة قبائل وأمدوه بالعساكر والجحافل حتى سار فى أربعمائة ألف مقاتل وقال لما بلغ بنى بكر هذا الخبر اعتراهم القلق والضجر وخافوا من العواقب وحلول النوائب فجمعوا المراكب والكتائب وسار بهم الأمير مرة إلى الذئاب وهو مكان شهير يبعد ثلاثة أيام عن قبيلة الزير وهناك انضمت إليهم بعض القبائل من العربان فكانوا نحو ثلاثمائة ألف وأقاموا فى ذلك المكان ولما سمع الزير برحيل مرة وأولاده إلى الديار قال لا بد أن أقتفى الآثار وأفنى الكبار والصغار ثم أمر القائد الكبير بسرعة المسير فامتثلوا ما أمره وفعلوا ما ذكره وفى الحال دق طبل الرجوع فارتجت منه السهول والمروج وهو الطبل الذى كان لتبع حسان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى ركبت الأبطال والفرسان وركب المهلهل متسربلا بالسلاح كأنه ليث الغاب

﴿ انتهى الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس من قصة الزير ﴾

الجزء الخامس

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وعلى رأسه الرايات والبنود ومن حوله القواد والجنود فعند ذلك سارت المواكب قاصدة الذئاب وما زال العسكر يقطع البر الاقفر إلى أن أشرف إلى تلك الديار اليوم الثالث عند نصف النهار ولما قرب وانكشف البيان ورآه الامير مرة ومن معه من الرجال والفرسان قالوا وحق الإله القدير المتعال لقد أقبل علينا سالم الزير بالجموع والجماهير والفرسان المشاهير والليوم تباع الارواح بيع السماح فى عاجل الحال انتخب الامير مرة ألف من الابطال وأرسلهم لملاقاة الاعداء فى تلك البيداء وكان المقدم عليهم إبنة الامير جساس وجماعة من علماء الناس فسار الجحفل طالباً جيش المهلهل ثم فرق مائة الف أخرى فى الصحراء وقدم عليهم ابنة همام وحثهم على الحرب والصدام وأقام هو بباقى العسكر على الجانب الايسر حتى إذا انكسرت الفرقتان يحمل بمن معه من الفرسان ولما شاهد المهلهل تلك الحال وانقسام الرجال والابطال فقسم عسكره إلى ثلاثة أقسام وتقدم ولما اقتربت العساكر من بعضها البعض وانتشر جموعها فى تلك الارض حملت الفرق على الفرق وهجم الجيش على بعضه وانطبقوا وقصد المهلهل فرقة الامير مرة بعشرة آلاف من أهل الشجاعة والقدرة وفى الحال اشتبك القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وارتجت الوديان والتلال من قعقعة النضال فكان يوماً مريعاً وحرباً فظيعاً يشيب منه رأس الغلام قبل الفطام فما كنت ترى إلا رؤسا طائرة ودماء فائرة وفرسان غابرة فلله در المهلهل وما فعل فى ذلك اليوم من العمل فإنه هجم هجوم الاسود وفرق المواكب والجنود ونكس الرايات والبنود وقتل كل جبار وتمرود وكان كلما قتل فارس يصيح يقول يالثارات كليب ملك العرب . يلقى نفسه فى مهاوى العطب أملا بالنصر وبلوغ الارب وما زال على تلك الحال حتى قتل خمسمائة من الابطال ولما اشتدت الاهوال تأخرت عنه الرجال خوفا من الهلاك والوبال وهو يجول ويدور ويهدر كالاسود والنمور ويقول كليباً قتيل الجور أين عيناك اليوم ترانى وتشاهد حربى وطعانى فياليتنى كنت فداك ولا كان من يسلاك .

(قال الراوى) وكانت نيران المعامع والحرب والوقائع مشتبكة فى ثلاثة مواضع واستظهرت جيوش المهلهل على أعدائها وبلغت غاية مناها وفعلت باقى الفرق كما فعل سيدها ومولاها واستمر القتال على هذا الحال من الظهر إلى غروب لشمس وكان قد قتل من بنى بكر أوفى من ثلاثين الف نفس ومن جماعة المهلهل نحو خمس آلاف بطل فعند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ونزلوا فى الخيام والمضارب ورجع المهلهل وهو قاهر وغالب كأنه أرجوان مما



(البطل أمرؤ القيس حامى ظهر الزير سالم المهلهل يطعن الحربة فى أحد الاعداء)

سال عليه من أدميه الفرسان فاجتمع بالسادات والأعيان فى الصيوان فهنوه بالسلامة وقالوا مثلك تكون الشجعان يا زينة الأكوان وجوهرة هذا الزمان فشكرهم على هذا الكلام ووعدهم بالخير والإنعام ثم أكلوا الطعام وأخذوا يتذاكرون بأمر الحرب والصدام وكان للمهلهل صديق يركن إليه ويعتمد فى أموره عليه قوى الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس ابن ايان وكان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العالية فقاتل معه فى ذلك اليوم وفتك فى صناديد القوم وكان لا يفارق الزير فى القتال ويحمى ظهره من غدر الرجال فقال له المهلهل أمام الفرسان رأيك ما هو يا ابن أيان فى الهجوم على الأعداء اللئام تحت جنح الظلام

فإني والله كلما أذكر قتل كليب تتوقد بقلبي النيران وليس لى عنه صبر ولا سلوان فقال تمهل يا أمير مهلهل فإن النهار قد اقترب ولا بد لنا من بلوغ الأرب لأنه القتال فى الليل يجلب علينا الهم والويل فتختلط الاحزاب بالاحزاب ولا تعود تعرف الأعداء من الأحقاب لأن الظلام يحجبنا بعضنا البعض وتتشتت فى هذه الأرض فاستصوب كلامه الزير فقال هكذا أشارت فرسانه :

(قال الراوى) وبات الجيشان يتحارسان وأوقدا النيران فكانت بنو بكر وباقى قبائل العرب قد باتت فى شدة وتعب وأيقن الأمير مرة أنه سيغلب ويقهر من سيف الزير الأسد الجسور ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح تبادرت العساكر إلى ميدان الحرب والكفاح واصطفت الفرق إلى صفوف وترتبت المئات والألوف وتأهب المهلهل للحرب واستعد للطعن والضرب فركب ظهر الحصان وتقدم إلى معركة الطعان وتبعه امرؤ القيس بن أبان وقواد الأبطال والفرسان بقلوب أقوى من الصوان وكذلك ركب الأمير مرة وبقية الفرق واعتقلوا بالسلاح والدروق فعند ذلك دقت الطبول وصهلت الخيول وارتفعت الرايات على رؤوس الأمراء والسادات من جميع الجوانب والجهات وهجم كل فريق على فريق وتقاتلوا بالسيف والمزارق والتقت الأمم بالأمم وقام الحرب على ساق وقدم وما مضى ساعه من النهار حتى اشتد لهيب النار وطلع للقتال الغبار وانذل الجبان وحار وارتفع الصياح وعلا وارتجت أقطار الفلا ولبست الارض من الدما حللا وعظم بينهم البلا والويل وعاد النهار كسواد الليل وقال المهلهل فى ذلك اليوم وما قصر وفعل أفعالا تبقى وتذكر فإنه اقتحم صفوف الاعادى كأنه ليث الوادى وحال الميامن والمياسر وطعن فيها طعنا يذهل النواظر ويحير العقول والبصائر وهو يقول بالثارات كليب مهجة فؤادى ومن كان سندى واعتمادى ولما طال المطال أشفى غليله من قتال الأبطال قال :

ذهبت الصلح أو تردوا كليبا   أو نبيد الحيين نكرا وذهلا

ذهبت الصلح أو تردوا كليبا   أو تعم السيوف شيبان قتلا

ذهبت الصلح أو تردوا كليبا   أو أزهق الرجال قهراً وذلا

فتعجبت الفرسان من شعره ومقاله واندهلت من هول قتاله وكذلك اندهشت باقى أبطاله وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل إلى أن ولى النهار

وارتحل ودخل الليل وأقبل فعند ذلك رجع الامير المهلهل وباقى الجيش والجحفل وجميع أكابر عشيرته وأهله وإخوته يتحادثون فيما يجرى ويكون فاستقر الرأى على سرعة الإنجاز والجهاد فى الحرب والبراز قبل أن يطول الامر وتفوتهم الغلبة والنصر ثم إنهم أكلوا الطعام وباتوا فى الخيام ولما طلع النهار وأشرقت الشمس والانوار تأهبوا للحرب والكفاح فتقلدوا بالسيوف والرماح ودقوا الطبول وركبوا ظهور الخيل وتقدمت الفرسان والابطال إلى ساحة القتال وكذلك فعل الامير مرة والأمير جساس ومن يلوذ بهم من عظماء الناس والتقت العساكر بالعساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وكان الأمير المهلهل فى أول الجحفل فصاح وحمل والتقى الفرسان بقلب أقوى من الجبل وهو يهدر كالأسد ويضرب فيهم بالسيف المهند ويقول يالثارات كليب ليث الصدام وزينة الليالى وكان كلما قتل فارساً يعيد هذا الكلام فقصدته الابطال من اليمين والشمال وهو يضرب فيه الضرب الصائب ولا يبالى بالعواقب حتى مزق الصفوف بحملاته وفرق الألوف بتواتر طعناته وما انتصف النهار حتى قتل مائة بطل كرار وكان من الابطال والفرسان المذكورة كذلك فعل امرؤ القيس ابن أياد وباقى القواد والشجعان وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار بارتحال فارتدوا عن الحرب والصدام ورجعوا إلى المضارب والخيام وكان قد قتل من عرب جساس فى ذلك النهار عشرون الف بطل كرار ومن عرب المهلهل نحو ثلاثة آلاف بطل ولما أصبح الصباح استعد الفرسان للحرب والكفاح فركبوا ظهور الخيول وتقاتلوا بالسيوف والنصول وهجم المهلهل على الفرسان الفحول كأنه الغول وهو ينشد ويقول :

هلموا اليوم نلتقى يا آل مرة	ولو كانوا ثلاثين الف كرة
وسيف الهند يقطع فى يمينى	فــلا تخشى المهالك والمضرة
فاحمــوا يابنى عمى لظهرى	فتحظوا بالأمــانى والمسرة
فكل النــاس ترهب من قتالى	إذا ما جلت فى الميدان كرة
سوف أبيد جساماً وقومه	وأسقيهم فى حربى كأس مرة

ثم إنه لما حمل على الكتائب والمواكب وأظهر بأفعاله الغرائب والعجائب وقتل كل شجاع غالب :

(قال الراوى) وما زال القوم فى حرب وصدام وقتل وحصام مدة ثلاثة شهور حتى أشفى الزير غليله من بنى بكر وقتل منهم كل سيد جليل وفارس نبيل

وكان عدد من قتلهم فى تلك الوقائع نحو مائة الف مقاتل ما بين فارس وراجل وقتل من جماعة الزير نحو عشرة آلاف بطل فلما رأى جساس ماحل بقومه من النوائب خاف من العواقب وعلم أنه إذا ثبتوا أمامهم يهلكون هلاك الابد ولا يبقى منهم أحد فولى وطلب لنفسه الهرب مع باقى طوائف العرب وغنم الزير غنائم كثيرة وأموال غزيرة ثم رجع بمن معه من الفرسان إلى الاطلال وهو فى أحسن حال وأنعم بال ونزل فى قصر أخيه وصارت ملوك العرب تكاتبه وتهادنه وكان يترقب الاوقات للحرب والغزاة فشكرته اليمامة على مافعل وقالت لاعدمتك أيها البطل فانك أخذت الثار وطفيت لهيب النار ورجعت بالعز والانتصار فشكرها على هذا الكلام وقال وحق رب الانام لا يشفى فؤادى ولا يطيب لذيذ رقادى حتى أقتل الأمير جساس واجعله مثلا بين الناس وهذا الأمر سيتم عن قريب بإذن الله السميع المجيب .

(قال الراوى) بينما هو يترقب الأخبار ويقتفى الآثار إذ دخل عليه العبد نعمان الذى تقدم ذكره قبل الآن وكان من أصحاب الزير وأصدقائه المشاهير فسلم عليه وتمثل بين يديه فنهض له على الاقدام وأكرمه غاية الإكرام وبعد أن جلس قال للزير اعلم يا أمير قد جيت الآن من أبعد مكان أولا لأهنيك بالانتصار وأعزيك على فقد ذلك البطل الكرار وثانياً لأعلمك بأنه ظهر لى فى المنام من مدة عشر أيام رؤيا عجيبة تشير إلى أحوال غريبة وهو أنه قام عليك سبعة سنين منحوسة وأيامها عليك معكوسة فإياك من هذا النهار أن تحارب أحد من ملوك الاقطار بل تجنب وقوع الفتن وتبقى مرتاح فى الوطن فمتى تمت هذه الليالى رافقك السعد والإقبال بإذن الإله المتعال فإن حاربت انتصرت وإن قاتلت ظفرت وقهرت. فشكره الزير على ذلك الاهتمام وغمره بجزيل الانعام ومن ذلك اليوم أخذ لنفسه الحذر وتجنب مخالطة البشر وكان يصرف أيامه بشرب المدام وأكل الطعام واشتهر الخبر فى القبائل أن الزير أوقف الحرب مدة سبع سنين كوامل :

(قال الراوى) وكانت بنى مرة قد هامت فى الاقطار خوفاً من الهلاك والدمار وندم جساس غاية الندم بقتل كليب الأسد الغشمشم وما زال هو وقومه فى خوف وحذر عن عواقب الأمور إلى أن بلغهم خبر توقيف القتال فزالت عن قلوبهم الهموم والاهوال ورجعوا إلى الاطلال .

هذا ما كان من بنى مرة وجساس وأما الزير الفارس الدعاس فإنه استمر على تلك الحال وهو فى أرغد عيش وأنعم بال إلى أن كانت نهاية السنة السادسة فركب إلى الصيد والقنص فى جماعة من فرسانه وابتعد عن الديار نحو ثلاثة أيام ومن الاتفاق الغريب فإن الأمير جساس رأى حلماً فى بعض الليالى وهو أنه رقد فى قرب صيوانه حوض من الماء فبينما كانت قومه تشرب منه فإذا بذئب كاسر قد جاء إلى الحوض وهو بصفة جمل كبير وله ثمانية أنياب فشرب من الماء ثم ضرب الحوض بنابه فانشق من جانبه وتهور ذلك الماء حتى كادت قومه أن تهلك من شدة العطش والظمأ ثم رأى النسوان والأولاد بثياب السود والدم جارى مثل المجارى والجمال تنهش بعضها البعض ودماها تسيل على وجه الأرض فاستيقظ جساس خائفاً من هول ذلك المنام فاستدعى إليه إخوته وبنى الأعمام وقص عليهم ما رأى وأبصر فاستعظموا ذلك الأمر وقالوا لا يوجد من يقدر على تفسيره سوى المنجمين فإن حسن عندك إرسل استدعى عمار الرياحى فإنه يعسره لك على يقين فأرسل إليه وحضر وقص عليه ذلك الخبر فضرب ورسم الأشكال فبانت له حقائق الأحوال ثم التفت على جساس ومن حضر هناك من الناس وقال لهم هذا المنام من عجائب الايام وهو يدل على شر عظيم وخطب جسيم سوف يحل عليكم من سالم بوقت قصير وقد أظهر لى أيضاً بأن أخ المهلهل عنده مهر أدهم إسمه عندم قوى العصب والحيل عديم المثال فى الخيل فسعد الزير مقرون بهذا الحصان وبه ينتصر فى الحرب والطعن فإذا ملكتم هذا الجواد نلتم المراد وأسرتموه فى القتال والطراد .

فلما سمع جساس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام وقال لهم قد بلغنا بأن الزير غائب عن القبيلة وما فى الحى غير النساء والحصان موجود فى الديار وهذه إزالة الغصة ثم إنه أرسل رجلا ليكشف الخبر ثم رجع وأخبره بصحة الكلام فعند ذلك ركب جساس فى ثلاثة آلاف بطل وطرق باب المهلهل على عجل وأحاط بساحة الدار من اليمين واليسار فاستعظم بنات كليب ذلك الأمر ولم يعلمن ذلك السبب فطلت اليمامة برأسها من الشباك وقالت له وهو راكب على ظهر الفرس ما هو الداعى ياخالى بقدومك إلى الحى بالابطال والحى خالى من الرجال فقال لها جئنا بطلب المهر الادهم المدعو بعندم فقالت له أهلا وسهلا بك مهما طلبت فلا نمسكه عنك غير أنه لا تخفاف بأن المهر خاصة بعمى عدية فلا يمكننا أن نسمح فيه ثم أشارت تقول

بكم قد حلت البركة علينا وزال الشر عنا مع نكال
فمهما تطلبوا منى تشوفوا خيولا مع بغال وجمال
ولكن مهر عمى غير ممكن أسلمه فإن المهر غالى

(قال الراوى) فلما سمع جساس شعرها ونظامها أجابها يقول على كلامها بهذين البيتين :

تعالى اسمعوا قولى اليمامة تقول المهر لا أعطيه غالى
فإنى قاصد أخذه سريعا ولا أخشى عداه ولا أبالى

(قال الراوى) فلما فرغ جساس من شعره نزل عن ظهر الفرس ودخل إلى الاصطبل فوجد المهر فوضع عليه العدة وركبه وقال لليمامة قد أخذت الحصان وغداً أطاردكم على ظهره ثم سار وهو فرحان حتى وصل إلى الاوطان فقال لاخيه قد أتيت بالحصان ومرادى أجربه فى الميدان فانتخبوا ثلاثين رأسا من الخيل الصوافن فاركبوهم واكمنوا فى عشر مكامن وأنا آمر عليكم أسرع من الريح فاتبعونى فى البر الفسيح فإن سبق هذا الجواد بلغنا المراد فى الحرب والطراد فأجابوه إلى ما طلب وأراد وركبوا الخيول الجياد وركب سلطان أخو جساس القميرة ووقف فى آخر كمين وركب جساس ذلك الحصان وأطلق له العنان فسار فى تلك القفار أسرع من الطير إذا طار ولما اقترب من الخيل تبعته فسبقها جميعا ماعدا القميرة ففرح جساس ثم نزل عن ظهره وأمر العبيد أن يربطوه بقرب صيوانه ووكل به مائة عبد وقال لقد أقبل علينا السعد وسوف نقتل ذلك الوغد .

(قال الراوى) هذا ما كان من جساس وأما الزير فإنه عند رجوعه من الصيد استفقد ذلك الحصان فلم يجده مع الخيل فصعد إلى القصر وسأل اليمامة وأشار يقول له

يقول الزير أبو ليلى المهلهل بدمع قد جرى منى بداد
يمامة رحت أنا للصيد قانص وقومى وإخوتى ثم الجياد
لنا عشرون يوماً فى فلاوة ودرنا من بلاد إلى بلاد
وصدنا طيورا ووحوشا كثيرة ودرنا رجعنا للبلاد
وجيت لمهر أخى فما لقيته شرد عقلى وعنى عاد غاد
فأين المهر قوطر يا يمامة عدم صبرى وفارقنى رشادى
أمات المهر أم أحد أخذه من الاوباش والناس الاعادى

فلما سمعت اليمامة شعر عمها أجابته تقول :

تقول اليمامة ياعم إسمع ... ألا يا عم جاوزوا الأعادى
أبى جساس أخذه غصب عنى ... أنا حرمة ومالى من جلادى
فقلت تأخذه ياخال تندم ... يجوكم غدا على خيل جيادى
فقال غدا ألافيكم بعزمى ... وقد زادت غمومى بازدياد
له يا عم ثلاث أيام غايبه ... وقد زاد حزنى بازدياد
فقم يا عم شد الخيل واركب ... بعسكر كأنه رف الجراد
وميل على بنى مرة بسيفك ... واحصد جمعهم مثل الحصاد
يا عمى عدية اليوم يومك ... يا عزى وفخرى واعتمادى
وهاتوا رأس جساس سريعا ... اجبر خاطرى وأشفى فؤادى

فلما فرغت من شعرها ونظامها أجابها الزير يقول :

يقول الزير قهار الأعادى ... أنا السبع الجسور فى كل وادى
غدا لا بد أجد فى لقاهم ... واحصد جمعهم يوم الجهاد
وآخذ ثارنا من آل بكر ... وأطفى النار من طى الفؤادى
وآخذ مهرنا المدعو بعندم ... ويظهر ذكرنا بين العبادى
فمن يذهب يقول لأولاد مرة ... أتاكم اليوم دباح الاعادى
أتاكم مهلهل مع آل تغلب ... أسود الحرب فى يوم الطراد
ألا يا آل مرة سوف أشفى ... بقتل سادتكم فؤادى
ولا يخفاكم يا آل مرة ... بقتل كليب صرتم لى أعادى

فلما فرغ الزير من شعره دخل وجلس فى الديوان وجمع إخوته والامراء والاعيان وأخبرهم بواقعة الحال وقال لهم ما رأيكم فى استجلاب الحصان فقالوا له الرأى رأيك ونحن طوع يديك قال متى كان الصباح تركبوا فى ثلاثة آلاف فارس وتكمنوا فى وادى الهجين وأنا أكمن فى وادى المطلا وكان هذا المكان يبعد عن بنى مرة مسافة ميل ثم قال لاخيه عدية وأنت قم الآن وغير ثيابك وزيك والبس ثياب ممزقة حتى لا أحد يعود يعرفك واذهب لحى بنى مرة وتجلس بقرب صيوان جساس فإذا سألوك عن بلادك ومهنتك فقل لهم إنى من بلاد الصعيد ومهنتى هى سياسة الخيل وأنا قد بلغنى أن جساس من محبته فى الحصان كل يوم يسامه إلى سايس فإذا قال لك هل تريد أن تخدم عندى وتسوس هذا المهر فقل نعم حتى إذا تمكنت

منه تُركب ظهره وتلحقنا إلى ذلك المكان فتى صرت هناك لا تخف ولا تحسب لهم حساب ولو كانوا بعدد التراب فإني سأبيد جمعهم بعون رب العالمين وآخذ ثارها من جساس اللعين فاستصوب رأيه ولبس ثياب ممزقة وتعمم بعمامة والتحف بحرام عتيق وغير زيه وتنكر وسار يقطع البر الاقفر إلى أن دخل حى بنو مرة فقصد صيوان جساس وكان قد أقبل الليل فرقد بين أطناب الخيام ولما كان الصباح جلس الامير جساس واجتمعت حوله أكابر الناس ثم وضعوا موائد الطعام وأخذوا يتذاكرون بالكلام فبينما هم كذلك إذ حانت من جساس التفاتة فرأى عدية وهو على تلك الصفات فشفق عليه وقال لبعض غلمانه أطعم هذا الفقير واسأله عن حاجته فأخذ له الغلام طبق الطعام وسأله عن بلاده فقال إنى من بلاد الصعيد ومهنتى سياسة خيل الاماجيد فقد جار على الزمان فأتيت من الاوطان قاصداً أهل الفضل والإحسان إلى أن وصلت إلى هذا المكان فطيب الغلام خاطره وأعلم مولاه بحاله فقال جساس إذا كان بلاد الصعيد فهو أدرى بسياسة الخيل من العبيد فدعوه يسوس لنا عندم المهر الجديد وأنا أعطيه كل ما يريد وإن وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلى وجعلته رئيس اصطبلى فلما قال له الغلام هذا الكلام دعا لجساس بطول العمر ثم إنه تحزم وتقدم إلى المهر ففك قيود رجليه وقبله بين عينيه وقال هذا يومك ياجوادى فقد بلغت الآن مرادى وكان المهر لما رأى صاحبه عرفه فمال إليه وآلفه فتعجب جساس وباقى الناس لان الجواد كان لا يألف أحد من العبيد الموكلين عليه وكان كل من قاربه ضربه بيده ورجله فقال جساس وحق رب الانام إن هذا السائس يستحق الإكرام والإنعام وكان عدية لما تمكن من المهر ركب على ظهره ثم لكزه برجليه وصاح فسار مثل هبوب الرياح وجد فى قطع البطاح كأنه طير بلا جناح فلما رأى جساس تلك الحال تغيرت منه الاحوال وعلم إنها حيلة قد تمت عليه ولطم على خديه ووجهه وصاح على الابطال والفرسان وقال دونكم وهذا الشيطان فقد احتال علينا وأخذعنا بالمكر والاحتيال حتى نال طلبه وبلغ قصده وأربه فعند ذلك ركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتبعوه فى تلك السهول وهم يصيحون وواه ويجدون فى قطع الفلاة إلى أن وصل إلى ذلك الوادى الغدير فوجد أخاه الزير وهو كامن هناك فى جماعة من الابطال صناديد الرجال فأعلمه بواقعة الحال فقال خذ حذرك الآن فقد أتتك الفرسان من كل جانب ومكان

فتبسم المهلهل وقال سوف ترى ما أفعل ثم إنه نزل عن ظهر حصانه وأعطاه لأخيه وأخذ المهلهل الأدهم ووضع عليه عدة جواده ثم ركب وتلثم وإذا بالخيل والمواكب قد حاطت به من كل جانب فصاح عليهم وحمل بقلب أقوى من الجبل ومال عليهم بالحسام كأنه ليث الآجام فطير الرؤوس عن الأجسام وفتك فيهم فتك الذئاب بالأغنام وفى أقل من ساعة أدركته بقية الجماعه الذين كانوا مكمنين فى وادى الهجين فانصبوا عليهم كالشواهين من الشمال واليمين وكان قد وصل الخبر إلى جساس فأخذه القلق والوسواس فركب بباقى الأبطال ومن يعتمد عليهم من الرجال وقصد ذلك المكان وقاتل قتال الشجعان والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالابطال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وكثر القيل والقال وتزلزلت الأرض من هول القتال وكانت واقعة عظيمه لم يسمع بمثلها فى الأيام القديمة انهزم فيها جساس أقبح هزيمة وغنم المهلهل غنيمة جسيمة لها قدر وقيمة ورجع إلى الديار بالعز والانتصار فالتقته النساء بالدفوف والمزامير ثم طاع إلى النصر وهو منشرح الصدر فشكرته بنات أخيه على مافعل وقلن لله درك من بطل فقد أخذت الثار وطفيت من القلوب لهيب النار فالله يحفظك ويبقيك وينصرك على حسادك وأعاديك فشكرهن على ذلك الكلام وبعد أن خلع ثيابه جلس للطعام وشرب المدام ثم خلت أمه فقبلته بين عينيه وهنأته بذلك الانتصار وطلبت منه أن يرفع عن بنى مرة السيف البتار فاستقبلها بالوقار والاعتبار وقال لها والله إنى لا أصالحهم يا أماه حتى يعود كليب إلى قيد الحياة ثم تذكر تلك الوقعة وما جرى له فى تلك الأيام مع القوم فأنشد يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل	وقلب الزير قاسى ما يلينا
وإن لان الحديد مالان قلبى	وقلبى من حديد القاسينا
تريدى يا أمية أن أصالح	وما تدرى بما فعلوه فينا
فسبع سنين قد مرت على	أبيت الليل مغموماً حزينا
أبات الليل أنعى فى كليب	أقول لعله يأتى إلينا
كان كليب فى رؤوس الملا	تغشاه ذئاب الجائعينا
أتتنى بناته تبكى وتنعى	تقول اليوم صرنا حائرينا
فقد غابت عيون أخيك عنا	وخلانا يتامى قاصرينا

سللت السيف فى وجه اليمامة ... وقلت لها أمام الحاضرينا
وأنت اليوم يا عمى مكانه ... وليس لنا بغيرك معينا
وقلت لها ما تقــول ... أنك عمك حماة الخائفينا
كمثل السبع فى صدمات قوم ... أقلبهم شمالا مع يمينا
فدوسى يا يمامة فوق رأسى ... على شاشى إذا كنا نسينا
فإن دارت رحالنا مع رحاهم ... طحناهم وكنا الطاحنينا
أقاتلهم عــلى ظهر المهر ... أبو حجلان مطلوق اليمينا
فشدى يا يمامة المهر شدى ... وأكسى ظهره السرج المتينا
وهاتى حربتى وطاين وأزود ... وحطيها على عدد متينا
ونادى على عدية وكل قومى ... صناديد الحرب الحاميينا
ونادى إخوتى يأتوا سريعاً ... لنلقى جيش بكر أجمعينا
فنادتهم أتوا كأسود غاب ... وقالوا قد أتينا يا أخينا
ويأتوا يحرسون الليل كله ... وقضوا الليل كله وساهرينا

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره الجميع على مقاله وباتوا تلك الليلة فى سرور وانشراح ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح أمر الزير قومه بالاستعداد للحرب فركب ظهر الجواد وتبعته الفرسان والقواد وقصدوا بنى مرة بقلوب قوية وهمم عليه فالتقاهم جساس مع إخوته وأهله واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وابتلت بنى مرة بالبلاء والويل وكان الزير يحصد فيهم بالنهار والليل واستمر القتال بين الفريقين مدة سنتين حتى فقد من بنى مره فى هذا الحرب الأخير نحو إثنى عشر الف أمير عدا السادات والأكابر والجيوش والعساكر وكان الزير يأمر قومه بقطع الرؤوس ووضعها فى المخازن لأنه كان قد أقسم بالله العظيم أن سيملى البيوت من جماجمهم وباقى الاماكن فلما طال المطال واشتدت على بكر الاهوال اجتمعت أكابر الناس مع الامير جساس وأخذوا يتفاوضون كيف يتخلصون لأن الزير لا يقبل منهم فدى وجميع وسائطهم التى استعملوها فى توقيف الحرب راحت سدى فقال سلطان لأخيه جساس إعلم يا أخى بأن الزير فى كل صباح يمر على قبر أخيه فيحييه بالسلام ويقول له قد قتلت فى ثارك فلان وفلان فهل اكتفيت أم لا فلا يجيبه أحد فالرأى

عندى أن تنتخبوا رجلا وتضعوه داخل القبة بحيث لايراه أحد فإذا مر الزير على القبر حسب عادته وسأل أخاه ذلك السؤال فيجيبه الرجل بصوت خفيف من قلب ضعيف لقد اكتفيت يا أخى فاغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم وإياك أذية البشر فإن ذلك مما يجلب على الضرر فإذا سمع هذا المقال فلربما ينطلى عليه الحال فيكف عن الحرب والقتال فنستريح من القيل والقال فاستصوب جساس وباقى الاعيان رأى الامير سلطان .

(قال الراوى) وكان فى القبيلة رجل فقير الحال عديم الاشغال فاستدعاه جساس إليه وقص ذلك الكلام عليه وقال له إذا بلغتنا الارب وأجبتنا إلى الطلب أعطيتك مهما تريد المال والعبيد فقال الاجرة مليحة ولكن الطريقة خطرة قبيحة فأخذ جساس يحسه بالكلام ويرغبه فى هذا بالشعر والنظام :

على ما قال جساس بنى مرة ... ألا يا فارغ الأشغال اسمع
لى عندك حاجة صغيرة ... فتقضيها سريعاً ثم ترجع
فإن الزير لا شانا جميعا ... وفرق جمعنا فى كل موضع
ولا يقبل رجاء ولا عطايا ... وعن الافعال ما كان يرجع
بثار كليب صرنا شرايد ... اعدم فى الوغى كل ليث أروع
يمر فى قبره فى كل صباح ... ويزعق بصوت للأكباد يصدع
يقول ألا نعمت أخى صباحا ... أيكفى ما قتلت تريد أرجع
فاذهب واختبى فى القبر حالا ... إذا صاح المهلهل أنت تسمع
إذا سألك أحارب أو أصالح ... أجيبه أنت محفوظ ارجع
إن رضيت منهم نلت ثارى ... وأنت بقتلهم لا عدت تطمع
لعله يظن إنك أنت أخيه ... فيصفح عن مآتمنا ويرجع

(قال الراوى) فلما فرغ جساس من هذا المقال قال له عديم الاشغال على الرأس والعين ولما كان الليل حفروا سرادباً وصلوه إلى القبر وأدخلوا ذلك الرجل فيه ، ولما كان الصباح ركب الزير ظهر الحصان وتبعه الابطال والفرسان ومر على قبر أخيه حسب عادته ونادى بصوت عال نعمت صباحاً يا أخى كليب فقد قتلت فى ثارك نهار أمس خمسة آلاف نفس أيكفى ماقتلت منهم أو ارجع افنيهم عن بكرة أبيهم

فأجابه ذلك الرجل من القبر بصوت خفيف وأنت أنعمت صباحا ياأخى الحنون
ياساقى الضد كاس المنون كف الحرب فقد اكتفيت وإن قاتلتهم بعد
اليوم تكون قد تعديت وبغيت فتزيدنى ضرراً وغماً وكدرا فإن نفسى قد بلغت
مناها ونالت مشتهاها فكثرت خيراتك وزادت الدنيا مسراتك .

(قال الراوى) فلما سمع الزير هذا الكلام زالت أتراحه وزاد فرحه وانشراحه
وقال سبحان الرحمن الرحيم الذى يحيى العظام وهى رميم أنت ياأخى بخير ونحن
بعدك نقاسى الضنك والضير ثم نزل عن ظهر الحصان ودخل إلى القبر وهو فرحان
وقال إذا كنت بخير ياأبا اليمامة فما هى هذه السكنة والإقامة بعد العز والكرامة
فقم إلى عند بناتك فانهن فى حزن وكدر ثم تقدم إليه وتأمل فيه بالنظر فرآه إنه
ذلك الرجل المعهود فغاب المهلهل عن الوجود فجذبه من لحيته وأخرجه من
السرداب وقال له أصدقنى بالخطاب فمن أنت ومن تكون قبل أن تشرب كاس
المنون فأعلمه بواقعة الحال وحقيقة الأعمال فسل السيف ليقتله وقد أغاظه فعله
فقال أنا بحيرة كليب أخيك فلا كان من يعاديك وقد غرنى جهلى من قلة عقلى
حتى جرى ماجرى يافخر الورى .

فلما سمع الزير كلامه أبدى ابتسامة فصفح عنه وأعطاه جواداً من أطايب خيل
العرب والف دينار من الذهب فدعا له بطول العمر وخرج من القبر وهو يقول :
والله إن الأمير كليب يحمى اليوم الخائف فى مماته كما كان يحميه فى أيام حياته ثم
رجع إلى القبيلة وهو يتعجب من تلك الحيلة وفى الغد ركب فرقة من الأبطال وقصدوا
بنو مرة واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وما زالوا فى قتال وصدام مدة
عشرة أيام فانكسرت بنو مرة أشد انكسار وقتل الزير مقتلة عظيمة المقدار وكان
يأتى برأس سادات الجماعة فيضعها على قبر كليب مدة ساعة ثم يدفنها تحت الثرى
ويبنى فوقها القصور والقرى وكان كلما أقبل من الحرب فى المساء تلتقيه اليمامة مع
جماعة من النساء فتقول ياسيد الناس هل أتيت برأس خالنا جساس حتى تخلع السواد
ويطيب الفؤاد فيقول كونى براحة بال فسوف تبلغين الآمال بإذن الإله المتعال .

هذا ما كان من المهلهل وأما جساس فإنه قد استقبل ولما ضاق به الحال اجتمع
أهله وعشيرته وعقدوا بينهم ديواناً فاستقر رأيهم على أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة
والسواد ويلتجأوا ابالملك الرعينى ابن أخت التبع حسان فركب فى ثانى الأيام
[illegible] أكابر عشيرته وأخذ [illegible] جليلة تقدمة لهم [illegible] حريم الملك الرعينى

وبقى أخوه شاويش فى الحى وكان هذا الرجل يحب الزير من أيام صباه فعند رحيل جساس حضر شاويش إلى عند الزير وأعلمه بما جرى وكان من مسير إخوانه إلى عند ملك الحبشة والسودان فأعطاه الزير الامان وقال له إنى ما عدت أحاربكم من الان حتى تحضر إخواتك إلى الأوطان بالأبطال والفرسان وتوقف الزير من ذلك اليوم عن محاربة القوم وصار يصرف أوقاته بالصيد والقنص هذا ما كان من المهلهل وأما جساس فإنه قد جرى فى قطع القفار حتى وصل إلى بلاد الحبشة وتلك الديار ودخل على الملك الرعينى ووقع عليه بعد ما أعلمه بحالتهم الحاضرة وطلب منه النجدة والمساعدة على حرب الزير وذكر له أيضا بأن كليب قتل خاله تبع حسان وقتله هو وبقتله قام أخوه الزير يحاربهم حتى كاد أن يفنيهم فلما سمع الرعينى هذا الكلام قال لقد بلغت اليوم منكم المرام ولا بد من ذبحكم بحد الحسام لأنكم من قوم لئام قتلتم خالى وأتيتم تستجيرون بى ثم أمر بقبضهم وكانت الجليلة واقفة على باب الصيوان وهى مثل الطاووس لابسة أفخر الملبوس كأنها العروس فلما شاهدت ما جرى على قومها خافت من العواقب فشقت المواكب وتمثلت أمام الرعينى فقبلت أياديه ودعت له بطول العمر فلما رآها الرعينى تعجب من فرط حسنها فمال قلبه إليها ووقع فى شرك هواها فقال لها من تكونين يا مهجة الفؤاد وبغية المراد فقالت له أخت القوم الذين أمرت بقبضهم بدون ذنب ثم أشارت تقول :

ما قالت الجليلة بنت مرة	أيا أبو فهد اصحى دير بالك
وانظر يا سياج البيض فينا	وانظر الذى وقفوا قبالك
أنا لقيتك يا ملك الوادى	يا من بالملا شاعت فعالك
ملوك الأرض كنا يا مسمى	فأنت نظيرنا ونحن مثالك
فالذى جرى كله مقدر	أيا فخر الورى من قتل خالك
قتل خالك كليب فى حسامه	وقام أخى الذى واقف قبالك
قتل لكليب خالك بسيفه	كرامة خاطرك واصغى بالك
ظهر لكليب أخ إسمه المهلهل	حرمنا النوم زاد الله مالك
إقتل منا أماجيد كثيرة	أتينا واقفين على ديارك
فهذا اليوم يومك يا مسمى	فدق الطبل واركب فى رجالك
وسر معنا إلى الزير المهلهل	فاقتله ودوسه فى نعالك

وتحكم سائر العربان يامالك   على أموالهم تبقى حلالك
ولا تشمت العدا ياأمير فينا   أتينا لك وصرنا من عيالك
وأنت صميدع شهم كريم   جميع الخلق تفزع من خيالك

(قال الراوى) فلما فرغت الجليلة من نظامها وفهم فحوى قصدها ومرامها ثارت فى رأسه الحمية وقال قدفهمت قولك ياصبية ثم أشار يقول وعمر السامعين يطول :

قال الرعينى أبو فهد قال   ألا يا جليلة اسمعى المقال
وأنتم افهموا قولى يا ملوك   أولاد مرة ترون الهم زايل
أتيتم تلتجوا فى الجميع   وقعتم على وقع العيال
من جور الزير يا أهل الكرم   دهاكم ضناكم رماكم بحال
فوحياة رأسى ورحمة أبى   من خلق الأرض وأرسا الجبال
لا ركب عليه بكل الفحول   وأجرد عساكر شبه الرمال
واقتل عداكم بجاه السيوف   وأنا أدع الزير فى سوء حال
جليلة طيبى أنت وأبشرى   أنا فدا أخوك بحد النصال
أيا أخى غطاس انهض الآن   واجمع الفوارس والأبطال
نادى على الجيش أن يركبوا   يلبسوا الزرد والنصول الصقال
ودقوا الطبول وشدوا الخيول   وهشوا الفحول شبه الهذال
فدعنا نسير نزيل عسير   عن أولاد مرة هذا النكال

(قال الراوى) فلما فرغ الرعينى من كلامه نهض أخو غطاس الوزير وجمعوا الأبطال والفرسان والعساكر السودان ونادى المنادى أن السفر يكون بعد ثلاثة أيام ولما تجهزت العساكر للمسير لحرب الزير كان عندهم ستمائة الف بطل ففرح جساس ومن معه من الناس لما رأوا تلك السهول قد امتلأت بالخيول وفى اليوم الثالث دقت الطبول ولمعت النصول وسارت العساكر كالبحور الزواخر فى أوائلهم الملك الرعينى وأكابر دولته وجساس وباقى عشيرته وما زالوا يقطعون البرارى والآكام حتى وصلوا إلى بلاد الشام فأرسل جساس يعلم قومه بقدوم هذا العسكر وأن يهيئوا لهم الأطعمة والذخر فلما سمعوا هذا الخبر فرحوا فرحا عظيما وهيئوا لهم ما يحتاجون إليه من الطعام والمدام وخرجت النساء والرجال للقائهم فلما

وصلوا إلى الديار نزلوا فى المضارب والخيام وقد تباشر قوم جساس بالنجاح والظفر وبلوغ الآمال .

(قال الراوى) كل هذا يجرى والزير ليس عنده خبر بشىء من هذه الامور بل كان مواظبا على السرور وشرب الخمور فبينما هو كذلك إذ دخل عليه أخوه عدى وقال له أنت جالس فى صفاك ولا تدرى بما دهاك من أعداك وأشار بقصد يقول :

لقد قال الفتى المدعو عديا — ودمع العين فوق الخد ساجم
أراك اليوم فى زهو ولهو — تنبه يا اخى إن كنت نائم
فقم وانظر على ما سوف يجرى — من الاعداء يا ابن الاكارم
أتونا قوم مرة بالرعينى — ملك جبار بالاحكام ظالم
لقد ذهبوا إليه يا مهلهل — فجاء بست كرات عوالم
هم من كل قوم ليث أروع — وهو من بينهم مثل الصقر حائم
فبدى الزير حالا ثم قال له — تخاف من العدى وأخوك سالم
أنا وحدى ألاقيهم بعزمى — أنا المعاس فى يوم للزحايم
وانى سوف أقتلك بالرعينى — واقطع رأسه والله عالم
وأفنى جيشه مع جيش مرة — أنا المقدام ما بين المعالم

(قال الراوى) فلما فرغ الوزير من نظامه وفهمت قومه فحوى كلامه تعجبوا من هذا المقال وشكروه على تلك الفعال وأخذوا يستعدون للحرب والقتال . وأما الزير فإنه صبر إلى الليل فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه أحد من البشر وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون الامراء وأرباب المناصب والرتب طمعا فى الفضة والذهب ثم ركب الحصان وتقلد بالحسام من تحت الثياب وأخذ معه بعض الغلمان وسار إلى قبيلة بنى مرة ولم يعلم به إنسان ولما اقترب من الحلة نزل عن ظهر الجواد وسلمه إلى الغلام وقصد المضارب والخيام حتى وصل إلى صيوان الرعينى فوجده جالس وحده فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه فلما رآه الرعينى فى ذلك المنظر خاف وانذعر وسأله عن مهنته فقال إنى شاعر أطوف على الامراء والاكابر فأحصل منهم على الانعام ومزيد الإكرام وقد سمعت أنك فى بنى مرة فأتيت قاصدك من مدينة البصرة إلى أن تشرفت بطلعتك وتمثلت أمام حضرتك

(قال الراوى) وكان للرعينى زوجة تدعى بدور كانت خلف الستار فسمعت مادار بينهما من الايراد فأرسلت جاريتها تقول للملك أن يأمر الشاعر بالإنشاد فقال الرعينى انشد يا شاعر فأنشد يقول :

قال الاديب الذى طالب إحسانك ... جرحى بوسط الحشا والقلب بزار
يابو فهد يا رعينى استمع ماأقول ... يا من قلوب العدا بالروع هزار
قد كنت قبلا فى خير وفى نعم ... مستور ما بين أهلى ما أنا معتاز
فصرت شاعر على الاجواد ... أطوى الاراضى ماشى على عكاز
قالوا فسر للرعينى مقصد الشعر ... فذاك جواد يعطى كل معتاز
فجئت طالباً إحسانك وإكرامك ... يامن حويت المكارم بعطا المعتاز

(تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس)

الجزء السادس

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه أمر الملك الخزندار أن يعطيه الف دينار فعند ذلك سل الزير سيفه الابتر أسرع من لمح البصر وضرب الرعينى على عاتقه خرج من علائقه ثم مال على الطواشية والخدام بضرب الحسام وبعد ذلك هجم على الخيام كسبع الآجام فقتل الرجال ومدد الأبطال فوقع فى السودان الضجيج والصياح والعويل والنواح فخرجت الابطال من المضارب وركبوا ظهور الجنائب فتقلدوا بالسيوف وهجموا على بنى مرة صفوف صفوف وهم لم يعلموا سبب ذلك الويل من شدة سواد الليل غير أنهم ظنوا بنى مرة قد خدعوهم حتى أتوا معهم إلى بلادهم فقتلوا ملكهم وغدروهم فلما رأى جساس ماحل بقومه من السودان استعظم ذلك الشأن فركب جواده وتبعته أجناده واضطر أن يدافع عن نفسه ويحامى عن أبناء نفسه فقاتل تلك الليلة حتى استقتل وفعلت رجاله مثلما فعل وكانت ليلة مهولة وحادثة غير مأمولة كثر فيها القتل والجراح إلى وقت الصباح وكان المهلهل لما بلغ القصد والأمل بذلك العمل أرسل عبده فى الحال إلى الاطلاع فى طلب الفرسان والأبطال فحضروا عند طلوع النهار وأحاطوا بالاعادى من اليمين واليسار وحكموا فيهم ضرب السيف البتار واستمر الحرب والصدام بين القوم ثلاثة أيام حتى أبلاهم المهلهل بالويل والدمار وقتل منهم كل بطل مغوار وأسد كرار وكان من جملة المقتولين الامير غطاس قائد جيش السودان فلما رأت الجيش ماحل به من الهوان ولت الادبار وأوسعت فى جوانب القفار وكذلك انهزم جساس ومن تبعه من الناس وتفرقوا بالفلاة وهم يقصدون النجاة ورجع الزير مع قومه التغالبين غانمين ظافرين فدخل القصر بالعز والنصر وصحبته أكابر القواد الذين عليهم الاعتماد وهم يثنون على المهلهل ويقولون لاعدمنا طلعتك أيها البطل فبسيفك نلنا المراد وقهرنا الاعادى والحساد فلا زالت أيامك فى سعود وعدوك مقهور ومكمود ثم انهم أكلوا الطعام وشربوا المدام وباتوا تلك الليلة فى سرور وأفراح على ذلك الانتصار .

وأما الامير جساس فإنه بات فى قلق ووسواس وندم على مافعل وقطع من سلامته الأمل ولا سيما لما بلغته الأخبار بأن ذلك الاختلاف والانكسار الذى جرى عليهم فى الليل والنهار كان بحيلة المهلهل الاسد الكرار فزاد همه وعظم حزنه وغمه فكاتب قبائل العرب يطلب منها المساعدة على قتال بنى تغلب فانضمت عدة قبائل برسم المساعدة وصاروا جميعهم يداً واحدة وكذلك انضم مع الوزير جملة قبائل عشاير حتى لم يبق فى بلاد العرب قبيلة إلا وانضمت مع بنى تغلب .

(قال الراوى) من غريب الاتفاق المستحق التسطير فى الأوراق بأن الامير مهلهل خرج ذات يوم فى عشرة آلاف بطل ومعه الامير كتيف وكان من أشراف تغلب وفرسانها الغطاريف وتبطن فى جوانب القفر ليجس أحوال بنى بكر فمر بقبيلة من قبائل العرب يقال لهم بنو تميم وهم من فرع تغلب وكانت هذه القبيلة ذات خيرات جزيلة واجتمع المهلهل بفرسانها وسيدها الامير عمرو وقال لهم اركبوا معنا يا بنى تميم لقتال بنى بكر فأبوا وقالوا عن فرد لسان لا نحارب من لم يحاربنا من العربان فقال المهلهل أما شملتكم الحرب لحد الآن فقالوا لا يافارس الميدان فقال فوحق الإله الخالق ما كنت أظن إنها شملت كل من فى المغارب والمشارق ومادام الامر كذلك ياوجوه العرب تنحوا عن منازلكم خوفا من حلول العرب واقصدوا غير هذه الديار مرادنا أن نقاتلهم تحت ستور الاعتكار فإن حاربناهم لا تأمنون على أنفسكم من شرهم وأذاهم لانكم فرع من قبيلة بنى تغلب فينتقمون منكم لهذا السبب فقالوا ماعلينا من بأس فإنهم يحاربون من يتعرض لهم من الناس فاغتاظ المهلهل من هذا الكلام وكان عليه أشد من ضرب الحسام فتركهم وسار من الاثر بمن معه من العسكر وجد فى قطع القفار فالتقى بقوم من بنى بكر فى ذلك الجوار فكبسهم تحت ظلام الليل وأبلاهم بالذل والويل فسلب أموالهم وقتل رجالهم وأخذ رؤوس سادتهم العظام ورجع فى الظلام وطرح الرؤوس بين خيام القوم المعتزلين من بنى تميم المذكورين كانوا راقدين ثم تركهم وارتحل وسار على عجل فلما استيقظت بنو تميم من المنام ورأت الرؤس بين أطناب الخيام فأيقنوا أنها مكيدة من المهلهل فزاد بهم الخوف والوجل وعلموا أنه لابد أن العدو يتهمهم بذلك العمل فنهضوا وارتحلوا من أطلالهم عواشيهم وأموالهم وانضموا إلى قبيلة بنى تغلب والتجأوا بالمهلهل فارس العجم والعرب فلم يبق قبيلة من قبائل العربان فى ذلك الزمان إلا شملتها الحرب والهوان

(قال الراوى) ولما عظم الأمر على جساس وضاقت به الأنفاس قصد العابد نعمان الذى تقدم ذكره قبل الآن فوقع عليه وشكا حاله إليه وبكى بين يديه وطلب منه أن يسير بالعجل ويقصد الأمير مهلهل ويطلب منه كف الحرب والطعان مدة من الزمان لحينما ترتاح النفوس والقلوب من هول تلك الحرب التى أهلكت الرجال ورملت النساء ويتمت الأطفال فلما سمع قوله رق له فسار إلى عند المهلهل فى الحال وطلب منه أن يكف القتال ولو برهه قصيرة ومدة يسيرة وذلك لراحة القبيلتين وخير الفريقين فاجابة إلى ذلك المدام لانه كان يحبه دون باقى الآنام وأمر بتوقيف الحرب عن القوم من ذلك اليوم واشتغل المهلهل فى تلك الايام بالملاهى وشرب المدام وأكل الطعام وسماع الأصوات والانغام ومغازلة النساء فى الصباح والمساء وكان جساس يترقب على المهلهل الفرص ليقتله ويزيل ما بقلبه من الغصص فبلغه فى بعض الأيام أن الزير طريح الفراش فى الخيام من كثرة شرب المدام وأن إخوته قد خرجوا للصيد ولا يرجعون إلا بعد ثلاثة أيام فجمع إخوته وأعلمهم بذلك الخبر واتفق رأيهم أنه بعد غروب الشمس يركب أخوهم سلطان فى جماعة من الفرسان ويكبس سالم الزير على حين غفلة ولما كان الليل ركب سلطان فى ثلاثة آلاف بطل وقصد حى المهلهل ولما صار هناك هجم عليه وهو راقد فى الخيمة سكران فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليه وأوثقوه كتافا . ثم نزلوا عليه بالسيوف إلى أن أثخنوه بالجراح وأتلفوه حتى صار عبرة لمن اعتبر وكان دمه يسيل كالمطر فزادت أفراحهم وزالت أتراحهم وقالوا لقد بلغنا الارب ورفعنا الحرب عن العرب .

ثم إنهم وضعوه فى جلد جاموس وأخذوه إلى عند أخته ضباع وقالوا لها لقد أتيناك بقاتل ولدك تخذيه واشفى منه غليل كبدك فياما قتل ويتم ورمل فما هان عليها ذلك الأمر لكنها أظهرت لهم السرور والفرح وقالت إن جزاء الغدار الحرق بالنار ثم تركوها وساروا وأما هى فقد احتارت فى أمرها وزادت أحزانها عليها وإنه وإن قتل ولدها فإنه شيد للقبيلة ذكراً لا يبوى على مدى الدهور .

فبينما هى فى بحر الافتكار وإذا به قد فاق من غشونه وصحى من سكرته وقال

وهو على آخر رمق سبحان الحى الدائم ثم صاح يطلب عبده شهوان وهو يظن أنه فى ذلك المكان فقالت له ضباع قد انتقموا منك أعداك فاصحى فقد دنت الموت والهلاك فلما رأى ذاته عند أخته وهو على تلك الحال أنشد وقال:

قال الزير أبو ليلى المهلهل ونار الحزن توقد فى حشاه
فكان كليب ملك البرايا أتى جساس غدره بالفلاه
جلست فى مكانه أخذ لثاره وكنت أنعيه صباحا مع مساه
فقال الشيخ كف الحرب عاجل ولا تقتل لسيف ولا قناه
جلست بخيمتى والدن جنى وعندى العبد ما عندى سواه
وقومى كلهم للصيد راحوا فعرفوا القوم مع باقى العداه
أتونى والمقدر كان كائن وحلى كل مما أن تراه
أتوا بى لعندك يا أخت حتى تنالى الثار يا غاية مناه
كلينى يا ضباع أو اشفينى أنا أخوك إذا احتبك القناه
فانتى تشبهى اللبوات حقا وانى مشبه سبع الفلاه
فالقينى بصندوق مزفت وارمينى ببحر فى مياه
أيا أسما افعلى أنت بأصلك ربيعة بيننا ما غباه

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الوجود وصار فى صفة المفقود وكانت ضباع لما سمعت من أخيها هذا الكلام صار الضيا فى عينيها ظلام ثم إنها جاءت بصندوق كبير فوضعت فيه سالم الزير وزفته وطلته بالقار وكان عندها عبدان أمرتهما أن يحملا ذلك الصندوق ويلقياه فى البحر فحملاه وسارت هى معهما تحت جنح الظلام إلى أن وصلا إلى شاطىء البحر فطرحاه هناك فى البحر ثم بكت ضباع عندما غاب عنها أخيها ورجعت تنوح من فؤاد مجروح تقول ياليتنى كنت فداك ولا كان من يسلاك فقد أحرقت قلبى بفراقك يا جميل المحامل وفخر الاواخر ثم أنشدت تقول بهذه الابيات:

تقول ضباع من قلب حزين أيا عينى فريدى فى بكاها
كوانى البين فى أول زمانى رمانى الدهر فى أعظم بلاها
أيا دمعى فزيدى فى سخا كى على محزونة فقدت أخاها
لقد كان ملوك البرايا ومن أعلا ملوك الارض جاها
كليب جساس الذى قتله طعنه طعنة برمحه فى قفاها

ترك دمه على الأرض فاير ... بحربة مسممة من السم سقاها
وقام الزير كى يأخذ بثاره ... فقاتل آل مرة ثم هفاها
لقد قتله سلطان بغدر ... إثنى عشر الف حملة قناها
فقال خذوه إلى أخته الحزينة ... لتأخذ ثار ولدها مع أخيها
تخطيه فى صندوق مقفل ... ومن بنى مرة ما يعلم حداها
وقلت له روح يا جمل المحامل ... أيا عود بيتى انحناها
وقلت قتلته يا فخر قومك ... أيا حطاماً للجائع عشاها
أبا يوماً أخذه الموج عاجل ... وموج البحر يلطم فى مداها
فقلت له روح أيا سبع بغاب ... بيوم الحرب ما تعطى قفاها
وهذا صار فى عصر الجليلة ... إله العرش يعدمها صباها
فسر يا ريح واخبر اليمامة ... لتصبح ثم تمسى فى بكاها

ثم رجعت إلى الحى وصبرت حتى رجعت إخوتها وبنى عمها من الصيد فأعلمتهم بتلك القضية وما حل بالزير وقالت والله إنكم بعد المهلهل تتعبون مع جساس فتأسفوا جميعهم عليه وبكوا من فؤاد موجع ثم أن ضباع كتمت ما فعلت بأخيها وشاع الخبر إنها أحرقته بالنار وأخذت الثار ولما شاع الخبر وانتشر بين الناس فرحت بنو مرة وجساس وأما إخوة الزير فإنهم شقوا ثيابهم من فرط أحزانهم وأخذوا يعددوه ويندبوه بالاشعار ويذكرون ماله من محاسن الآثار وكان أكثرهم حزناً أخوه عدى الذى يقول فيه :

أيا ويلى فدمع العين هلا ... على الخدين من دمعى صبابة
على فقد الفتى مهلهل ... أنور العين تدرى ما أصابه
غدونا كلنا للصيد عنه ... وهو جالس كأنه سبع غابه
وعند رجوعنا لم نلتقيه ... فأحرق وسط مهجتنا غيابه
فمن يوم أخيه كليب ولى ... فلا يسرح ولا يلقى صحابه
وما فارق محله طول عمره ... ولا نعرف له مدة غيابه
مهلهل راح من أولاد مرة ... وسهم البين ذر لنا غرابه
وبعده كيف عاد يصير فينا ... لأن جساس ما نحمل عذابه
ترى بعده سيمحقنا جميعاً ... يشتتنا ولا يخشى عتابه

أيا إخوتى ماذا نسـوى وأين نروح من هذه العصابه
تعالى أخى يا درعان قوللى فقلبى والحشا يا أمير ذابه
أيا سراف يا ناصر تعالوا أيا هزوز يا منية شبابه
ويا حنبل ويا باقى الامارة تعالوا واسمعوا منى الخطابه
فقول الزير ولى وراح منا قتيل ويندفن تحت الترابه
والمهلهل ناصب الخيمة بعيد فى وسط بستان له يا حبيب
وحده يسكر بليله والنهار رحت أنا إليه من بعد المغيب
فى ثلاثة آلاف فارس غانمين كل فارس مثل سبع وديب
هجمت عليه يا أخى بالعجل ووقعنا عليه بضرب عجيب
ضربه جساس بالغ بالسيوف حتى صار دمه جارى صبيب
ضربه حتى قطع منه النفس وانطرح بلا مسعف ولا حبيب
ثم أخـذه لأخته ضباع لتأخذ بثار ولدها الحبيب
أخذته حرقتـه بنار وألقته على جمر نار اللهيب
هذا الذى فعلت بعدك يا همام يا حما البيض فى يوم التكبيب

(قال الراوى) فلما انتهى سلطان من كلامه شكره جساس على اهتمامه وقال بارك الله فيك يا همام فإن فعلك هذا يبقى مدى الأيام ثم ساروا إلى الحى وهم فى أفراح وسرور وانشراح ولما وصلوا إلى الصيوان جلس جساس فى الديوان واجتمعت حوله الأبطال والفرسان ثم أمر بدق الطبول ونفخ الزمور وعمل وليمة عظيمة لها قدر وقيمة فاجتمع فيها خلق كثير من كل أمير وسيد خطير ورقصت النساء والبنات ودارت بينهم الأفراح والمسرات وانشرحت خواطر السادات وكان عندهم ذلك النهار من أعظم الاعياد الكبار .

(قال الراوى) وكان لما بلغ بنو قيس حقيقة الخبر أن المهلهل مات واندثر غابوا عن الوجود وأيقنوا بالموت الأحمر فزادت بليتهم وعظمت مصيبتهم فنهم من ارتحلوا من الديار وقصدوا الامير جساس وطلبوا منه الامان دون باقى الناس فأعطاهم الامان وجعلهم من جملة الخدام والغلمان ولم يبق عند إخوة الزير الاشراف إلا شرذمة يسيرة وعصبة حقيرة فقصدهم جساس بالابطال ودار بهم من اليمين والشمال فسلموا أمرهم إليه ووقعوا عليه فنهب أموالهم وأخذ نوقهم وجمالهم ثم اشترط عليهم أن لا يوقدوا ناراً فى النهار والليل ولا يركبوا على ظهور الخيل بل

يصيروا مكانهم فى الخيام فأجابوه إلى ذلك المرام خوفاً من الاندثار ونزول الدمار وبعد هذا رجع إلى الديار بالفوح والاستبشار فعظم شأنه وتأيد بالعز مكانه وسار فى مقام عظيم وحكم على السبعة أقاليم (قال الراوى) أما إخوة المهلهل فإنهم بعد هذا العمل رحلوا من أطلالهم بأولادهم وأطفالهم ونزلوا فى وادى السحاب وهم يبكى وانتحاب وذل وعذاب وصبروا على حكم رب الارباب هذا ماجرى لهؤلاء من العبر وأما الزير الاسد الغضنفر فإنه لما ألقته أخته فى البحر كما سبق الخبر فقذفته الامواج فى البحر العجاج إلى أن ساقته التقادير الإلهية إلى مدينة بيروت وكان إسمها الخيبرية وملكها يدعى حكمون ابن عزرا وكان من أجل الملوك قدراً واتفق بالامر المقدر أن ثمانية من الصيادين بينما هم يصطادون سمك نظروا ذلك الصندوق فى البحر العجاج تلعب فيه الارياح وتقذفه طوارق الامواج فقال أحدهم للآخر انظر ياصموئيل هذا صندوق يارؤبل قد ساقه إلينا إله إسرائيل ثم إنهم قصدوه فى الحال وسحبوه إلى الشاطىء بالحبال وذلك بعد تعب وتكد ما عليه من مزيد فقال رئيس الشختور لباقى الاعوان تعالوا حتى نقسمه علينا الآن قبل أن نفتحه يا إخوان فنأخذ كل واحد منا حقه قدر مايستحقه فأجابه بعض الرجال ماهو مرادك بهذا المقال فقال إن لى النصف ولكم الآخر لانى صاحب الشختور والرئيس الاكبر فقال وحق خمار العذير ما تنال منه شىء ياشبير ثم وقع بينهم الخصام وتشاتموا بالكلام فضرب أحدهم الرئيس بسكين فقتله وكان للرئيس أخ فضربه القاتل بالمقذاف فجندله وما زالوا يتقاتلون طمعاً بالمال حتى قتل منهم عدة رجال ولم يسلم سوى رجل واحد واتفق بالامر المقدر أن حكمون كان قد خرج فى تلك الساعة مع أكابر دولته للصيد والقنص فمر من ذلك المكان فوجد الصندوق والرجل والقتلى مطروحة على الارض فوقف وسأل الصياد عن السبب فأخبره بواقعة الحال فتأمل الملك فى الصندوق فتعجب من كبره وثقله وأراد أن يعرف مافيه فأمر بحمله إلى السرايا وارتد راجعاً مع باقى رجاله فلما صار هناك أمر بفتحه ففتحوه وإذا رجل طويل القامة عريض الهامة واسع المنكبين كبير القدمين مثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح وقال الملك لحواشيه ما وجدتم فيه قالوا يا ملك الزمان فيه إنسان كأنه من عفاريت السيد سليمان له عيون كعيون السباع فلما نظر الملك خاف وارتاع وقال للأتباع كم له من الزمان ياترى فى هذا المكان (قال الراوى) وكان هذا الملك حكمون طبيب ماهر إسمه شمعون فتقدم إلى الزير وهو مطروح وجس زلقومه وعرق الروح فوجده يختلج فى أعضائه فقال للملك أن الرجل فى قيد الحياة فقال له هل تقدر أن

تشفيه وأنا أعطيك ما تشتهى قال نعم يامولاى ثم نهض على الأقدام وقال بسم الله العلى العظيم فشمر عن زنوده وأخذ أسفنجة وبلها بالماء الخارج ومسح الجروح ووضع المرهم على القروح ثم جاء بعسل النحل فغلاه وفتح فمه وأسقاه وفى برهةقصيرة اجلجت أعضاءه وتحركت وفتح عيناه فنظر وتأمل فى ذلك المحفل فرأى جماعه من الرجال صفر الوجوه بسوالف طوال فاعتراه الانذهال وشكر الإله المتعال فقال له حكمون من أنت ومن تكون . ما هو إسمك ؟

فقال إسمى الموحد أنا عبد الإله العظيم رب موسى وإبراهيم

فقال ماهى قصتك وسبب وضعك فى هذا الصندوق ؟

فقال كنا أربعة سياس عند الملوك وكنت أنا المقدم على الجميع فحسدونى وضربونى ذات يوم بقصد أنهم يقتلونى فغبت عن الوجود من ألم الضرب ولم أر نفسى إلا فى هذا المكان .

فقال الملك للحكيم خذه إلى عندك وداويه بالعلاج حتى يشفى وبعد ذلك أحضره لى عندى فأخذه الحكيم إلى داره وعالجه مدة من الزمان حتى ختمت جراحه وتحسنت أحواله فأتى به إلى عند الملك ولما دخل سلم عليه وتمثل بين يديه فقال له الملك كيف أنت الآن ياموحد ؟ فقال له بحسب أنظارك الشريفة قد شفيت وحصلت على دوام العافية فلله در هذا الحكيم فإنه يستحق الانعام والاكرام فمهما أنعمت عليه فإنى سأعطيك إياه فتبسم الملك من هذا الكلام وأنعم على الحكيم ثم التفت إلى المهلهل وقال أعلمنى بحالك وكيفية أحوالك وأشار الملك يقول :

قال أبو ستير حكمون الملك	يا موحد استمع منى المقال
هات احكيلى على ما صار فيك	ماعملت وما فعلت من الفعال
حتى طعنت يا موحد بالرماح	جروحك كثيرة بسيوف صقال
يا موحد أنت اليوم مليح	قرم فارس خيل ما أنت نذل
قوللى عن ذى الجرح كيف صار	وما سببهم قول ياسبع الرجال
ثم أعلمنى على ما قد أقول	يا زكى الاصل عن عم وخال
فى بلاد أتوك الغانمين	يضربون الشور لك معهم مقال
بعد هذا قل لنا عن صنعتك	الذى تاكل منها خبزك حلال

فلما فرغ حكمون من مقاله قال له الزير اعلم أيها الملك الجليل صاحب الفضل

الجميل إن سألت عن حسبي ونسبي ووظيفة أبي فإنه كان ملكاً من ملوك العربان ثم غدر به الزمان حتى صار يسوس الخيل وأنا تبعت مهنته وهذه وظيفتي ومهنتي وأشار يقول :

قال أبو ليلى المهلهل فى قصيد ... يا ملك حكمون يا حكم الخصال
فى بلادى إن سألت عن الجلوس ... مجلسى فى الوسط فوق أعلا الجبال
وإن سألت عن الشور كل الشور لى ... ما أحد يقدر يخالف لى مقال
وإن وقع الحرب وضرب السيوف ... فالعدارى هللت فوق الجمال
والسيوف الجدب عاد لها رنين ... والقتول تلول عادت كالرمال
فذاك اليوم أنا أعز الملاح ... ما مثالى فى اليمين وفى الشمال
وإن أتانى ضيف أنا أعز الضيوف ... وأشبع للضيف من لحم الجمال
والفتى المعروف منجد يا أمير ... ابن وائل ذاك لى يا أمير خال
إن كنت تسأل يا ملك عن صنعتى ... صنعتى حاصود فى روس الرجال
أما أبى فكان ذو قدر عظيم ... مال فيه الدهر يا حكمون مال
صار سايس بعد عزه للخيول ... بالكرامة بعد عزه والدلال
وأنا قد صرت سايس بعده ... أسوس الخيـــل ما مثلى مثال
وجروحاتى هى من عض الحصان ... قد ضربنى برجله أربع نعال
قمت من كدرى ضربته فى حشاه ... راحت السكين تلعب للعزال
لأجل ذاك المهر سوى هل فعال ... وأرمونى بالدل مع كثر الخيال

فلما سمع حكمون هذا الكلام من الزير غضب عليه وقال له أنت كذاب فقد أخبرتنى قبل الآن رفاقك قتلوك واليوم تقول الحصان ضربنى فتكذب على وتحتقرنى فلو كنت من الأكارم ما جرت عليك هذه العظائم ثم صمم على قتله فتشفعت فيه أكابر دولته ووضعوه فى الحبس وبقى هناك مدة سنة كاملة وكان يسطو على المحابيس ويأكل طعامهم فضجوا منه الناس وشكوا أمرهم إلى الملك وقالوا له إذا كان هذا سايس كما يقول فاجعله يسوس الخيل لأنه يقاسمنا على طعامنا غصبا وقهرا وهذا الأمر لا يطاق فدعه يشتغل ويأكل خبزه بعرق جبينه فاستدعاه الملك إليه وقال له هل أنت ماهر يا موحد بساسة الخيل قال نعم فقال سلموه خيلنا فإذا وجدنا له معرفة فى ذلك أكرمناه (قال الراوى) وكان كثيراً ما ينفرد بنفسه ويتذكر أهله وعشيرته وما هو فيه من الإهانة والأسر ويبكى ويقول ياليت شعرى ما جرى

على أهلى من بعدى لأن الأسير كما يخفى على الحاذق البصير بمنزلة العبد الحقير ولو كان من بيت شهير وعالم نحرير فكيف من تكون جناب الأمير سالم الزير الذى قهر الأبطال والمغاوير وشاع ذكره عند الملوك المشاهير فإنه بعد ذلك العز والاحترام وعلو الجاه ورفعه المقام وقع فى أسر بنى إسرائيل فكان الموت أهون عليه من هذا القبيل ولكنه سلم أمره إلى الله وقام ينتظر نفوذ حكمه وهو يتأمل الفرج والخلاص من شرك الإقتناص وكان قد انتخب له فرساً من أطايب الأفراس كانت طويلة العنق قصيرة الرأس وأجود من القميرة فرس جساس فاعتنى بتربيتها حتى حالت فأخذها إلى شاطىء البحر وربطها هناك فخرج عليها حصان من البحر فشب عليها فراحت حامل وبعد عام ولدت مهر أدهم وكان كامل الأوصاف ملام فسماه الأخرج لخروج أباه من البحر ثم فعل معها ذلك العمل فى الثانى فولدت له مهر آخر كأنه الأبجر حصان عنتر فسماه أبو حجلان واعتنى بهما دون باقى الخيل وكان يسوسهما فى النهار والليل استمر على تلك الحال مدة أربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين .

حرب برجيس الصليبى مع اليهودى

(قال الراوى) واتفق فى تلك الأيام أن برجيس الصليبى أحد ملوك الاروام خارج مع أخيه سمعان فى ماتى الف عنان من بلاد كسروان وتلك الحدود لمحاربة حكمون اليهودى وذكر رواة الأخبار وعظماء الاعصار بأن مدينة حكمون كانت نفس مدينة بيروت كانت مزخرفة البنيان وكثيرة الحوانيت والبيوت ولما اقترب إليها برجيس بالعساكر النصرانية نصب خيامه فى الاسرفية وكتب كتاباً إلى حكمون يقول فيه من الملك برجيس بن ميخائيل إلى حكمون ملك بنو إسرائيل أما بعد فإنك قد خالفت الشروط ولم ترسل لنا الخروج المربوط وقد مضى خمسة أعوام وأنت تحاولنا بالكلام فاقتضى إننا قصدناك الآن بالابطال والفرسان كأنها مردة الجان لاتخاف طعن الرماح ولا تكل الحرب والكفاح فإن دفعت الخراج المطلوب من عشر مالك توقفنا عن حربك وقتالك وإلا وحق من أوجد الإنسان والمسيح الذى ولد بلا دنس خرجنا ديارك وطفينا نارك وقلعنا آثارك وجعلنا الولايات اليهودية تابعة للأقاليم المسيحية فاسرع فى رد الجواب قبل حلول العذاب ثم إنه ختم الكلام بهذا الشعر والنظام :

على ما قال برجيس الصليبى … كريم الوالدين أبا وجدا
شديد البأس ما بين البرايا … على السادات دوما مستجدا
أذل القوم فى سيفى ورمحى … أقد الشرش والهامات قدا
أنا قاصد لحكمون اليهودى … فأعلمه بما قد استجدا
وأخبره بفرسانى وجيشى … وما عولت أن أفعله جدا
بهم من كل قرم ليث أروع … يصعد الخليل فى الميدان صدا
يريد المال أرسله سريعا … وإن لم يمتثل أمرى فبرا
وعشر الخيل مع عشر العذارى … بنات قد زهوا وجها وقدا

(قال الراوى) أن الملك برجيس سلم الكتاب إلى قائد إسمه فرنسيس وأمر أن يسير لعند حكمون فيعطيه الكتاب ويأتيه بسرعة الجواب فامتثل القائد أمر مولاه وجد فى قطع الفلاة إلى أن دخل البلد وقصد حكمون دون أحد فلما وصل اليه سلم وأعطاه الكتاب وتمثل بين يديه وكان عند حكمون جماعة من أحبار اليهود وهم يطالعون فى التوراة والتلمود ولما فض الكتاب وقرأه وعرف حقيقة معناه احمرت عيناه وصاح على الرسول صوت مثل الغول وقال هكذا يكتب لى برجيس ياخبيث ياتعيس فلولا العار يابن الأشرار لكنت قطعت رأسك وأخذت أنفاسك فاذهب وقل لمولاك أن يستعد للحرب والعراك فإنى لا أهابه ولا أحسب حسابه فخرج فرنسيس من بين يديه وهو ينفض غبار الموت عن عينيه ثم صاح الملك حكمون على أخيه صهيون ووزيره قسمون وقال لهما استعدوا للقتال وفرقوا السلاح على العساكر والأبطال فقد أتتنا العساكر المسيحية والأبطال النصرانية وقد عسكروا فى الأشرافية فأجاباه إلى ما أمر وفى الحال جهز العساكر وفرقوا عليها السلاح والسيوف والرماح ولما بلغ الملك برجيس كلام حكمون صار مثل المجنون وعول ثانى يوم على الحرب والصدام .

(قال الراوى) وعند إشراق الصباح استعد حكمون للحرب والكفاح فخرج من البلاد بالعساكر والعدد وحوله الكهنة والأحبار وهم يتلون التوراة والاسفار أملا بالفوز والانتصار وكان الملك برجيس قد ركب فى ذلك النهار بذلك الجيش الجرار وتقدم طالبا القلاع والأسوار بقوة واقتدار وعلى رأسه البيارق والصلبان ومن حوله القسوس والرهبان وهم يتلون الزبور والإنجيل بالتفخيم والتهليل ولما

التقى العسكران تقاتل الجمعان فى ساحة الميدان والتقت الفرسان النصرانية بالابطال الاسرائيلية فى تلك البرهة وهجموا على بعضهم هجمات قوية و تضاربوا بالسيوف المشرقية وكانت الامة العيسوية قد فتكت بالعصبة العبرانية وأذاقتها فى ذلك اليوم من الأهوال أعظم بلية وقتلت مقتلة عظيمة وفيه رجع حكمون وهو يتأسف ويتلهف على ما بعسكره من الويل والتلف ودخل إلى البلد مع الجيش وأغلق الأبواب وقصد القصر وهو خارج عن دائرة الصواب ونزل برجيس خارج المدينة أو كان قد امتلك ذلك النهار ثلاثة قلاع حصينة .

(قال الراوى) وكان المهلهل قد سمع صياح القوم فسأل عن الخبر فأعلموه بواقعة الحال فتاقت نفسه إلى القتال ومصادمة الابطال فأخذ قصبة بيده وصعد إلى السور ليشاهد تلك الامور وكان ذلك المكان بقرب قصر حكمون فنظر القوم وهم يقاتلون فكان كلما نظر النصارى غلبوا أو ظفروا يقول لليهود تقدموا ولا تنكسروا وكان يهدر كالرعد القاصف أو كالريح العاصف وهو راكب على الحيط كما يركب الحصان ويضربه برجليه ويصيح على الفرسان واستمر على تلك الحال إلى أن رجع حكمون إلى البلد وهو فى غم ونكد وكان لحكمون بنت كالقمر إسمها ستير نظرت من الشباك أفعال الزير فتعجبت من أفعاله وغرائب أعماله .

فلما رجع أبوها سألته عن حالته وما جرله فى قتاله فاعلمها بواقعة الحال لانتصار النصارى فى القتال فبعد ذلك أخبرته إبنته ستير بما رأته فى ذلك اليوم من أعمال الزير وقالت إذا كانت أعماله صحيحة فانه يكسر هذا العسكر ويذيقه الموت الاسمر ثم أشارت تقول :

تقول ستير اسمع من كلامى	نظر اليوم فى عينى العجائب
نظرت اليوم من هذا الموحد	فعال قد تعيد الرأس شايب
فلما دقت الطبل النصارى	وقد هجمت عسكرها تحارب
والتقت العساكر بالعساكر	وراح السيف يعمل فى المناكب
فقد أبصرت أحوال الموحد	غرائب قد فعلها من عجائب
ركب للحيط سواه حصانه	كأنه يا أبى قاصد يحارب
ويزعق ثم يلبكز فى كعابه	إلى أن قد جرى دمه سكايب
وتهدد مثل ليث أروع	ترج الأرض منه والتكاتب
يريد الحيط يطلع فيه يغزى	وقلبه القنا والحروب طالب

إذا ولت رجالك قال باطل ... وإن ولت عداك قال طالب
بنخى الناس واحد بعد واحد ... قل روحه وهو لحيط راكب
فهذا قد نظرته اليوم حقا ... من الأول إلى وقت المغارب
فلا أدرى أهو عاقل صميدع ... ولا أدرى أهل مجنون خائب

(قال الراوى) فلما فرغت سنير من شعرها ونظامها وفهم أبوها فحوى كلامها أراد أن يستدعيه اليه فقالت له من الصواب أن يركب أخوك نهار غد ويقاتل العدا وأن تبقى فى القصر فلعله يعمل كما فعل بالأمس فتشاهد أعماله وتختبر أحواله فليس الخبر كمشاهدة النظر فاستصوب كلامها وبات تلك الليلة فى قلق وضجر ولما أصبح الصباح أمر أخاه أن يركب بالعسكر ويخرج لقتال النصارى فركب أخوه فى عسكر اليهود وانتشرت على رأسه الرايات والبنود فالتقته جموع النصارى مثل الاسود وصياح الأبطال وهمهمة الرجال واشتد بينهم القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال فلما سمع الزير التهب قلبه بنار الاشتعال فصعد على السور وهو حزين النفس وفعل كما فعل بالامس وكان كثيرا يقول يالثارات كليب من جساس المخذول وهو ينخى القوم ويقول اليوم ولا كل يوم وكان حكمون ينظر اليه مع ابنته فتعجب من فعله وهول صورته فأمرها أن تناديه ليحضر أمام دولته فنادته فالتفت اليها ولباها وقد تعجب من حسن رؤياها قالت أبى يدعوك أن تحضر إليه فنزل وصعد إلى القصر ودخل على الملك وسلم عليه وقبل الارض بين يديه فقال له حكمون إن كنت قادر على ماتقول وأنت من الفرسان الفحول فانزل وقاتل هناك هذا النهار المهول فإن لنا عليك جميل وأفضال وإن كسرت الاعداء بلغناك الآمال وأغنيناك بالمال وأطلقناك من الإسر والاعتقال.

قام الملك بأن يعطوه جواداً من أطايب الخيل ودرعاً وسيفاً فأتوا له بجواد فقال لهم هذا لايحملنى ثم أتكى عليه بيده فكسر أضلاعه فأتوا له بآخر ففعل به كذلك وما زال على تلك الحال حتى قتل عشرة خيول فتعجب الملك من قوة بأسه وشدة مراسه ثم أتوا له بعدة حرب وجلاد ففعل كذلك إلى أن أتوه بعدة حرب الملك حكمون فلبسها وكانت من أحسن العدد واعتقل بالسيف المهند وركب على ظهر حصانه الأخرج الذى كان ينتظر منه الفرج وأخذ فى يمينه الرمح الاسمر والتفت على حكمون وقال اليوم تنظر فعالى وتعاين حربى وقتالى

وتذكرني على طول الدوام أيها الملك الهمام ثم أنه لكز الحصان وقوم السنان وانطلق إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان وقد هان عليه الموت تحت أرجل الخيل عند بلوغ القصد والمأمول وكانت النصارى قد كسرت اليهود وفتكت بهم فتك الأسود فلما رأى المهلهل تلك الحالة استعد للحرب والقتال وتقدم صهيون أخو الملك حكمون وقال شدوا عزمكم وقاتلوا خصمكم ثم خاض المجال وطلب الميسرة فى الحال وقاتل الأبطال فمدد أكثرها على الرمال وتأخرت عنه الرجال ورأت النصارى تلك الفعال اعتراها الإندهال وهجموا عليه من اليمين والشمال فأبلاهم بالذل والويل وقتل جماعة من الفرسان الخيل وكان كلما كثرت عليه الكتائب وضايقته العساكر والمواكب يتذكر أخوه كليب الأسد الغالب فيهاجم هجوم السباع ولا يخاف ولا يرتاع فعند ذلك تأخرت عنه الفرسان وتوقفت عن قتاله الفرسان وكان برجيس من فرسان المعارك فلما بلغه ذلك نما غيظه وزاد وهجم بالعساكر والأجناد طالباً ساحة الميدان من حوله القسوس والرهبان وعلى رأسه الرايات والألوية فلما اقتربت من تلك الناحية وقعت عينه على صهيون أخو الملك حكمون فتقدم إليه وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلا وفى دمه جديلا فعند ذلك ضجت طوائف اليهود لما رأوا أميرهم مفقود فاستغاثوا بالتوراة والتلمود فالتقاهم برجيس كالنمرود وقتل منهم كل فارس معدود وكان المهلهل يقاتل من بعيد الفرسان الصناديد ويمددها على وجه الصعيد فلما رأى طوائف اليهود متأخرة بعد أن كانت ظافرة وهم يصيحون ويندبون على فقد صهيون فلم يعرف باطن الطوية أخذته الغيرة والحمية فقصد الملك برجيس إلى ذلك المكان وفى الطريق التقى بأخيه سمعان وهو ينخى الأبطال والفرسان فهجم عليه هجمة الأسد وضربه بالسيف المهند ألقاه على وجه الأرض يختبط بعضه ببعض. فلما قتل الأمير سمعان حمل جيش النصارى على الزير من كل مكان عند ذلك دقت النواقيس وحمل أيضاً برجيس وتبعه كل أسقف وقسيس.

ولما رأت اليهود أفعال المهلهل أيقنت ببلوغ الأمل فارتدت إلى قدام بعد ذلك الانهزام التقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقوا عن بعضهم البعض وزالت كل قبيلة فى ناحية من الأرض.

(قال الراوى) وكان الملك برجيس قد صعب عليه قتل أخيه سمعان وندم على مجيئه إلى تلك الاوطان وكذلك استعظم حكمون قتل أخيه صهيون فكانت مصيبة عظيمة على الملكين وداهية جسيمة على الفريقين ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت العساكر واصطفت وانقسمت إلى ميامن ومياسر فتقاتلوا بالرماح والخناجر والسيوف البواتر فكان الزير كالأسد الكاسر جرى الأبطال فى ذلك اليوم من الاهوال مايشيب رؤوس الاطفال واستمروا على تلك الحالوهم فى أشد قتال وخصام عشرة أيام على التمام وكان الزير قدفتكفتكا عظيما وقتل من النصارى عدداً جسيما فلمارأى الملك برجيس ذلكخاف من الوقوع فى المهالك لانه كان من الملوك الكبار أصحاب السطوة والاقتدار أمره نافذ فى جميع الاقطار فخاف من الانكسار والوقوع بيد المهلهل الجبار فجمع أركان دولته ووزراء مملكته وعقدوا بينهم ديوانا فاستقر رأيهم على المصالحة وتوقيف الحرب بعد المصادمة والمصالحة وأن يرحلوا بأمان من الأوطان ويبقوا مع حكمون كأصحاب والاخوان على طول الزمان ثم إن الملك برجيس أرسل إلى حكمون بعض وزرائه المعتبرين بعلمه بذلك ويأتيه بالخبر اليقين فسار الوزير إلى عند الملك حكمون وأعلمه بواقعة الحال ففرح حكمون وباقى الأمة العبرانية لأنهم كانوا يخافون سطوة الملوك النصرانية فأجابه إلى المطلوب وحمدالله الذى أناله من غوائل الحروب وهكذا تم الاتفاق ووقع الصلح والوفاق ورجع برجيس من تلك الآفاق بمن معه من الرفاق بعد أن رتب على الملك حكمون مالا معلوما يدفعه كل سنة إلى خزينة الملك .

(قال الراوى) وعظمت منزلة الزير عندحكمون وقال مثلك تكون الفرسان فأنت اليوم عندى كالولد وأعز من الروح فى الجسد فلولاك كنت فى حال تعيس واستولى علينا الملك برجيس وكانت الأمير ستير قد شاهدت أعمال الزير فانعطفت عليه وقد مال قلبها إليه ثم قالت لاعدمناك أيها النحرير فإنك تستحق الإكرام والخلع وكان الملك قد مال إليه كل الميل فقدمه عن جميع فرسان الخيل ورفع منزلته على الكبير والصغير ولقبه الأمير وأنعم عليه بنشان من الماس ليمتاز به على كبار الناس وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه على سفرة الطعام ولما فرغوا من الأكل وشرب المدام قال له الملك تمنى على أيها الأمير والسيد الخطير فهما

طلبت أعطيتك إياه بدون تأخير فطلب منه الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر الاخرج وأعلم حكمون بنفسه وطلب منه أن يجهز له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا ومن هناك يسير وحده إلى مرج بنى عامر محل إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله وعشيرته فلما سمع حكمون بواقعة حاله وأنه هو المهلهل زاد مقامه عنده وقال له هذه بلادى أملاكى وأموالى بين يديك فاقم عندنا طول عمرك فإننا والله لا ننسى جميلك ومعروفك قال الزير لابد لى من الذهاب لأنى لحد الآن ما أخذت ثارى ولا طفيت من العدا لهيب نارى عندذلك أهداه الحصان الاخرج وأعطاه السيف والرمح وعدة الحرب وجهز له مركبا من أحسن المراكب وأمر القبطان بمداراته وامتثال أوامره وإنه بعد أن يرجع إلى حيفا يرجع حالا ثم سار معه حكمون إلى المراكب مع أكابر دولته وقال له عند الوداع الله يبلغك آمالك فلا تقطع عنا أخبارك فسلم عليه المهلهل ودعا له بطول العمر ثم رجع حكمون إلى المدينة وسافر المركب بالتهليل وفى اليوم الرابع أشرقت السفينة إلى ميناء حيفا وألقت مرساها ونزل المهلهل إلى البلد وبقى الحصان فى المركب وأمر القبطان أن يحتفظ عليه لوقت الطلب ومن هناك تسربل بالسلاح تحت الثياب وقصد دياره فالتقى بطراف ابن ناصر وهو حافى عريان وقد كان من الأعيان ومن أصحاب الزير فاقبل إليه وسلم عليه فرد عليه الزير السلام ثم عرفه بنفسه وأخبره بما جرى عليه من الأول إلى الآخر فقال أهلا وسهلا بقدومك علينا فوالله كنا قد قطعنا الأمل من سلامتك فالحمد لله على اجتماعنا فقم بنا إلى ربعنا حتى تنظر أهلك لأنهم دائما فى ذكرك فقال الزير إنى لا أذهب إلى هناك حتى أذهب إلى حى بنى مرة وأنظر باقى قومنا الذين التجؤا إلى جساس فسر معى إلى هناك فسار ناصر معه وهو فرحان جدا فى مسيرهما حتى وصلا إلى أحياء بنى مرة فالتقيا بالأمير سالم المهيا قاصدا السيد مع جماعته ولما اقترب سالم من المهلهل .

﴿ تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع ﴾

الجزء السابع

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

ونظره حن قلبه اليه فحياه بالسلام وجعل يأمل فيه ويقول والله من يوم غاب حامينا فقد عزنا وما أبصرنا قامته إلا هذا اليوم ثم دمعت عيونه فقال الزير كيف تبكى عليه وأنت ملتجىء الى أعداء فعند ذلك عرفه ونزل عن ظهر الجواد ووقع عليه واعتنقه المهلهل وطيب خاطر جماعته وقال لهم ابقوا على ما كنتم عليه وعندما تسمعون صرير السيوف فى أعناق بنى مرة فحينئذ تفعلون ما يجب عليكم فعله فساروا فى سرور وأفراح حتى يعلم بعضهم بعضاً . أما الزير فإنه سار هو وطراف وهما متنكران حتى دخلا إلى حى جساس وقت المساء فوجد الحى فى دق طبول ونقر دفوف وأمور تدل على مسرات وأفراح فقال المهلهل فى سره ما عسى أن يكون هذا ولما اقترب من صيوان جساس وجده ممتليا من الناس وجساس جالس فى الصدر وحوله الأكابر والاعيان والمولدات تدق بالدفوف والمزامر وبعد قليل حضرت العبيد بسفر الطعام فقام جساس إلى المائدة وتقدمت بعده الأمراء وجعلت تتوارد الفرسان وتتزاحم على بعضها البعض فعند ذلك تقدم الزير مع جملة الناس وجلس بقرب جساس وأخذ يتناول من أنواع الأطعمة فلما رآه جساس أنكر أمره وقد استعظم كبر جثته وهو يأكل أكل الجمال فقال له جساس ادعو لى يا شيخ فقال انى دائما أدعو لك ولست بناسيك على طول الزمان فازداد جساس خوفاً وارتجفت أعضاه ولما انتهى من العشاء أمر جساس بإحضار الرمل وضربه فى الحال ورسم الأشكال فظهر له انكيس واحمرار وانه قادم عليه أوقات منحوسة وسيظهر رجل لقى الجد عن قريب يذيقه الأهوال وقد تأكد عنده بأن ذلك هو نفس الزير لأنه لا يوجد له عدو غيره فالتهب قلبه بناره وصاح من ملو رأسه بأستار فجاءت إليه إخوته وقالوا ما أصابك يا أمير فأنشد يقول :

قال جساس بن مرة فى بيوت ... اسمعوا يا إخوانى أهل الوفا
ضاق صدرى وامتلا قلبي هموم ... فالقلق والغم ضارب بالحشا
جمعت تحت الرمل حورته بسرعة ... حتى أرى ما هو هذا البلا
رأيت لقى الجد آت عن قريب ... صاحب البطش ما بين الملا

ورأيت الجود له بيت ضد ... والجماعة شكلهم واقع حدلا
ماعاد لى عقل لهذا الرمل قطرة ... حرت فيه اليوم يا أهل النها
لو يصح القول قلت الزير جا ... ها هو جالس بين الأمرا

فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وفهم الزير مطلوبه وعرف المقصود ووضع يده على قبضة سيفه حتى إذا قال جساس اقبضوا عليه ليفتك به ويعدمه الحياة ومن كثرة ما جرى على جساس من الغم والوسواس ترك من كان عنده من الناس ودخل على الحريم خوفا من أمر يأتى فلما رآه الزير فعل ذلك قال لابد من قتله إن لم يكن اليوم يكون غدا ثم خرج من الصيوان مع الامير طراف وسار قاصدين الاوطان حتى وصلا إلى وادى الشعاب ودخل إلى الخيمة التى فيها بنات كليب فسمعت إبنة كليب الكبيرة صوته فقالت له من أنت وما هو اسمك فلما سمع صوتها عرفها فتقدم اليها فوجدها وشقايقها بثياب الحداد فتقطع قلبه وهطلت عيناه بالدمع وقال أتقبلوا الضيف يابنات الاماجيد قالت مرحباً فأنا أول من ضاف ولكن قد جار علينا الزمان فأولنا بعد العز والجاه وصرنا فى حالة يرثى لها فاقصد ياشيخ محل الوليمة وهو المكان الذى تدق فيه الطبول فتحصل على بلوغ المأمول فقال بالله عليك ياصبية أن تحكى واقعة حالكم فقد جرحت قلبى بهذا الكلام فقالت اليمامة لقد ذكرتنا بمصابنا وعلى ما جرى لخال الزير هو وطراف وجلست هى بجانبه ثم عرفها هى وشقايقها بنفسه وإنه هو عمها صاحت بصوت عالى من ملو رأسها هذه فى الحلم أم فى اليقظة ثم وقعت عليه وشقايقها يقبلونه وقلن الحمد لله الذى أرانا وجهك بخير وعافية فوالله قد زالت أتراحنا وتجددت أفراحنا وسمع أبو شهوان عبد العزيز هذا الخبر فدخل عليه ووقع على قدميه لأنهم كانوا يظنون بأنه مات فكانت تلك الليلة عندهم من أعظم ليالى الافراح والمسرات وبعد ذلك جلسو يتحدثون فقالت اليمامة بالله ياعماه أن تعلمنا بقصتك وما جرى فى سفرتك فقص عليهم ذلك الخبر وماسمع وأبصر وختم كلامه بهذا القصيد :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... عيونى دمعها جارى بكاها
بكت دما على ما صار فينا ... ليالى السعد ما عدنا نراها
عدمنا فارس الهيجا كليب ... عقاب الحرب إن دارت رحاها
دهتنى آل مرة جنح ليل ... لتقتلنى وتشفى ما دهاها

فكنت بخيمتى ملقى طريحا ... ثلاث آلاف ذرتنى قناها
وسحبونى لعند ضباع أختى ... والقونى طريحا فى حداها
وقالوا يا ضباع خذى أخوكى ... أخذتنا روحه قوى عزاها
فألقتنى بصندوق مزقت ... وأرمتنى بوسط البحر ماها
وساقتنى مياه البحر حالا ... إلى بلد اليهود على رباها
وجابونى لحكسون اليهودى ... أجل ملك الارض جاها
فداونى وعالجنى سريعاً ... فزالت كربتى مما دهاها
بقيت أنا ثمان سنين غائب ... وزال النرعنى مع عناها
أسأل الله أن يحفظكم جميعاً ... على ما طالت الدنيا مداها

(قال الراوى) وكانت ليلة عند بنات كليب من أعظم الليالى وحضر تلك الليلة جميع أصحاب الزير ففرحوا وانشرحوا بقدومه وهنوه بالسلامة فقال لهم من الاوفق أن تكتموا أمرى لحينما أتجهز لقتال الاعادى وأحضر جوادى ثم اعلمهم بخبر الحصان وإنه أبقاه فى المركب عند القبطان لبينما يكون شاهد أهله وأقاربه ولما انتصف الليل ودعهم وسار قاصدا شاطىء البحر هذا ما كان منه وأما مرة أبو جساس فكان من عادته أن يذهب كل يوم إلى ساحل البحر ويتجسس الاخبار ويعود فى آخر النهار فاتفق أن عبدان من عبيده كانا قد نظر المركب عند قدومه إلى ميناء حيفا فأعلماه به فاستأجر قاربا وقصد ذلك المركب وعند وصوله إليه وجد ذلك الجواد المذكور فاندهش من رؤياه فسأل القبطان عنه فقال له القبطان هذا حصان الزير وقد حضر معنا من بيروت وسار نحو يومين لزيارة أهله ولم يكن القبطان يعلم ماهو جارى بين القوم من العداوة والحرب لما سمع مرة بخبر المهلهل وإنه عاد سالما غانما استعظم الامر وتعجب ولكنه كتم الخبر وقال للقبطان أتبيعنى هذا الحصان فقال كيف أبيعه وهو مودوعا على سبيل الامانة فقال لا بد من ذلك إما أن تقبض ثمنه خمسة آلاف دينار أو أخذه منك بالقوة والاقتدار لان ابنى جساس ملك هذه الديار وبيدنا زمام الاحكام ومازال يلح عليه بالكلام إلى أن امتثل وأجاب خوفا من أخذه بالقوة والاغتصاب فقبض القبطان الدراهم وسار مرة بالحصان إلى عند إبنه جساس وهو كاسب غانم وأعلمه بواقعة الحال وقدوم المهلهل إلى الاوطان ففرح جساس بالحصان لانه كان من أجود خيول الاعراب

ولكنه خاف من الغوائل وعلم أنه لا بد من تجديد الحروب بين القبائل فاجتمع بأهله وأعلمهم بالخبر وأن يكونوا على استعداد وحذر .

هذا ما كان من جساس وأما الزير الفارس الدعاس فانه عند وصوله إلى البحر سار إلى المركب فلم يجد الحصان فسأل عنه القبطان فأخبره بما جرى وكان فلما سمع منه هذا الكلام أراد أن يضرب عنقه بحد الحسام ولكنه توقف عن أذاه إكراما لخاطر مولاه ثم أمره بالرجوع إلى عند الملك حكمون ليقص عليه الخبر ويطلب منه الجواد الآخر فامتثل القبطان أوامره وأقلع من تلك الساعة حتى وصل إلى بيروت فأنزل الزير فى القارب وسار به إلى عند الملك حكمون ودخل عليه وهو فى السراية فلما رآه حكمون فرح فرحا شديدا وقال أهلا وسهلا بالصديق الحبيب وترحب به غاية الترحيب وأجلسه بجانبه وأقام بواجبه أشار يقول وعمر السامعين يطول له

قال حكمون بن عزرا فى بيوت ... تشرح الخاطر وترضى السامعين
أنورت علينا الدنيا يا همام ... يا سريع الخيل إذا طلل الكمين
يا مهلهل أنت عز المحصنات ... أنت فخر للاناس الماجدين
قصدت أهلك ثم جيت لعندنا ... هل شفت أهلك يا مهلهل سالمين
إذا كان يلزم نجدة أحكى لى ... حتى أسير بالجيش كله أجمعين
طيب قلبك يا مهلهل لا تخاف ... ثم اطلب يا ضيا عينى اليمين

فلما سمع الزير كلامه شكره وأثنى عليه وأخبره بما جرى وكان من فقد الحصان وأن السبب فى حضوره الآن أولا لأجل سؤال بخاطره الشريف وثانيا ليطلب منه المهر الثانى وختم كلامه بهذه الأبيات :

قد أتيت اليوم فى قلب حزين ... على فقد مهرى الأخرج الثمين
فإن شئت إعطى أخوه ... يا معز الجار وفخر العالمين
لا أريد مال ولا كثرة نوال ... غير أبو حجلان مطلوق اليمين
يا ملك حكمون إن مالى كثير ... كل مال السبر فى يدى خزين

فلما سمع حكمون هذا المقال تبسم وقال مهما طلبت منا لا نعزه عليك وجميع أموالنا بين يديك فوالله إننا لا ننسى جميلك ومعروفك على الزمان وإن أبو حجلان بعد رواحك من الأوطان أظهر الوحشة ونفر من جميع الناس حتى لم يقدر عليه أحد من السياس ثم طلب منه أن يبقى عندهم عدة أيام ليستريح من متاعب الاسفار فاعتذر وقال لابد من الرجوع فى هذا النهار فأعطاه حكمون الحصان

وسار به إلى المركب وعند وصولهم اليها نزل بالجواد إلى المدينة فركب وقصد أهله فاتفق فى تلك الساعة أن رجلا من قبيلة جساس أبصر الزير فعرفه وسار إلى عند جساس وأخبره بقدومه وقال له إننى خايف عليكم من سطوته شاهدته فى هذا النهار وهو مثل الأسد الكرار ثم أشار يقول :

يقول الشيخ يا أولاد مرة تعالى واسمعوا لى يا فوارس
أيا جساس يا همام إسمع أيا ملك يا أهل المجالس
فقد كنت قرب البحر سائر رأيت خرج على اليوم فارس
على أدهم اقب الضلع فارح وفوقه درع من بولاد لابس
وفى كتفه قنا اسمر مكعب بطل صنديد يوم الروع عابس
فهذا فارس البيداء مهلهل مريع الخيل للأبطال داعس

(قال الراوى) فلما فرغ ذلك من شعره و نظامه أجابه سلطان بن مرة بهذه الأبيات

يقول اليوم سلطان ابن مرة كلام الشيخ صادق يا فوارس
فإن كان أبو ليلى سيظهر يخلى دمنا مثل البواطس
ويسبى من قبائلنا عذارى وتترك أرضنا قفرا دوارس
ولا يقبل رجاه ولا غطاه ويطرحنا على الغبرا نواكس

(قال الراوى) فلما انتهى سلطان من كلامه وقع الخوف فى قلوب القوم وأخذوا يستعدون للقتال من ذلك اليوم. وأما الزير فإنه كان قد جد فى المسير حتى وصل إلى ديار والتقى بأهله وأنصاره فلما رأوه فرحوا به وأتت اليه اليمامة وشقايقها وكذلك إخوة الزير وكل من فى الحى نساء ورجال فوقعوا عليه وقبلوا يديه وانتشرت الأخبار بقدومه إلى الديار بين الكبار والصغار حتى ملأت الأقطار فأقبلت الابطال والفرسان وتواردت إليه السادات والأعيان وسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وهنوه بالسلامة فشكرهم وأثنى عليهم وترحب بهم فذبح الذبائح وأولم الولايم ووعدهم بالمكاسب والغنايم وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام أنشد عدى أخو الزير يقول :

يقول عدى أبيات فصيحة أتانا الزير والمولى عطانا
وكنا قبل ما يأتى إلينا بحال الذل فى قهر حزانا
وجساس الردى عايب علينا يريد هلاك تغلب مع أذانا
فأمرنا بأن نبقى جميعاً على طول الليالى مع نسانا

ولا نركب خيولا صافنات ولا نقل سيوفنا فى حمانا
إلينا جيت يا جمل المحامل ويا كهف العذارى والامانا
لربى الشكر ثم الحمد دايم إذا ما جئتنا نقهر عدانا
أيا سالم فانهض شد عزمك واركب فوق مطلوق العنانا
ونركب ثم نحمل فرد حملة على أولاد مرة فى لقانا
ونترك دورهم بورا وقفرا ونقتلهم ونأخذ ثار أخانا

(قال الراوى) فلما فرغ عدى من كلامه تقدمت اليمامة نحو عمها وشكرت الله تعالى على سلامته ودعت له بطول العمر فضمها إلى صدره والتفت إلى من حوله وأنشد وقال:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ألا يا بنات إن السعد جاكم
وأقبل سعدكم والشر ولى وراح الشر عنكم لأعداكم
ثمانى سنين وسط البحر غائب وبالى عندكم مما دهاكم
وفرج لقى همى وغمى وخلصنى وجيت إلى حماكم
حيث أتيت زال الشر عنكم ونلتم يا بنات منى مناكم
غداً جساس أقتله بسيفى وآخذ يا بنات بثار أباكم
وأنتم يا عدى ودريعان وباقى إخوتى تسلم لحاكم
فأتوا بالصوافن واركبوهم وهبوا جمعكم ومن معاكم
ودقوا طبلكم يا آل قيس وقيموا النار فى ساير حماكم
وخبونى بعيد عن المنازل غدا جساس يبرز للقاكم
فلاقوه على خيل ضوامر وإنى سوف أهجم من وراكم

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وزالت عنهم الاتراح وأيقنوا بالنصر والنجاح ومازال بنو قيس يجتمعون إلى الزير ويتواردون حتى صاروا فى جمع غفير وعدد كثير فاستعدوا للقتال والنزال فأطعموا الجوعان واكسوا العريان وأوقدوا النيران ورجع الحى كما كان هذا ما كان من الزير وقومه وأما بنو مرة فلما بلغهم الخبر وكيف أن بنو قيس قد التموا بعد التفريق والشتات من جميع الجهات وهم فى أفراح ومسرات اجتمعوا بجساس وقصوا عليه الخبر وقالوا له لولم يكن الزير قد ظهر لما كانوا بنو قيس اجتمعت على بعض هذه الآلام وخالفت أوامرك ومراسيمك العظام فقال لهم كفوا عن هذا المقال

ولا يخطر لكم الزير على بال فاستعدوا للحرب والقتال فعند ذلك استعدت الفرسان الفحول وركبوا ظهور الخيول وتقلدوا بالسيوف والنصول ولقد أملوا بالنجاح وبلوغ المأمول وركب جساس حصان الزير الاخرج وسار بذلك الجمع الغفير ولما اقتربوا من حى بنى قيس سمعت أبطال الزير دق طبولهم وصهيل خيولهم فهاجوا وماجوا فأمرهم الزير أن يتأهبوا للقتال ويلاقوهم إلى ساحة المجال فتبادروا فى الحال وتقدمت الفرسان والابطال وركب الزير على مهره أبو حجلان وسبقهم إلى الميدان وكمن فى بعض الروابى والتلال مع جماعة من الرجال ولما اقترب جساس من رجال بنى قيس قال لهم لقد خالفتم أوامرى وغركم الطمع وهجم عليهم بالرجال وأحاط بهم من اليمين والشمال فالتقوه بقلوب كالجبال واشتد القتال بينهم وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال

فلما رأى المهلهل تلك الاحوال لكز الحصان وتقدم إلى ساحه الميدان فشق الصفوف والكتائب ومزق المواكب وهو يهدر ويصيح من قلب فريح ابشروا يا بنى بكر يا نذل والويل فقد أتاكم المهلهل فارس الخيل فسوف ترون يا أنذال ما يحل بكم من الوبال على ما علمتونا به من سوء الفعال فقد أقسمت برب الانام الذى لا يغفل ولا ينام أنى لا أترك منكم شيخ ولا غلام ثم أنه مال وجال وضرب بالسيف العال وتبعه الفرسان والابطال من اليمين والشمال فلما سمع جساس صوت المهلهل انقطع قلبه من الخوف والوجل ولكنه ثبت فى ساحة الميدان خوفا من الهلاك والقلعان وأخذ ينخى الابطال والفرسان على القتال والثبات والهجوم على لقاء الاعادى قبل الممات فثبتوا ثبات الجبابرة وقاتلوا قتال الاسود الكاسرة لكنهم لم يقدروا يثبتوا أكثر من ثلاث ساعات حتى انصبت عليهم النكبات وبلوا ببلايا لا تطاق من سيف المهلهل فارس الآفاق فولوا الادبار وأركنوا إلى الهزيمة والفرار بعد أن قتل منهم عشرة آلاف فارس كرار وتبعهم الامير جساس وهو فى قلق ووسواس وغنموا بنو قيس منهم غنائم عظيمة ومكاسب جسيمة ورجعت إلى الديار بالعز والانتصار والبطش والاقتدار وفى مقدمتهم الامير مهلهل الجبار وهو مثل شقيقة الارجوان مما سال عليه من أدمية الفرسان ولما وصل إلى المضارب بقواد المواكب لاقته بنات أخيه وجماعته من أقاربه وأهاليه فشكروه على تلك الفعال وقالوا مثلك تكون الابطال والفرسان ثم أنه جلس فى الخيام وجلست حوله السادات العظام

وجبابره الصدام فتحادثوا فى الكلام وشكروا رب الانام على بلوغ القصد والمرام وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام التفت بعض القواد إلى المهلهل فارس الطراد وقالوا بالله عليك أن تنشدنا شيئا من أشعارك لأن قلوبنا مشتاقة على الوقوف على أخبارك وما جرى لك فى أسفارك فعند ذلك أنشد يقول وعمر السامعين يطول

يقول الزير أبو ليلى المهلهل   فكل مقـــدر لا بد يأتى
بجنح الليـل لايدروا صفـاتى   نزلت يا إخوتى وأبناء عمى
فلا نوقد النـار فى الفـلاة   فقالوا ضيفنا شرطوا علينا
وقالوا عمنـا هيهات يأتى   تكالحت اليمامة مع حمامة
أنا مردى السباع الكاسرات   فقلت لهـا لبيك جئتك
وجدت عيونها مقترحات   فجيت لعندها فى قلب صامد
جرجت بالبكا قلبى لانى   قلت يا يمامة ليش تبكى
إذا ثارت حروب الفلاة   فهمك يا يمامة ليس تبكى
إذا ما وهجت نار العداة   أنا حمى كراديس الفوارس
هرب منى وصاح أنوا العداة   وجيت أنا على جساس رامح
وطالب تاره بالمرهفات   وقال الزير جانا يا بلانا
أتاه الزير دباح العداة   فقولوا لابن مرة يأتى عندى

(وقال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه شكرته أخوته وجميع أقوامه فعند ذلك تقدم سالم المهيا اليه وقبله بين عينيه وأنشار يقول:

مهلهل جيت هذا اليوم يومك   عـلى ما قال سالم المهيا
وأضحى القطر يزهو فى قدومك   وزال النحس والتوفيق أقبل
أزلت همومنا زالت همومك   ولما جيت يا زين الفوارس
نهار وليل ما أحد يلومك   فقم اركب عليهم يا مهلهل
وافرج همنا واخلى همومك   وخذ الثار من جساس حالا

(قال الراوى) فلما فرغ سالم من شعره طابت قلوب الجميع وعادوا لما كانوا عليه من الفرح والمسرة وأما بنو مرة ابتلو بالذل والويل من حرب الزير فارس الخيل ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركب الامير مهلهل فى مائة الف بطل وطلب حزب القوم فالتقاه جساس فى ذلك اليوم وكان بمعيته مائة الف مقاتل بين فارس

وراجل فانتشب بين الفريقين القتال وعظمت بينهم الاهوال وقاتل المهلهل حتى استقل فنكس الابطال الفحول على ظهر الخيل وقتل جماعة من السادات الاعاظم الذين اشتهروا بالفضل والمكارم وشاع ذكراهم بين الاعارب والاعاجم فنهم الامير شهاب المسكنى بعقاب وغيره من السادات والانجاب استمر القتال على هذا الحال طول ذلك النهار فانكسر بنو مرة أشد انكسار ورجع المهلهل بالغزو والانتصار ولما كان الصباح ركب المهلهل والفرسان فالتقاه جساس بالرجال وتقاتلوا أشد قتال ولما تقابلت الصفوف تبادرت المئات والالوف وبرز أخو جساس بين الصفين ولعب برمحين بين الفريقين وطلب قتال المهلهل فانطبق عليه وحمل كأنه قطعة من جبل أو قلة من القلل فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالصفائح وثبت شاوش أمام الزير ثبات الابطال والمغاوير لانه كان من الابطال المشهورة والفرسان المذكورة استمر الاثنان نحو ساعة من الزمان وهم فى ضرب وطعان وكان الامير شاوش قد حتم على نفسه أمام الابطال إما أن يهلك فى ذلك النهار أو أن يظفر بخصمه ويعيش فى عز وإقبال ثم صاح على المهلهل وطعنه بالرمح قاصد قبض روحه فالتقاها المهلهل بالدوقة فراحت خائبة بعدما كانت صائبة ثم تقدم المهلهل وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الارض قتيلا وفى دمه جديلا ثم هجم على الرايات وطعن الفرسان والسادات وقتل الرجال ومدد الابطال فى ساحة المجال وفتك فيهم فتك الاسود الكاسرة وفعل أفعالا تعجز عنها صناديد الجبابرة وفعلت جميع أبطاله مثل أفعاله فقاتلوا القتال المنكر وأذاقوا الاعداء الموت الاحمر فلما رأى جساس ما حل بقومه من العذاب استعظم المصاب وخرج عن دائرة الصواب وزاد اكتئابا على اكتئاب وذلك على فقد أخيه ليث الغاب لانه كان يحبه محبة عظيمة ومودة جسيمة فبكى وانسحب وولى يطلب لنفسه الهرب وتبعه رجاله وأبطاله ورجع الزير بباقى الفرسان إلى المنازل والاوطان وهو مثل شقيقته الارجوان عما سأل عليه من أمية فالتقته اليمامة بالاعتزاز والكرامة ثم نزل فى الخيام مع السادات الكرام فأكلوا الطعام وشربوا المدام وكان فى كل يوم يركب حسب عادته لحرب القوم حتى بلغ منهم غاية المنى وأبلاهم بالذل والعنا فلما طال المطال وعظمت على بنى مرة الاهوال جمع جساس الرجال ومن يعتمد عليهم من الابطال وقال لهم ما هو قولكم فى هذا الامر العسير فقد حل بنا التدمير وهلك كل سعيد وأمير وإن طال القتال لم يبق أحد من

الرجال فقال أخوه سلطان الرأى عندى أن تأخذ أختنا الجليلة وبعض نساء القبيلة وتذهب إليه وتقع عليه وتطلب منه كف الاذى والضرر وتعطيه دية أخوه مهما أمره وتقيمه ملكا على بلاد الشام وتدفع له الجزية فى كل عام فقال جساس ومن يذهب ويقص ذلك الكلام عليه قال أنا وانت ياأخى فتبسم جساس وقال سمعت بأحد من الناس يرى الموت بين يديه فازحف إليه على رجليه فقال سلطان أنا أذهب إليه بنفسى لان بينى وبينه مودة قديمة ومحبة مستقيمة ثم إنه نهض فى الحال وتأهب للسير والترحال وأخذ معه أخته الجليلة وبعض من نساء القبيلة وقصد المهلهل حتى وصل إليه وسلم عليه وقال بالله عليك أن تصفح عنا فقد أهلكت رجالنا ولم تبق أحد منا وقد أتيتك الآن مع امرأة أخيك الجليلة وأكابر نساء القبيلة تقع على ساحة أعتابك وتطلب من جنابك وتبلغك غاية الارب من الفضة والذهب ونقيمك ملكا على هذه الديار وتكون طوعك مدى الاعصار لانك سيفنا الثقيل ورمحنا الطويل ثم أنشد هذه الابيات بحضور الامراء والسادات

قال سلطان بن مرة فى بيوت	يا مهلهل استمع منى القصيد
ليت عمرك يامهلهل الف عام	ياحماة البيض فى يوم الشديد
فاعف عنا يا سياج المحصنات	ليت عمرك كل يوم فى مزيد
نحن منك وأنت منا ياهمام	كلنا أولاد عمك يا رشيد
فاعف عنا ثم دعنا فى حماك	تحت ظلك عيشك يبقى رغيد

فلما فرغ من شعره ونظامه أجابه المهلهل

إفتهم يا ابن عمى ما أريد	إفتهم فحوى كلامى فى قصيد
ليس لى ذنب فى أى الامور	وأنا فى حقكم لست عنيد
غصب عنى يا سياج المحصنات	ليت عمرك يا ولد عمى يزيد
كل ذا جارى عليكم يا رجال	على يمامة بنت أختك الاكيد
اليمامة كل يوم تقول	خذ بثارى أيها البطل العنيد
فإن عفت أنا عنكم اعف	كل قول صادق والله شاهد
وإن أبت لا أخالف قولها	إننى عن أمرها لست أحيد

(قال الراوى) فلما انتهى الزير من شعره ونظامه قال السلطان ومن حضر معه إننى لا أكف الحرب والقتال ولا أرفع عنكم السيوف الصقال إلى يوم القيامة أو أتمنعنى اليمامة فاذهب إليها وخاطبها بما خاطبتنى به أمام هؤلاء الأعيان

قصماه أن تجيب طلبك يا سلطان فعند ذلك قصد سلطان اليمامة أخته الجليلة ومن حضر معه من نساء سادات القبيلة فدخلوا جميعا إليها وسلموا عليها وقبلت الجليلة بناتها وقالت لهن أما كفى يا بنات الأكارم والوقار فقد قتلت رجالنا وهلكت فرساننا وابطالنا وساءت أحوالنا وصارت عبرة لمن اعتبر ومثلا بين البشر فأجابتها اليمامة أنا لا أصالح حتى لا يبقى منا أحد يقدر أن يكافح إن كان عمى عجز عن قتالكم فأنا أنوب عنه والتقى بأبطالكم ثم أنها ختمت كلامها بهذا الشعر والنظام :

قالت يمامة من ضمير صادق	يا جليلة أقصرى عن عنا كم
أنت وخوالى وكل عشائرى	لاتزيدوا لفظكم ولا لغا كم
قتلتم الماجد كليب والدى	غـدرا وماله ذنب معا كم
جساس طعنه من قفاه بحربة	ودعا على الغبرا حقير حدا كم
أنا وأخـوتى بقينا بدله	نمسى ونصبح ولا ننسى بلاكم
أنا لا أصالح حتى يعيش أبويا	ونراه راكب يريد لقاكم

(قال الراوى) فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وفهمت الجليلة فحوى كلامها رجعت هى وأختها مع باقى النساء إلى الحى بدون أدنى إفادة وأخبروا الأمير جساس بواقعة الحال وما سمعوه من المقال فاعتراه الخوف والانذهال وأيقن بالهلاك والوبال فقال أخوه سلطان وكان ذا مكر واحتيال إنى سأهلك الزير أيها الأمير وأقوده إليك عند الصباح كالبعير فقال ماذا عولت نفعل وما هو العمل قال إنى أقصد الميدان فى جماعة من الأعوان وأحفر هناك ثلاث حفاير ونغطيهم بالقش حتى يخفوا عن عيون العساكر فما كان الصباح والتقى الجحفل بالجحفل فتبرز أنت إلى المهلهل وتكون أنت عارف بهم فتقوده إليهم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة فيسقط ويهلك فى هذا الشرك فنخلص من شره وتبلغ ما تتمناه فاستصوب جساس هذا الرأى واستحسنه وخرج ذلك الليل مع أخيه سلطان فى جماعة من العبيد والأعوام حتى وصلوا إلى المكان فحفروا ثلاث حفائر عميقة وغطوها بالقش ووضعوا عليها التراب حتى يخفى عن العيون ثم رجعوا إلى أماكنهم وهم مسرورين باتوا تلك الليلة على مقالى النار وهم ينظرون طلوع النهار هذا ما كان من هؤلاء وأما الزير البطل النحرير فإنه ركب فى الصباح بفرسان الكفاح قصد ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان فالتقاه جساس بالعسكر ثم انفرد

بنفسه نحو تلك الحفاير وأخذ يلاعب الجواد على عيون العساكر والقواد فرآه بعض الفرسان وهو يجول فى ذلك المكان على ظهر الحصان فاعلم المهلهل بذلك الشأن وقال له أن خصمك ظاهر للعيان وهو فى تلك الناحية من الميدان فلما رآه المهلهل قصده على عجل ليقتله ويبلغ الأمل فلما اقترب منه ابتعد جساس عنه فتبعه المهلهل على الأثر فسقط فى إحدى الحفر فارتد عليه جساس وانطبقت عليه باقى الناس بقصد أن يطعنوه ويهلكوه ويعدموه فلله در الحصان أبو حجلان فانه كان من عجائب الزمان وغرائب الأوان أخف من الغزلان وأسبق من البرق عند اللمعان فانه عندما وقع ضرب بحافرة الارض ارتفع حتى صار بين الفرسان بالميدان فرجعت الخيل عنه مدبرة فاستعظم تلك الامور المنكرة وغاب عن الوجود حتى صار فى صفة مفقود فرأى جساس ينخى أبطاله ويصيح على رجاله فتقدم نحوه بالجواد ليشفى منه غليل الفؤاد فاتفق المقدر بوقوعه فى الحفرة الثانية من تلك الحفر فوثب به الجواد وانتصب أسرع من النظر إذا وثب حتى صار على وجه الأرض فانقلبت عليه العساكر على بعضها البعض فزاد بالزير الكدر وطار من عينيه الشرر فقصد الامير جساس دون باقى الناس ليقتله ويعدمه الحواس فكبى به الجواد فى الحفرة الثالثة وكانت عليه أقبح حادثة وكان جواده قد أعياه التعب وضعف قواه وانحل منه العصب حتى لم يعد يمكنه أن يفعل كما كان يفعل وكذلك الامير مهلهل فقد انهد حيله وطاش واعتراه الخوف والارتعاش وأيقن بالهلاك والممات وآيس على نفسه من الحياة فكانت غلة عظيمة ودامية جسيمة فلما بلغ جساس الامل ونجح بذلك العمل أيقن ببلوغ الارب وصاح من شدة الطرب على باقى رجاله ومن يعتمد عليهم من أبطاله يا ويلكم أدركوه وأطمروه واقتلوه فان تخلص هذه المرة من هذه الحفرة لا تتأملوا بنجاح أو نصرة فلما سمعت الرجال منه هذا المقال قصدوا ذلك المكان من اليمين والشمال وكانت أيضاً بنو تغلب قبيلة الزير فارس العجم والعرب قد أقبلت أبطالها وفرسانها ورجالها وأنشب بينهم وبين القوم قتالا لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم وكان القتال فى ذلك اليوم بجانب تلك الحفر ولما عظمت الاهوال وتكردست جثث القتلى على الارض مثل التلال من ضرب السيوف وطعن النصال هجم جساس أمام الناس وقال للفرسان والأبطال والشجعان أدركونى فى هذا النهار واسعفونى بالتراب والأحجار واردموا هذه الحفرة فى ساعة الحال

وأنا أرد عنكم هجمات الرجال فتقدموا من عجل وبادروا بإجراء هذا العمل غير أنهم لم يبلغوا الامل لأن إخوة الزير والفرسان المشاهير هجموا عليهم من اليمين واليسار وضربوا فيهم السيف البتار فأبلوهم بالذل والدمار وكان الامير مرة بالقرب من تلك الحفرة فرآه عدى أخو الزير فتقدم إليه وقبض عليه والقاه فى تلك الحفرة بالعجل وقال خذ عمك يا مهلهل ولما صار بالقاع ضربه بالسيف فقتله ثم أخرجوا الزير من تلك الحفرة بالقوة والاقتدار فعند ذلك انشرحت من بنى تغلب القلوب وزالت عنهم الغموم والكروب وأيقنوا بالفلاح والتوفيق والنجاح وقصدوا الحرب والكفاح والتقوا أعداءهم بأسنة الرماح ومال ايضاً الزير على القوم ونادى اليوم ولا كل يوم وفى الحال اشتعلت نيران القتال وقامت الحرب على قدم وساق وارتجت جوانب الآفاق من ضرب السيوف الدقاق والرماح الرقاق وجمدت من القوم الاحداق وفعل الزير فى ذلك اليوم فعالا لا تطاق وما زالوا فى أشد قتال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت بنو مرة بالويل والحسرة والمهلهل بالنجاح والنصرة فنزل عن ظهر جواده وخلع آلة حربه وجلاده وجاءت السادات وأكلت من زاده ولما جلس فى الصيوان ونادى على عبده أبى شهوان باحضار المدام إلى الديوان فأحضره بالعجل فتناوله منه المهلهل ومن حضر فى ذلك المحفل فعند ذلك تذكر الزير ماجرى له فى ذلك اليوم المهول فأنشد يقول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... فدمع العين هطال عمانا
لقد قتلوا أخى أولاد عمى ... وقالوا مما رأوه إلا جبانا
ولا يدرون بأسى واقتدارى ... فقطعتهم ولم أخشى الزمانا
أتتنا فى كليب أولاد مرة ... أتونا داخلين على نسانا
وقالوا كف عنا يا مهلهل ... فقد حكمت سيفك فى أذانا
فاطلب ما تروم اليوم منا ... واتركنا فقد صرنا حزانا
فقلت لهم روحوا لليمامة ... رضاها اليوم أحسن من رضانا
قتلنا فى كليب الوف قوم ... فما فيهم ردى ولا جبانا
قتلنا من بنى مرة إمارة ... فلابسها ثيـاب الطيلسانا
فراحوا الكل قدوقعوا عليها ... وقالوا عمك أرسلنا عيانا
فقالت اذهبوا أولاد عمى ... فهذ القول ضحك فى لحانا

فانا لا نصالح فى كليب إلا أن نراه على الحصانا
وقد حفروا لقلعانى حفاير وغطوها وقالوا قد كفانا
فركبوا خيولهم وأتوا حداها وقالوا قد أتانا قد أتانا
وقف جساس مابين الحفاير هجمت عليه أطعنه السنانا
فولى هاربا من هول حربى ومرة قد قتلناه عيانا
فكونى يا يمامة فى انشراح وحظ دايم فى طول الزمانا
فسوف أبيد جساس بسيفى وكل سيد يبغى أذانا

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره جميع أقوامه ولما كان الصباح رجعوا على ما كانوا عليه من الحرب والكفاح ومازالوا فى قتال وصدام مدة طويلة من الأيام ولما طال المطال اتفقوا على توقيف الحرب والقتال وأخذوا هدنة شهرين لراحة الفريقين فاتفق فى بعض الأيام بينما كان الزير خارج الخيام، معه جماعة من الخدام وإذا برجل يقود مهر أدهم كامل الصفات فاستحسنه الزير غاية الاستحسان وقال لقائده ما هو أهل هذا الحصان ياحلو الشمائل إنه من الخيول الأصايل قد أتيت به من أبعد الحال لأهديه للأمير مهلهل فتعجب الزير من الإتفاق الغريب وقال لقد نلت مرادك من قريب فأنا هو مهلهل الذى أنت قاصده فأخذ منه الجواد وأمر له بألف دينار وبلغه مقاصده فدعا له بطول العمر والبقاء وعلو الشأن والارتقاء وسار من يومه إلى قومه فاعتنى الزير بذلك الحصان وفضله على جميع الخيول الجياد واتفق فى ذلك النهار إنه التقى برجل اختيار وهو راكب على دابة سوداء مثل الظلام ووراها كر ابن سبعة أيام وهو يبرطع خلفها وتارة من قدام فلما رآه الزير أعجبه وقال لذلك الشيخ اتبيع هذا الكر فقال بكم فقال ليس على الكريم شرط فأعطاه الزير مائة دينار وأخذه منه وسلمه إلى السايس فرباه مدة أربع سنوات ثم دخل الزير ذات يوم إلى الاصطبل فنظر الكر وهو متعافى فأمر السايس أن يضع عليه عدة ولجام فأخرجه وأسرجه ولجمه فركب عليه الزير وساقه ورجع إلى الوراء فرده إلى اليمين فراح شمالا واجتهد أن يمشه فما كان يمشى معه فغضب منه ولكزه برجله فى الركاب فتضايق المشوم من فعاله وضربه فضرطه ضرطة من شدة الوجع كأنها صوت مدفع فغضب الزير وتألم وضربه بالسيف فأرداه العدم ودخل إلى صيوانه فاجتمع بنوابه وأعيانه وقال لقد

جربت دنى الاصل وأكرمته فضاع فعلى معه وما قدمت هذا المثل أيها السادات الأخيار إلا لتعلموا أن الحمار يقتنى الحمار ثم أنه ركب ذلك الحصان فوجده من عجائب الزمان فزاد انشراحه فيه فأمر السايس أن يسوسه ويداويه ثم أنشد يقول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل	بلوم الشعر ما تغلى بعالى
أبا غالى رضيت الخيل تركب	تعالى واسمعى منى مقالى
جمع الخيول للحمر خوادم	شبيه الصب تخدمها الموالى
وأما الشقران طار وانصدق	بنات الريح تسبق فى المجال
وأما الخضر مركوب الامارا	فتركبها الملوك وكل والى
وأما الدهم زيدوهم عليقا	وسيبوهم لدهمات الليالى

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه شكره قومه على حسن اهتمامه ثم استعد الفريقان للقتال وجرت بينهم عدة وقائع وأهوال انتصر بها المهلهل وكسب أموالا كثيرة وقتل سادات كثيرة حتى ضعفت بنو بكر وذلت وبعد كثرتها قلت واضمحلت

(قال الراوى) فبينما هم فى حالة الذل والانكسار وإذا بغبار قد علا وثار قاصدا بلادهم وتلك الديار فشخصت إليه الأبصار ساعة من النهار إلى أن ارتفع وتمزق وبان من تحته الف فارس وكلهم بالسلاح والدرق وفى أولهم فارس بالحديد غاطس كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من ذيل جبل وعلى رأسه البيارق والرايات والسناجق فلما رآه جساس استبشروا وأيقن بالفرج بعد الشقا والكدر ولما اقترب للعيان وتأملته الفرسان وإذا به أسد الآجام الأمير سيبون ابن الامير هما وكان المذكور قد خرج فى جماعة من فرسان الصدام للغزو على بلاد الروم وذلك من عهد وقوع الزير فى البحر كما سبق الكلام فلما عرفوا وتحققوا خرجوا إليه واستقبلوه وفرحوا بقدومه إلى الديار وكان ذلك اليوم عندهم أعظم نهار فذبحوا الذبائح وطعموا الغادى والرائح وكان أفراح الخلق أبوه همام وأمه ضباع حيث لم يكن لهما غيره سوى الذى قتل الزير على بير السباع فلما نزل بصيوانه بأبطاله وفرسانه خلع عدته وغير بدلته ودقت له النوبات وقامت الأفراح والمسرات وعمل جساس وليمة عظيمة لها قدر وقيمة استدعى إليها جميع الأكابر وأمراء القبائل والعشائر وكان شيبون قد وجد السادات والاعيان فى هموم وأحزان فسأل عن ذلك الشأن فقال جساس له لا تسأل يا ابن أخى عما أصابنا ودهانا من خاله

الزير المهان فإنه لم يكتف بقتل أخيك شيبان حتى جعلنا مثلا بين العربان على طول الزمان فإنه أفنى رجالنا وأهلك أبطالنا وقد حرمنا هجوع الليل وهدمنا القوى والحيل كل هذا وهو لا يقبل منا دية ولا مال ولا فدية وقد أعلمناك بالقضية وأوقفناك على باطن الطوية فلما سمع شيبون هذا الكلام صار الضيا فى عينيه كالظلام من عظم ماقاله احمرت عينيه وشتم خاله وأوعدهم بالمساعدة والمعاضدة وبأن يكون معهم على قتال خاله يد واحدة ثم نظم هذه القصيد وأرسله لخاله على سبيل الملام والتهديد :

قال شيبون ابن همام الأمير	حامى الزينات طعان العدا
مرعب الفرسان فى يوم اللقا	ساقيا للعدى كاس الردى
ضرب سيفى يقطع السيف المتين	ثم يقدح الصخور الجددا
كل من يبغى قتالى يرتدى	ويرتمى فوق الصعيد ممددا
لم يبق لى مقارن فى المجال	حين يلقونى يولوا شردا
وانت يا خالى مهلهل يا همام	شد عزمك للقتال إلى غدا
لا تقل يا خالى ما اعلمتى	يا قليل العقل لا تتمردا
أبرز إلى فى الصباح ولاقنى	ثم أبشر يا مهلهل بالردا

(قال الراوى) فلما فرغ شيبون من شعره ومقاله ختم الكتاب وأرسله إلى خاله مع رجل من أبطاله فلما فتحه الزير وقراه وعرف فحوى معناه أجارت عيناه وغاب عن دنياه وقد شق عليه وتأسف وصفق كفا على كف وقال إنه معذور فى هذه الأمور لانه جاهل مغرور فاقتضى أن ينتصح قبل أن يفتضح فأجابه على أبياته يقول :

(تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن)

الجزء الثامن

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

قال أبو ليلى المهلهل إننى مفرج الكروبات فى يوم الزحام
يا فتى شيبون يا ابن أختى ضبا ما تهددنى فى كتابك يا علام
ثم تطلبنى إلى سوق المجال وانت قصير على ضرب الحسام
احتفظ من أن تجهل يا أمير الجهل يسقيك كاسات المدام
اطرد الشيطان إبليس اللعين وانتصح من قول خالك يا همام
لا تخالفنى واسمع ما أقول يقتلك جهلك وما تبلغ مرام
رد عما أنت فيه لا تزيد إن كنت تبغى حربى والصدام
شد عزمك غدا نتلاقى سوى من طلوع الفجر إلى وقت الظلام

فلما انتهى الزير من شعره ونظامه أرسل الكتاب إلى ابن أخته شيبون فلما فتحه وعرف ما احتوى عليه من المضمون مزقه ولم يكترث ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ودقت طبول الحرب والكفاح وركب شيبون وجساس وكذلك الزير الفارس الدعاس والتقوا بأبطالهم ورجالهم وتشددا فى قتالهم وكان شيبون قد برز إلى ساحة الميدان وتبعه الأبطال والفرسان والتقى بفرسان تغلب وفعل بهم العجب فما صدم فارسا إلا أعطبه وعن ظهر جواده أقلبه ثم صاح وحمل بقلب أقوى من جبل وطلب براز خاله المهلهل وكان الزير لما شاهد أفعال ابن أخته وما فعل بأبطاله ورفقته حمل عليه واحمرت آماق عينيه وقال له اذهب يا وجه العرب قبل أن تهلك وتعطب فقال إلى أين أذهب يا خالى وأنت غاية بغيتى وآمالى فوالله لأقتلك فى هذا اليوم وأطفى أخبارك من بين القوم لأنك طغيت وتجبرت وافتريت فاغتاظ الزير من هذا الكلام والتهديد والتقاه بقلب شديد وجرى بينهما فى القتال وقائع وأهوال تشيب الأطفال ولما طال المطال قال له الزير أمام الأبطال ارجع يا ابن أختى بأمان قبل أن يحل بك الهوان وتلحق بأخيك شيبان فارجع إلى أهلك وأمك وارسل لى أبطال قومك مع جساس عمك فلم يجبه شيبون بكلام بل كان يقاتله كسبع الآجام وكان الزير كلما حكم عليه الضرب فى الحرب يمتنع عن أذاه شفقة عليه وإكراماً لخاطر والديه ومازال يقاتله ويداريه وينصحه بالرجوع عما فيه إلى أن أقبل الظلام فعند ذلك توقف القتال ورجعت الفرسان والأبطال

عن ساحة المجال ثم التقوا فى اليوم الثانى وكان أبو نعيم برز إلى ساحة الميدان الأمير شيبون فصاح وطلب براز المهلهل فالتقاه الزير ونهاه عن قتاله فلم ينتصح بمقاله بل تقدم إليه وهجم عليه وأشار يقول متهدداً إياه أمام الفرسان والفحول

أيا ابن شيبون أين همام الأمير ... فارس الفرسان فى يوم النكير
استمع يا زير قولى وافهم ... لابد من قتالك يا وغدا حقير
ما قتالك مخلص مسى ولا ... من حسامى اليوم لو إنك تطير
ثم آخذ ثار أعمامى الجميع ... كم بطل صنديد صبرته حقير
ليس لك قلب على أحدك يحن ... وأولاد عمك ذاقوا منك النكير
كم قتلت منهم خلق كثير ... كم يتمت كل طفل صغير
سوف ترى حربى يا مهلهل ... فى لقاء الأبطال مالى نظير
قد أخبرونى يوم جئت بأنك ... يا قليل العقل تركت للحمير
ما يقتنى الحمار إلا الحمار ... ما أنا مثلك ولا عقلى صغير
هات لى سيفك ورمحك والثياب ... هات أبو حجلان كالطير يطير
حتى أقتلك من حسامى والقنا ... وتطلب الجير ومثلى من يجير
إن كنت لا تنتصح فهذا حربنا ... ويكون النصر من رب القدير

فلما سمع الزير هذا الكلام وقع عليه أشد من ضرب الحسام فأجابه يقول :

قال أبو ليلى المهلهل ثم قال ... أنت ياشيبون ما عاد لك دبير
هرجت ياشيبون مافى قولك كثير ... الجحش لا تحطل كما يحمل بعير
لو سقيت الجحش من سكر وسمن ... ولو خلطت له السنوبر بالشعير
لاعاش أصله ماينفع منه الجميل ... أكيد هو مجنون من يقتنى الحمير
وأنت ياشيبون لولم تكن حمار ... مارجعت اليوم إلى حربى نفير
فإنى قد عفوت عنك البارحة ... من أمك وأبوك نعم النصير
وأنت تعلم إننى سبع الرجال ... قتلت منكم إثنى عشر ألف أمير
هذا من غير التوابع والغريب ... تاه فيهن العدد ناس كثير
كم نصيحة نصحتك لا تنتصح ... جاهل سوف تقع فى وسط نير
لم يبق لى ذنب إن أتاك منى ضرب ... يهدى الأبدان ما عاد لك مجير
دونك الميدان يا شيبون قم ... وقوعزمك لايكون باعك قصير

(قال الراوى) فلم يلتفت شيبون إلى كلامه ولا أكترث بالتوبيخ والملام بل حمل عليه حملة أسد الغاب وأخذ معه فى الطعان والضرب فالتقاه مهلهل بالعجل بقلب أقوى من الجبل واشتد بينهما القتال وعظمت الأهوال حتى تعبت من تحتهما الخيل وارتخى منهما العزم والحيل ومالا على بعضهما كل الميل وكان الزير يطاوله ويحاوله واستمرا يقاتلان ثلاث ساعات من الزمان حتى استعظمت من قتالهما الفرسان وشخصت اليهما عيون الشجعان وكان الامير شيبون يود أن يقتل خاله ويعدمه الحياة ويفتخر بقتله على أهله وأقرباه إلى أن اغتنم الفرصة عليه فهز الرمح وطعنه بين ثديه فخلى المهلهل منها فراحت خائبة بعد ما كانت صائبة فزاد الزير غضبا وتوقد قلبه والتهب وصمم على أن يسقيه كاس العطب فجذب سيف حكمون وقال اليوم أريك يامجنون كيف الضرب يكون لأنى نصحتك فما انتصحت ولقد خسرت وما ربحت ثم تقدم اليه وهجم عليه وضربه على مفرق رأسه فشقه إلى تكة لباسه فوقع على الأرض يختبط بعضه ببعض فلما رآه المهلهل وهو قتيل يتململ ندم على ما فعل فتحسر وهطلت الدموع من عينيه فلما قتل الأمير شيبون احمرت من بنى مرة العيون وزادت عليهم الحسرات وأيقنوا بالهلاك والشتات ولكنهم أخفوا الكيد وأظهروا الصبر والجلد وقاتلوا قتال الأسود وطلبوا الرايات والبنود فالتقاهم الزير بالعساكر وضرب فيهم بالسيف البواتر وأحاط بهم إحاطة الخواتم بالخناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنائم جسيمة فلما رأى جساس ضعف حاله وقتل فرسانه فولى يطلب الهرب خوفا من العطب وتبعه فرسان وقد أبصروا أن ذلك اليوم العجيب من قتال بنى تغلب فرجع عنهم الزير وهو حزنان على فقد ابن أخته الأمير شيبون فنزل فى الصيوان مع الأمراء والأعيان لم يكن له دأب إلا البكاء والانتحاب ولما أتى وجلس وأنشد هذه الأبيات وهو من الحزن على آخر نفس

الزير أنشد شعراً من ضمايره — العز بالسيف ليس العز بالمال

شيبون أرسل نهار الحرب يطلبنى — يريد حربى وقتلى دون أبطال

نصحته عن قتالى ولم يطاوعنى — بارزته فتجندل فى الأرض بالحال

المال يبنى بيوتاً لا عماد لها — والفقر يهدم بيوت العز الغالى

دع المقادير تجرى فى أعنتها — ولا تبيتن إلا خالى البال

ما بين لحظة عين أنت راقبها — يغير الله من حال إلى حال

فكن مع الناس كالميزان [illegible] — [illegible] تقولن ذا عمى وذا خالى

عم الذى أنت مغرور بنعمه خال الذى أنت من أضراره خال
لا يقطع الرأس إلا من يركبه ولا تريد المنايا كثرة المال

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه وانطرح على فراشه من شدة حزنه على ابن أخته ولما بلغ قتل شيبون أبوه همام وأمه ضباع احترق قلبها عليه لأنه كان ابنها الوحيد بعد أخيه شيبان وكانت الفرسان قد أتت بجثته اليهما فبكيا بكاء شديداً ومزقا عليه الثياب وبعد ذلك دفنوه فى التراب وفى اليوم الثانى ركب الأمير لقتال الزير وتبعه جساس وباقى الأبطال والفرسان وبلغ المهلهل الخبر فركب فى أبطاله وفرسانه ولما التقى الفريقان وتقاتل الجمعان برز الأمير همام إلى معركة الصدام وطلب براز الزير المهلهل وكان قد غير صفاته ووضع لثاماً على وجهه حتى لا يعرفه أحد فبرز إليه وهو لا يعلم بأنه الأمير همام فاقتتلا ساعة من الزمان وكان همام قد ضرب الزير بالحسام قاصداً أن يسقيه كاس الحمام فخلى الزير منها فراحت خائبة ثم هجم عليه وطعنه بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع عن ظهر الجواد كأنه طود من الأطواد فالتفت على الزير وقال له وهو على آخر رمق آه يا مهلهل لقد قتلت ابن أختك نهار أمس واليوم تقتل صهرك همام فلما سمع الزير هذا الكلام تنغص عيشه وزاده هم وكدر وقال له يا همام قال نعم قال ما عهدتنى أنك لا تقاتلنى أبداً وأننا نكون أصحاب على طول المدى فلماذا خاطرت بنفسك وطلبت قتالى وأنت تعلم بأنك لست من رجالى فقال لقد جرى القلم بما حكم فانقضت حياتى ودنت وفاتى وهذا الأمر مقدر بأمر رب البشر وما دام الامر كذلك يا فارس المعارك فكف أذاك ودواهيك واجعلنى فدى أخيك فقال والله يعز على فقدك ولا عاد يطيب لى عيش من بعدك لكننى لا أكف الحرب والصدام حتى لا يبق من بنى بكر شيخ ولا غلام ثم أنه من بعد هذا الكلام هجم على المواكب ففرقها وطعن فى أبطالها فمزقها فتأخرت عنه الفرسان ورجعت إلى الاوطان وهى فى حالة الذل والهوان ولما بلغ ضباع قتل بعلها غابت عن عقلها وقد عظم مصابها وسارت إلى بنى تغلب ودخلت على أخيها الزير وقلبها يلتهب وقالت له بكلام الغضب هكذا تفعل يا أخبث العرب تقتل أولادى وبعلى وتحرمنى أهلى وتتركنى حزينة طول الدهر أقاسى الذل والقهر هكذا تكون الإخوان الذين يدعون الفضل والإحسان فوحق الإله القادر الفاحص القلوب والضمائر أن موتى ألذ عندى من الحياة وأفضل فانك نسيت الجميل والمعروف وقابلنى بالغدر والمتلوف بعه أبى

أخلصتك من الحريق وكشفت عنك ذلك الضيق فلما سمع الزير منها ذلك الخطاب أظهر الحزن والاكتئاب وتلقاها بالإكرام والترحاب ثم اعتذر لها بالغلط وأخذ يطيب خاطرها ويعزيها عما فرط وأمرها بأن تسكن عنده بخدمها وجواشيها فامتثلت كلامه وقامت فى بيت أخيها .

(قال الراوى) فلما عظم الأمر على جساس وبنى بكر وكثرت فيها السبى والقتل أرسلو يستنجدون أهل اليمامة فأمدوهم برجل منهم يقال له الفند بن سهل وكان من جبابرة الزمان وفرسان الأوان لا يبالى بالأهوال ولا يخاف كثرة الرجال وكان يلقى نفسه على المخاطر ويصيد الكواسر فسار إلى مساعدة القوم من ذلك الحين وقد انتخب من الشجعان سبعون فارساً مثل العقبان يقاربون فى الشجاعة والفروسية والهمة العليا وكانت أهله قد كتبت إليهم تقول قد أمددناكم بعشرة آلاف فارس من الفحول وبهم تنالوا من أعداء القصد والمأمول فلما قدموا إلى تلك الأوطان ورآهم جساس وباقى الأبطال فاعتراهم الانذهال لأنهم لم يروا أكثر من سبعين تحت راية الفند الأسد العربند فقالوا أين جماعتك الباقين فقال الفند أنا بسبعة آلاف فارس وأصحابى ثلاثة آلاف مداعس فتبسموا من هذا الكلام والتقوهم بالإكرام والاحترام فذبحوا لهم النوق والأغنام ونصبوا لهم المضارب والخيام ثم استعدوا للحرب وسمع بهم المهلهل وتزيد فى الخيل والرجال وزحف من يومه فى فرسان قومه فالتقته بنى بكر فى مكان يدعى عقبة الريحان فلما اقترب العسكران قال الحارس بن عباد وكان من الفرسان الأجواد إلى جساس قائد القواد هل تطيعنى أيها الأمير فيما أقول وأشير فقال ما بدالك فإنى لا أخاف مقالك قال إعلم أن القوم مستخفين بقتالنا وذلك لضعفنا وقلة عدد رجالنا فقاتلهم بالنساء مع الرجال فتبلغ منهم القصد والآمال فقال جساس وقد اعتراه الانذهال ما معنى هذا المقال وكيف قتال النساء مع الرجال قال إنك تحلق رؤوس الفرسان وتجمع النسوان اللواتى اتصفن بالشجاعة وقوة الجنان فتحملهن الماء بالقرب وتعطى كل منهن مطرقة من خشب وتصفهن خلف الرجال وقت الحرب والقتال فإن هذا المجال يزيد الأبطال نشاطاً فى ساحة المجال فإذا خرج منكم أحد الناس يعرفنه من حلق رأسه فتسقينه الماء فينعشه وإذا مرون بعدوكم عرفته فتقتله فاستصوب جساس هذا الرأى واستحسنه وفى عاجل الحال جمع النساء والرجال وعرض عليهم هذا الحال فأجابوا أمره بالامتثال ولم يبق يومئذ من بكر أحد إلا حلق واستعد إلا رجلا من الفرسان إسمه ربيعة بن مروان كان ذو صباً قصيراً

وفارساً خطيراً فقال ياقوم إنى زعيم قصير وإذا حلقت رأسى أسير معيرة عند الكبير والصغير فدعونى من هذا ياسيدات العرب فأنا أبلغكم الأرب وأقتل خمسة فوارس من تغلب فأجابوه إلى ما طلب .

(قال الراوى) ولما التقت العساكر بالعساكر وتضاربت السيوف والخناجر وانقلبت تغلب على بكر كليوث الآجام وألهبوهم بضرب السيوف على الهام فارتدت بنو بكر طالبة الانهزام فأشهر جساس فى يده الحسام وصاح فيهم بصوت كالرعد والغمام وقال ياويلكم إرجعوا وقاتلوا بقوة وعزيمة فإن الموت أفضل من الهزيمة فاجتمعت بنو بكر بعد الانقلاب إلى الحرب والقتال نضموا خيولهم فى كتيبة واحدة وطلبوا المكافحة والمجادلة وصاح الفند بن سهل والقى نفسه على القتال وهو ينخى الابطال ويصيح على الرجال ففرق المواكب وأظهر بقتاله العجائب .

فلما رأى المهلهل أفعاله برز إليه وطلب قتاله فالتقاه الفند بقلب كالحديد وهجم عليه هجوم الصناديد وما زال فى قتال شديد وحرب ماعليه مزيد إلى أن صار وقت الزوال فتوقفا على الحرب والقتال وافترقت العساكر عن بعضها البعض ونزلت فى جوانب تلك الأرض .

(قال الراوى) وكان ربيعة لم يحلق رأسه من دون بنى بكر لقد قاتل قتالا شديدا حتى أثقلته الجراح من من ضرب السيوف وطعن الرماح فوقع طريحا بين القتلى على وجه الفلا فمرت عليه نساء بنى بكر فوجدته ذات لمة طويلة فحسبته من بنى تغلب فضربته بالمطارق حتى أوردته موارد العطب فضربت به الامثال وتحدثت به ألسنة الرجال .

(قال الراوى) ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت الفوارس ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتقدموا إلى ساحة الميدان بالضرب والطعان وكان المهلهل فى الجحفل كأنه قلة من القلال أوقطعة فصلت من ذيل جبل فصاح وحمل على جيوش الأعداء كليث الآجام وضرب فيهم بالحسام وتبعه امرؤ القيس بن أبان وكان صنديد واشتد بين الفريقين القتال وكثر القيل والقال وتقطعت الاوصال وجرى الدم وسال وكان يوما شديد الاهوال لم يسمع بمثله فى الاجيال كثر فيه القتال والجراح وتمددت الفرسان على وجه البطاح وارتجت الأرض من قعقعة السلاح وصهيل الخيول وهول الكفاح وكان الفند قد حمل

هو اكب المهلهل وقاتل حتى استقتل وفعلت فرسانه مثلما فعل و بذل جساس فى ذلك اليوم غاية الجهد وهجم بقومه على الرايات والبنود هجوم كواسر الاسود واشتد على المهلهل القتال وأحاطت به الاعداء من اليمين والشمال وهو يقاتل ويمانع وينصح رجاله على الثبات ويدافع حتى جرح فى ثلاثة مواضع .

فلما زادت عليه الحال وازدحمت حوله الرجال تأخر عن ساحة المجال خوفا من الهلاك والوبال وانكسرت بنو تغلب فى ذلك النهار اشتد انكسار وتفرقت فى البرارى والقفار واستظهرت بنو بكر غاية الاستظهار وقتلت منها جماعة من الامراء والاعيان وصناديد الفرسان ومن جملتهم ليث الميدان وزينة الشجعان امرؤ القيس بن ابان وكان من الاعيان صيته محمود مشكور وهو غير امرؤ القيس الشاعر المشهور فبكى المهلهل عليه وكان يحبه ويميل إليه ورجعت بنو بكر إلى الديار وهى بغاية الفرح والاستبشار على ذلك الفعال .

(قال الراوى) أما المهلهل فقد زاد حنقه على بنى بكر وبات تلك الليلة على مقالى الجمر ثم جمع الفرسان والابطال وتجهز للحرب والقتال فالتقته بنو بكر مقلوب كالجبال وجرت بينهم وقائع وأهوال لم يسمع بمثلها فى سالف الاجيال واستمر الحال على هذا المنوال مدة عشرة أيام وكان المهلهل قد انتصر فى أكثر الوقائع جماعة كثيرة من فرسان المجامع ولما كثر بين الفريقين القتل واتفقوا على توقيف الحرب مدة شهرين فافترقت الفوارس عن بعضها ونزلت كل فرقة بأرضها .

(قال الراوى) ولما قتل كليب كما تقدم الكلام كانت أمه الجليلة حاملة بهذا الغلام فلما طردها الزير إلى بيت أبيها وسكنت عند جساس أخيها فولدت غلاما فسمته الهجرس ولقبوه الناس بالجرو فكانت مع أخواله بنى مرة وأولادهم وكان خاله يحسن ويشفق عليه وكان الغلام قد أحب خاله الامير جساس دون باقى الناس فلا يدعوه إلا أبا ونشأ الغلام ذا عقل وأدب وهو محبوب من جميع العرب لفصاحته وبراعته وقوته وشجاعته فكان يركب ظهور الخيل ويتعلم عليها الفروسية فى النهار والليل فبرع واشتهر وعلى شبان القبيلة افتخر فلما بلغ عمره خمسة عشرة عاما زاد شهرة وارتفع مقاما فرآه جساس فى بعض الايام وهو كأنه ليث الآجام والشر طائر من عينيه ولا يقدر أحد عليه فانذهل واندهش وخاف منه وارتعش وكان كثيرا ما يتأمل فى أمره ويخاف من سطوته وشره لأنه قتل أباه بالامس وتركه يتيما طول الدهر .

(قال الراوى) واتفق ذات يوم أن الجرو ركب فى جماعة من الشبان وأخذوا يتعاطون بالجريد فى الميدان وكان من جملة الغلمان عجيب ابن الأمير جساس وكان شديد البأس فطاعن عجيب الجرو طعنة فال عنها فراحت خائبة ثم أن الجرو تقدم نحو عجيب وطعنه بجريدة أصابته فألقته عن ظهر الجواد إلى الأرض فنهض غضباناً فشتم الجرو وأهانه بالكلام وقال أهكذا تفعل يا ابن اللئام بأبناء السادات الكرام وأشار يهدد بهذا الشعر

يقول عجيب من قلب موجع	ألا يا رفقتى حالى عجيب
ضربنى الجرو منه جريدة	فأرمانى وصيرنى كئيب
ولم يعلم بأنى خير ماجد	ولد جساس قوم مستهيب
لولا عمتى لقطعت رأسه	وأطرحه على الغبرا قليب
فهذا ولد كليب الأعادى	ولاضد الكلاب إلا القصيب
دعوه يروح عنا لا يماطل	ويذهب سرعة قبل المغيب

(قال الراوى) فلما فرغ عجيب من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه أجابه على شعره يقول

يقول الجرو اسمع يا ابن خالى	كلامه ليس يسمعه أديب
تقول اليوم تقتلنى بسيفك	وتتركنى على الغبرا قليب
إذا أبصرتنى يوماً فريداً	فقتلتنى بسيفك يا عجيب
فانزل عن جوادك يا ابن خالى	وافعل ما تريده عن قريب
وافعل ما تريده اليوم فينا	فإنى لا أخافك يا عجيب

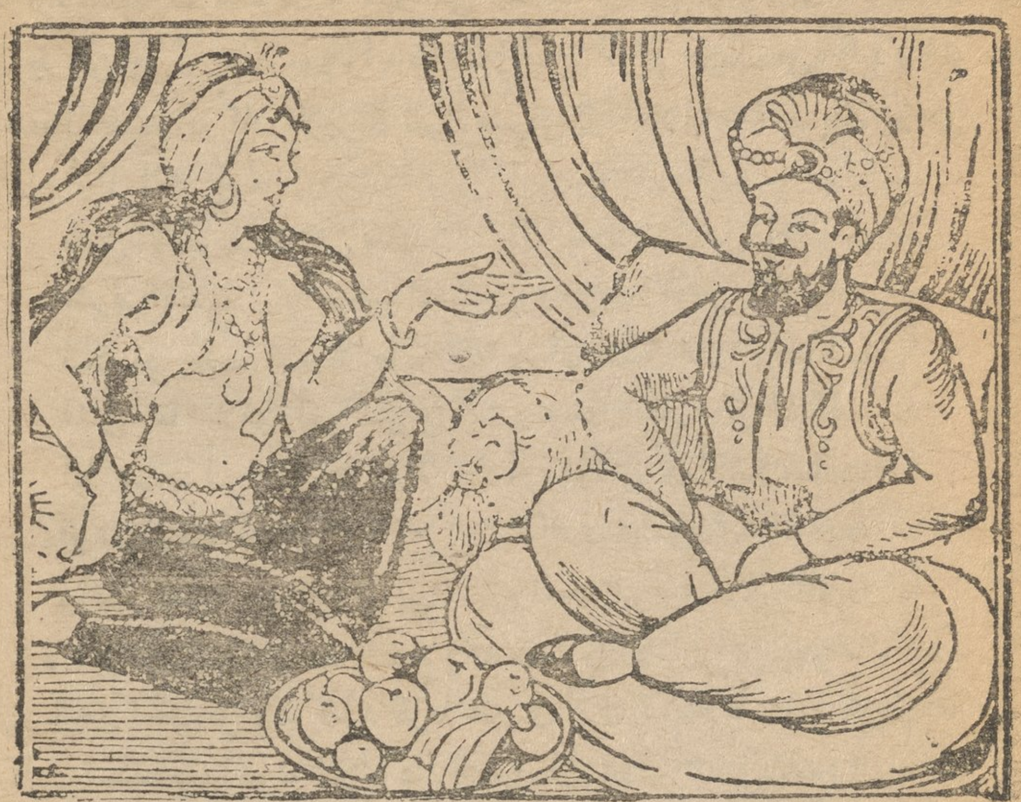
(قال الراوى) فلما فرغ الجرو من كلامه وإذا بسلطان أخو جساس أقبل عليهما فى ذلك الوقت فوجد الدم يسيل من ابن أخيه جساس فلما علم بواقعة الحال اغتاظ غيظاً شديداً وشتم الجرو وقال والله لولا كرامة أمك لقطعت رأسك وأخمدت أنفاسك فقال يا خال ها أنا بين يديك فافعل ما تريد ثم هطلت عيناه بالدموع وتنهد من فؤاد موجوع وسار إلى عند أمه وأعلمها بما جرى وكان طلب منها الرحيل من ذلك الأوطان فتكدرت أمه وأجابته إلى ذلك الشأن ثم إنهما صبرا حتى اظلم الليل فتركا المضارب والخيام وسارا تحت جنح الظلام فى جماعة من العبيد والخدام وجدا فى قطع البرارى والآكام مسافة عشرة أيام واتفق فى اليوم

الحادى عشر إيهما التقيا بشيخ فى ذلك البر الأقفر وهو يقطع البر المسيح على فرس تسابق الريح وكان بمعيته عشرة أبطال من صناديد الرجا وكان قد خرج لصيد الوحوش والغزلان وهو راجع إلى الأوطان فتقدم الجرو إليه وسلم عليه فرد الشيخ سلامه وقال له أيها الفتى الماجد من أين أتيت وإلى أين قاصد فقال طردنى أهلى وربيت يتيم وأنا طالب إنسان كريم حتى التجىء إليه وأقيم عنده فقال الشيخ إذا كان الأمر كما تقول فشرفنى إلى أطلالى فأنا أفديك بروحى ومالى وأشار إليه يقول .

يقول الامير منجد من قصيد	ألا يا قاصداً نيل المآرب
فشرف منزلى وأمر عبيدك	يرون الأعز والجنائب
بكم قد حلت البركة علينا	وزال عنا الشر والمتاعب
فتلى ما تلاقو أين سرتم	وعندى تبلغوا كل المطالب
أنا منجد فمن نسل الاكارم	أبى وائل وما فينا معاقب
ألوف ألوف تخدمنى وتخضع	لأمرى فى المشارق والمغارب
وأنت بقيت بعد اليوم ابنى	ولست اليوم فى قولى بكاذب

(قال الراوى) وكان هذا الشيخ إسمه منجد بن الامير وائل وهو خال كليب والزير البطل الجلاحل وقد كنا ذكرنا عنه فى أول الكلام بأنه بعد قتل ربيعة أبو كليب استخدم مع إخوته الثلاثة عند التبع فى بلاد الشام ولما قتل التبع ولى وهرب وسكن فى آخر بلاد العرب خوفا من كليب أن يقتله كما قتل إخوته لانه كان يبغضه دون أهله وعشيرته فلما فرغ المنجد من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه فرح واستبشر ورجع إلى عند أمه على الاثر وأعلمها بما جرى وكان ثم إنهم ساروا وامه إلى الاوطان ونصبوا المضارب والخيام فأكرمهم منجد غاية الإكرام وأنزلهم أعز مقام وكان لمنجد المذكور عشرة أولاد من الذكور كأنهم البدور فآلفوا الجرو وأحبوه وكانو الا يفارقوه وكانت أمه الجليلة قد عرفت الامير منجد حق المعرفة ولكنها كتمت الامر عن زيد وعمر خوفا من العواقب وطول النوائب فاجتمعت بابنها الجرو وقالت إذا سألك أحد عن إسمك فقل إسمى الهجرس ولا تقول الجرو فقال إن الإسمين واحد فما هو مرادك بذلك فقالت وإن يكون الهجرس كلب الصياد فإنه أصلح من الجرو ابن الكلب وأنت أمير وأبوك كان من الفرسان المشاهير ومن

ذلك اليوم تسمى الهجرس وغلب علينا هذا اللقب بين العرب وكانت أمه فى قلق عظيم خوفاً عليه فاجتمعت ذات يوم بشيخ عبيدها وكان إسمه صباح وأشارت تقول من فؤاد مبتول :



(حسان التبعى الملك اليمانى)   (الجليلة بنت مرة)

تقول الجليلة بدمع سجام   أيا صبيح إسمع الكلام
فهذا الشيخ الذى تراه   مكيد الاعادى بضرب الحسام
يسمى منجد صميدع عنيد   ولد وائل وافى الزمام
فهو أمير وابن أمير وحوله   عسا كر كثيرة كفيض الغمام
فهذا خال كليب الامير   مع سالم الزير قوم همام
فهو خالهم قد عرفته سريع   مكيد الاعادى بضرب الحسام
وهو خال زوجى لكن عدو   كيف العمل الآن صرنا نضام
وأصل العداوة كليب الامير   قتل إخوته فى دمشق الشام
قتل اليمامة وأخذ ثار أبوها   وأهلك أخوه منجد وشام
ونحن الآن نزلنا عليه   عرفته وقد اعترانى سقام
انى أخاف على ابنى حقيق   يمينه ويدعى دمه سجام

عدوك اباك تركن إليه ولو إنه سقاك المدام

(قال الراوى) فلما فرغت من شعرها ونظامها فهم صبيح فحوى كلامها قال أين نتوجه الآن وقد صار لنا مدة من الزمان والصواب أن نكتم أمرنا على كل إنسان فبينما يفرجها علينا الرحمن الرحيم واستمروا مدة طويلة فى تلك القبيلة وهم فى عز وإقبال وأرغد عيش وأحسن حال إلى أن كان فى بعض الأيام أغار على الأمير منجد بعض الملوك العربان فى ثمانين الف عنان فالتقاه منجد بعسكر جرار فانكسر عدة مرات حتى آل أمره إلى الدمار .

فلما شاهد الجرو تلك الأحوال وما وقع بمنجد من الأهوال برز إلى ساحة المجال وقاتل الشجعان والأبطال وأظهر الغرائب العجائب ففرق الصفوف والمواكب وكسر ذلك العسكر وفعل فعالا تبقى وتذكر مادامت الشمس والقمر عند رجوعه من معركة القتال بالنصر والإقبال فشكره منجد على تلك الفعال وقال له مثلك تكون الرجال فوالله لقد حميت الحريم وطردت الغريم وخلدت لك ذكراً جميلا على طول الدوام عند وصولهما سراية الأحكام وجلوسهما فى الديوان قال منجد بحضور السادات والأعيان مثلك تكون الفرسان فاعلمنى عن حسبك ونسبك ومن يكون قومك فلما سمع الجرو فحوى كلامه أجابه بهذا القصيد :

أيا فخر ماجد فى الرجال ... فاسمع يا ملك فحوى كلامى
أنا إسمى اليتيم يا مسمى ... ولا أعرف أبى ولا اخوالى
وإنى قد سألت أمى مراراً ... فتسكت لا ترد إلى سؤالى
تقول أبوك شاليش بن مرة ... قتله الزير فى يوم النزال
فأطلب من إله العرش ربى ... لآخذ الثار منه بالقتال

(قال الراوى) فلما فرغ الهجرس من كلامه زاد منجد فى احترامه ونهض على الأقدام وأعتقه أمام السادات الكرام وقال له أنت من بنى مرة أصحاب الشجاعة والقدرة فعربك من عربى ونسبك من نسبي فوالله ما ضاع نظرى فيك فاطلب من الله أن يحفظك ويبقيك و ينصرك على جميع حسادك وأعاديك من ذلك الوقت زاد فى إكرامه ورفع مقامه على جميع أقوامه وأقامه ملكا على تلك الديار وصار فى مزيد الوقار والاعتبار عند الكبار والصغار وكان لمنجد بنت بديعة الجمال

متصفة بالاداب والكمال كأنها هلال ذات عقل ثاقب ورأى صائب لا يوجد مثلها فى العرب والاعاجم إسمها بدرباسم فزوجه إياها وتمتع الجرو بحسنها وأقام فى أرغد عيش وأحسن حال وهو يحكم على تلك الاطلال وقد أحبته جميع الرجال (قال الراوى) هذا ما كان من الهجرس والجليلة وما جرى لهما فى تلك القبيلة وأما جساس فإنه بعد رحيل أخته من الديار زادت به الاكدار وكان كثيرا مايتذكرها فى الليل والنهار فاتفق فى بعض الايام بينما هو جالس فى الخيام دخل عليه بعض الشعراء فسلم عليه وعلى باقى الأمراء وأخذ يمدحه بهذا الشعر والنظام على ما جرت به العادة فى تلك الأيام :

قال جابر فى بيوت صادق ... أنت يا جساس رب المكرمات
سمعت بصيتك أنا باذا الامير ... فى الكرم والجود يا فخر الذوات
أنت ملك البلاد جميعها ... حاكماً فى الارض من كل الجهات
قاتل الضد فى يوم الوغا ... مكرم للضيف سنة المحملات
أنت يا جساس ملك البلاد ... مع إخوتك وشقايقك السيدات
لولا كم ماكنت جيت لارضكم ... ما كنت فارقت العيال مع البنات
وتركت أختى يا ملك أولادها ... وزوج أختى يا ملك ذا العام مات
أولاد أختى يا ملك سبعة ذكور ... عند أولادى وأهلى ثبات
جور هذا الدهر فى الدنيا عجيب ... كم له فى كل يوم تقلبات

(قال الراوى) فلما فرغ جابر من شعره ونظامه وفهم جساس فحوى كلامه أمر له بألف دينار واعتبره غاية الاعتبار ثم التفت إليه أخوه سلطان وقال له أمام السادات والاعيان أسمعت كلام هذا الشاعر الذى يدور فى القبائل والعشائر ويمدح السادات والاكابر أملا فى المكاسب وبلوغ المآرب كيف أنه ذكر أخته فى شعره ولم ينسها طول دهره فكيف نحن نكون سلاطين الزمان وملوك العصر والاوان ونترك أختنا أن تغضب منا وتبعد ولا نعلم إلى أين ذهبت وأى قبيلة طلبت فماذا تقول عنا دول الممالك إذا سمعت عنا ذلك فمن الواجب أن نقتفى أخبارها الآن ونعيدها معززة إلى الأوطان ثم أنه بكى أمام جلسائه وبكت إخوته لبكائه وندم سلطان على ما فعل واستعظم ذلك العمل ثم التفت جساس إلى ذلك الشاعر وقال له أنت تطوف حلل العرب وتمدح الملوك وأصحاب الرتب فأريد أن تستقصى له عن أخبار الجرو وأختى الجليلة وتعلمنى إلى أى حلة قصدوا عن إسم القبيلة فإن أتيتنى

بصحة الخبر بلغتك القصد والوطر فأجابه الشاعر وامتثل ثم سار على عجل يطوف القبائل والحلل ويستقصى عنها الأخبار من الكبار والصغار حتى سمع بخبرهما ووقف على حقيقة أمرهما فقصدهما إلى ذلك المكان واجتمع بهما فى الصيوان وحدثهما بما سمع فى حقهما من جساس وسلطان ثم أشار يمدح الجرو ويقول وهو فرحان على بلوغ القصد :

يقول جبر من قلب حزين ... فدمعى سال من وسط الأماق
أدور على القبائل والعشائر ... لأحظى بالمكاسب والنياق
فاصغى يا أمير إلى كلامى ... فأنت أجل فرسان السباق
فصيتك شاع فى كل القبائل ... فمن يمن إلى أرض العراق
وما لك فى البرايا من شبيه ... ونجمك فاق سام المجد راق
سألت الله أن يحفظ جيالك ... على طول المدى والدهر باق
رحنا من حماة لعند خالك ... ملك جساس سلطان الآفاق
فأهدانا وقام أنعم علينا ... وقلبه من بعادك باحتراق
وأرسلنى لأكشف أين أنتم ... ليحظى فيكم من بعد الفراق

(قال الراوى) وكانت الجليلة تسمع هذا الشعر وهى خلف الحجاب والستر فما هان عليها أن تسمع بذكر إخوتها كانوا سبباً لغربتها وفرقتها من حلها فأمرت كبير العبيد أن يوقف عن إتمام القصيد وأن يكتم خبرهما عن هذا وذلك خوفاً من الفضيحة والإنهاك ثم أمرت له بألف دينار وأعطاه الجرو مثل ذلك المقدار ففرح الشاعر واستبشر ورجع على الأثر وعلم جساس بذلك الخبر فأرسل فى الحال أخوه سلطان فى جماعة من الأبطال ليأتوا بأخته الجليلة وابنها الجرو من تلك الأطلال فلما اقترب سلطان إلى تلك الأوطان أرسل بعض الفرسان ليعلم منجد بقدومه إلى أوطانه فخرج فى الحال فى جماعة من فرسانه فالتقاه أحسن ملتقى لأنهم كانو أقارب أصدقاء وأنزله فى سراية الأحكام وذبح له النوق والاغنام وأكرمه غاية الإكرام وفى ثانى الأيام اجتمع سلطان بأخته الجليلة وولدها الجرو واعتذر لهما بما فرط منه وطلب منهما الرجوع إلى الديار وشدد عليهما فى ذلك غاية التشديد فأجابه إلى ما طلب واعلم الجرو والامير منجد بأنه يريد الرجوع إلى أهله وعشيرته مع أمه وزوجته ومن يلوذ به من جماعته لان نفسه اشتاقت إلى الوطن فقال منجد والله

يا أمير يعز علينا فراقك ولا زالت أرواحنا فى كل وقت تشتاقك ولكننا لا نقدر أن نمنعك عن أهلك وأصحابك وبنى عمك وأحبابك ثم أعطاه مائة ناقة محملة بنفائس الأقمشة والذخائر ومائة جواد وغير ذلك من المعادن والجواهر ومائة عبد ومائة جارية وأركب إبنته زوجة الهجرس على هودج كبير وسار لوداعهم مسافة نصف يوم ثم رجع إلى الديار وسار الهجرس مع أمه وزوجته يقطعون القفار حتى وصلوا إلى منازل بنى مرة فالتقاهم جساس بالفرح والمسرة وأمر بذبح الذبائح وإطعام الغادى والرائح وأشار إلى الجرو يقول :

لما قال الفتى جساس صادق	أيا مرحبا بك يا ابن أختى
ففيكم حلت البركة علينا	وضاء الحى فى قربك إلينا
وأمك يا فتى عينى وروحى	وعمرك ياجليلة مافرحت
فإنك غدا كالسبع الكاسر	فإن الجرو للأعداء كاسر
بيوت الحرب والأهوال كاسر	إله العرش إرجعه ظافر
فلا تعتب على سلطان خالك	ولا قوله سيخطر قط ببالك
فلا إبنى ولا نحن مثالك	أنا سأحكمك من فوق تحتى
أنا أبكى على المرحوم أبيك	قتله الزير فى ربعك وحيك
فقم اركب يا روح خيلك	وأخذ من المهلهل أى مأخذ
سألتك الله أن تأخذ بثارك	بقتله تكشف عنك عارك
مرادى تقتله وتأخذ بثارك	وتحرقه بنارك يا ابن أختى

(قال الراوى) فلما فرغ جساس من شعره ونظامه تبسم الجرو من كلامه وقال له كن مطمئن الخاطر ياخال هذا ما كان من الجرو وجساس وأما الزير الفارس الدعاس فإنه بينما كان راقد ذات ليلة إذ رأى فى منامه ولذيذ أحلامه أخاه الأمير كليب وهو يعاتبه بهذه الأبيات على أخذ الثار وكشف العار ويقول وعمر السامعين يطول :

تنام الليل كله يامهلهل	وثارى ما قدرت على وفاة
وعظمى ذات حتى صار كحلا	وجساس بن مرة فى الحياة

فأجابه الزير يقول :

أمير كليب ما قصرت يوما	بأخذ الثار من قوم البغاة

فقم اسأل مناتك يا حبيبي — على طعنى وضربى بالصداة

(قال الراوى) فاستيقظت بنات كليب من المنام وأيقظن عمهن بهذا الشعر والنظام:

يقولون اليتامى يا مهلهل — أتانا كليب يستنجد أخاه
كليب قام من وسط المقادير — وصار كليب فى وسط الحياه

(قال الراوى) كان الزير قد استيقظ من منامه فرأى البنات حواليه فقال لهن رأيت أباكم فى المنام ثم حدثهن بما سمعه ورآه بالكمال والتمام فبكين بكاء شديدا فقال الزير إن هذا المنام يدل على عجب وحادث يقع عن قريب فاستدعى بعض الرمالين إليه وقص ذلك المنام عليه فضرب الرمل الرمال ورسم الأشكال وولد البنات من الامهات حتى عرف حقيقة الخبر فقال له لك البشرى يافارس الصدام فإن جساساً سوف يقتل من بعد أيام وذلك من يد شخص يظهر من لحمك ودمك وأشار يقول:

يقول بشير إسمع يا مهلهل — أيا سالم فابشر زال همك
أتاك النصر من رب البرايا — إله العرش بالخيرات عمك
وقد ظهر وسول الرمل عندى — سيظهر شخص من لحمك ودمك
فيقتل فى الوغا جساس حالا — وأنت تراه ويزول همك
وتهلك بعده أولاده مرة — وتسقيهم جميعاً كأس سمك

(قال الراوى) فلما سمع المهلهل هذا الشعر من الرمال فرح واستبشر وقال له إن تم ذلك الكلام أبشر منى ببلوغ المرام ثم إنه أحسن إليه ووعده بكل جميل ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركب المهلهل إلى الحرب والكفاح وتبعه الابطال والفرسان وركب أيضاً الامير جساس بالرجال والشجعان واقتتلوا إطول ذلك النهار وقتل المهلهل منهم عدد كثير المقدار ومازالوا فى أشد القتال إلى أن دقوا طبول الانفصال فافترقت الطوائف عن بعضها ونزلت كل فرقة فى أرضها وأما الهجرس فإنه لم يركب مع جساس فى ذلك اليوم فاجتمع جساس بأخته الجليلة فى المساء وقال لها إن إبنك لم يقاتل معنا ولا نعلم ماهو السبب فاسأليه واعلميني عما يقول فسألته أمه عن عدم خروجه إلى الحرب فقال لها اعلمى يا أماه أنه لايلقانى قتال لى الزير سوى حسان خال جساس الأخرج إن وهبنى إيا فأنا أعطيه عوضه

رأس المهلهل فإن قبل بهذا الطلب بلغته غاية الارب فرجعت الجليلة على الأثر وأعلمت أخاها جساس بهذا الخبر فوهبه الحصان وقال له إن قتلت هذا الشيطان تكون علينا ملك ونحن لك غلمانا وأعوانا ففرح الجرو بذلك وضمن لجساس قتل الزير أما الفرسان والقواد ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ركبه الجرو الحصان المذكور وتبعه كل فارس مشهور وكان الزير قد ركب وطلب براز الفرسان وقال أين جساس الجبان فليبرز إلى الميدان فبرز الجرو إليه وهجم عليه وأشار يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الهجرس يا مهلهل	إن عزرائيل أقبل
أين تعدى اليوم منى	سوف تلقانى وتقتل
لا تحسبنى بظنك	إنى كمن قد جاك

(قال الراوى) فلما فرغ الهجرس من شعره حمل عليه وكان المهلهل قد مال قلبه ليه وتحركت جميع أعضائه بإذن الله وهذا الهجرس قد قصد قتله وقلعانه ليوفى إلى جساس ضمانه وكان الزير يبطل مضاربه بحسن اختياره ولا كان قلبه يطاوعه على قتله ودماره وما زالا على تلك الحال وهما فى عراك وقتال إلى أن دقت طبول الانفصال وعاد العسكران عن ساحة المجال ورجع المهلهل إلى الأطلال واجتمع ببنات أخيه كليب وأعلمهن بحديث الغلام وما جرى بينهما فى معركة الصدام وكيف أنه أشبه الناس بأبيهما كليب فى الصورة والقتال ثم قال لليمامة أعلميني هل كانت أمك الجليلة حاملة لما ذهبت إلى بيت أبيها فقالت نعم يا عمى كان لها نحو شهرين ولكن ماهو معنى هذا السؤال فأنشد وقال :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل	مريع الخيل إن تصدت إليه
يمامة إسمعى منى كلامى	أيا ست الملاح المحسنينا
برزت اليوم للميدان حتى	أقاتل آل مرة أجمعينا
فبارزنى غلام غريب منهم	له عزم كما الصخر المتينا
كمثل أباكم وجها وحربا	فذكرنى ليالى الماضينا
فقد قاتلته فى كل لطف	وهو يطعن طعان القاتلينا
فحملاته وطعانه قوية	تقد الصخر والزرد المتينا

فلما انتهى من شعره أجابته اليمامة تقول :

ألا يا عم إسمع ما أقوله	لتفهم سالم الخبر اليقينا

فأمى حاملة من يوم راحت ... وحق الله رب العالمينا
ولست أدرى إيش جابت ... أبنت أم غلام يا فطينا
ثلاثة إشارات لى فى كليب ... إشارات بعقلى راسخينا
وكب يوماً بقرب النوم مرة ... وقال أيا يمامة أنظرينا
من التفاح أعطانى ثلاثة ... وقال بذى الثلاثة أتضربينا
فإنك سوف تحتاجى اليوم ... إذا ظهر لنا حقاً بنونا
ضربته بواحدة يا عم راحت ... بضرب رقابه راحت طحينا
وثانى واحـدة فى رمحه ... وثالثهم خطفها باليمينا
عدا انزل واضربه ثلاثة ... كفعل أبى أيا عمى الحنونا
يكون أخى إذا سوى نظرة ... وإن خالف يكون غريب فينا
عسى الله يدركنا بلطفه ... وينصرنا إله العالمينا

(قال الراوى) فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وعمها يسمع لحوى كلامها قال لها فعل أبوك ذلك قالت قبل موته بشهرين عندما كنت على بير السباع وقد صممت الآن أن أرافقك إلى الميدان وأضربه بالتفاح فى ساحة الكفاح وأن أفعل كما فعل أبى يكون لاشك أخى وبه أبلغ أربى

(تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع)

الجزء التاسع

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وفى ثانى الايام ركب الزير للحرب والصدام وركبت معه اليمامة وقد أخذت معها ثلاثة وكان الجرو قد ركب أيضاً بالابطال فصال وجال وطلب الزير الحرب والقتال فبرزت إليه اليمامة بالعجل وقالت أنا أقاتلك اليوم دون المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ولم يعلم السبب ثم أن اليمامة أخذت تفاحة ولوحتها بيدها وضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطحنها طحناً ثم إنها ضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح ثم أخذت الثالثة وقالت اللهم يا خالق الخلق امح الباطل واكشف الحق فأخذها بيده ووضعها فى جيبه فلما شاهدت الحال أيقنت أنه أخوها لا محالة فنزلت عن ظهر الجواد وتقدمت إليه والقت نفسها عليه وقالت أهلا وسهلا يا أخى ابن أبى وأمى فأنت والله ابن كليب دون شك ولا ريب وقد ربيت فى دار العدا والحمد لله الذى عرفناك بعد طول المدى فقال لها أنا ابن شاليش أيتها السيدة الحرة وأمى هى الجليلة بنت الامير مرة فقالت أنت ابن الامير كليب ثم أنشدت تقول

قالت يمامة من ضمايرها	دمع العيون على الخدين هتان
إسمع أخى قصتى وافهم معانيها	يا قاهر العدا فى وسط ميدان
أبوك خانه جساس أيا سندى	وطعنة يا عظيم القدر والشأن
شاليش خالك كل الناس تعرفه	أهل الاعارب قاصيها ومن دان
وعمك الزير فخر الناس كلهم	وفارس الخيل من عجم وعربان
فاسأل لامك ثم سرك اكتمه	وارجع إلينا فأنت اليوم فى أمان

(قال الراوى) فلما فرغت اليمامة من شعرها تأكدت عنده تلك القضية لان قلبه كان لا يميل إلى جساس ولا إلى أحد من بنى مرة ولاسيما أنه قد حن قلبه إلى اليمامة فقال لها سراً لقد صدقت بقولك هذا فاذهبى الآن وعند الصباح اتبعكم إلى الاوطان ثم توقفت عن القتال ورجع إلى عند أمه فى الحال وأخبرها بذلك الشأن وأن تعلمه من هو أبوه من الفرسان وحلف لها بالإله الديان أنها إن كتمت عنه حقيقة الخبر قتلها وجعلها عبرة لمن اعتبر فلما علمت أمه بأن الخبر قد اتصل إليه وأن الامر ما عاد يخفى عليه أعلمته بالقصة من أولها إلى آخرها وأوقفته على باطنها وظاهرها وأشارت إليه تقول من فؤاد متبول :

الجليلة قالت أبيات ... نار قلبي بالحشا زادت لظا

إستمع يا ولدي فيما أقوله ... يا ضيا عيني ويا كل المنى

انت روحي افتهم مني الكلام ... قول صادق ليس فيه من خفا

إن أبوك كليب صور المحصنات ... قاهر الأبطال في يوم الوغى

وإخوته خمسون اعمامك جميع ... كلهم فرسان طعانة قنا

أربعة من الست يا ابني حقيق ... كل واحد سبع ربي بالفلا

منهم المسمى أبوك كليب كان ... والفتى الزير المهلهل يا مني

والفتى المسمى عدي درعان ... هذه الأربعة أتوا منها سوا

ثم ست وأربعين خلافهم ... من الجواري والسراري والاما

كلهم يا أمير أعمامك لهم ... كل واحد الف يطعن بالوغا

وأبوك كليب سار على الجميع ... بالفروسية مع جود وسخا

جاء جساس خالك باق فيه ... وتركني بعده مثل الاما

وطردني عمك الزير بعده ... فرحت إلى أهلي دون الملا

قد كنت حامل فيك بعد أبيك ... فولدتك في تلك الحما

رحت سميتك على إسم الكلاب ... سرت كأنك سبع رابي بالفلا

وأنا والله من خوفي عليك ... قلت أخي شاليش إنه لك أبا

وأنا اعلمتك افعل ما تريد ... ما بقيت أخاف يا فخر الملا

(قال الراوي) فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر بكى الجرو بكاء شديداً ولام أمه على كتمان الأمر ثم إنه صبر إلى الليل فركب وسار بالعجل إلى عند المهلهل وصحبه العبد أبو شهوان الذي كان أرسله إليه عمه فارس الفرسان وفي أثناء الطريق أراه العبد قصر أبيه وقبره المصفح بالذهب فلما رآه بكى وانتحب وعند وصوله إلى عند عمه دخل عليه وقبل يديه وعينيه واجتمعت جميع شقايقه ومن يلوذ به من أهله وأقاربه فوقعوا عليه وترحبوا به وكان الزير أفرح الخلق به ولما استقر به الجلوس وطابت من القوم النفوس قال الجرو الحمد لله رب الكائنات الذي جمع شملنا بعد الشتات فوالله العظيم رب موسى وإبراهيم لا بد لي من قتل جساس واجعله مثلا بين الناس لانه فجعني بأبي تاجي وفخري وتركني يتيما طول دهري فقال له لا بد من قتله على رؤوس الاشهاد وأنت تكون الحاكم بعد أبيك على هذه البلاد ثم أنشد وقال:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... صفا عيشي وقتي ما تعكر

أتانى السعد من رب البرايا ... وزال النحس لما السعد أقبل
فقبل ظهوره كنا حزانا ... نقضى الليل فى قلق ونسهر
على فقد الفتى الماجد كليبا ... ثوى غدرا له جساس فنظر
وفى دمه كتب بالبلاطة ... وصايا عشر أبيات أو أكثر
يوصينى بقوله لا تصالح ... فسالم أنت إن صالحت تخسر
واطرد الجليلة من حمانا ... عذوة كعبها ما كان أخضر
طردناها وهى بالجرو حامل ... ومن يقدر على رد المقدر
أنا فيهم فتكت بحد سيفى ... وأنت القصد منهم بالمشهد
وإنى ما بكيت على كليب ... أخذت بثاره بالسيف مجهز
فابكى حيث ما خلف ذكورا ... بنات الكل ماله طفل يذكر
ولما خالقى أنعم علينا ... وجانا الجرو كالسبع الغضنفر
صفا عيشى وقد نلت المقاصد ... وزال النحس عنا ثم أدبر
وبعد يا إبنى إسمع كلامى ... أنا عمك وأنت الليث قسور
فقم اجلس على كرسى أبوك ... وفى أحوال إخواتك تبصر

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من الشعر والنظام قال الجرو أطال الله بقاك ونصرك على جميع حسادك وأعداك وبلغت قصدك ومناك إننى والله ياعم فى قلق وغم فلا تزول أحزانى وأنال أربى حتى آخد بثار أبى واقطع رأس جساس واجعله مثلا بين الناس فشكره جميع أهله وأعمامه وبعد ذلك قال له الزير ماهو الرأى عندنا يا ابن أختى قال الرأى عندى إنى أغار عليكم نهار غدو آخذ نوقكم وجمالكم إلى جساس وأقول له بأنى أتيت اليوم بأموالهم ومواشيهم وغدآ آتى إليك برأس الزير ثم لاحاربك وتكون أنت واضع قربة من الدم تحت جانبك فاطعنك بالرمح تخده تحت إبطك والقى نفسك على الأرض فتنشق القربة ويهرق الدم وأنا أصيح على جساس وأقول له قد قتلت عدوك ياخال انزل اليه واقطع رأسه لقد زال الكدر وبلغنا اليوم الوطر وعندما يأتى اليك فتقوم اليه بالعجل وتعدمه الحياة لانه لم يعلم بقدومى عليكم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتتخلص من هذه الورطة الوبيلة فاستصوب الزير رأيه ثم انه ودعهم وسار وحده الى ديار بنى مرة وعند الصباح ركب الجرو فى جماعة من الفرسان وساق مواشى بنى قيس من الرعيان باتفاق الامير مهلهل ليث الميدان فخرج الامير جساس وسادات من بنى مرة وشكروا الجرو على هذه الغنيمة

(قال الراوى) فاتفق فى تلك الليلة بأن جساس رأى حلماً غريباً وهو أنه أبصر ذاته بأنه كان قد ربى عنده جرو وذهب وكان يوده ويحبه فلما انتهى وترعرع وتصاحب مع سبع كاسر فألفه إلى أن كان فى بعض الايام أغار السبع على مواشى حى مرة وهجم على نسائهم وأولادهم وجعل يفترس كبارهم وصغارهم وكان الذئب يساعده عليهم فاغتاظ جساس من فعال الأسد فسل السيف وهجم عليه يريد قتله وإعدامه فوثب عليه الذئب من ورائه ونهشه فألقاه صريعاً على الأرض ففاق جساس مرعوبا من هذا الحلم فنهض فى الحال وسار إلى الديوان وجمع إخوته وباقى السادات والأعيان وأعلمهم بذلك المنام فقالوا هذه أضغاث أحلام وما زالوا يهونون عليه حتى راق وزال عنه القلق والكدر ولما أصبح الصباح ركب الزير يطلب الحرب والكفاح وركب الأمير جساس وهو فى قلق ووسواس وكان الجرو قد أوعد بهلاك القوم وقتل المهلهل فى ذلك اليوم ولما التقى الفريقان برز الجرو إلى ساحة الميدان فبرز اليه المهلهل فالتقاه الجرو وصال وجال وطعنه بالرمح طعنة كاذبة فسحبها المهلهل من تحت إبطه فراحت خائبة وألقى نفسه على الأرض من فوق ظهر الحصان خديعة على عيون الفرسان ليظهر لهم أنه قد مات وحلت به الآفات فعند ذلك صاح الجرو الله أكبر على من طغى وتجبر فقد نلنا المراد بقتل الزير الذى أهلك العباد ثم أنه صاح على جساس وقال له انزل ياخال واقطع رأس عدوك فقد قتلته وكفيتك شره فلما رآه يختبط بدمه نزل عن ظهر القميرة وهو يظن أنه قد بلغ غاية مراده ولما اقترب منه نهض الزير على قدميه وقبضه من لحيته وهجم الجرو أيضاً عليه ووضع الرمح بين كتفيه فعند ذلك علم جساس أنها حيلة قد تمت عليه وتأكد عنده صحة ذلك المنام فأخذ يخاطب الجرو بهذا الشعر والنظام :

قال جساس الذى شاهد وفاة — يا سياج البيض فى طعن القنا
إننى بك يا ابن أختى مستجير — فاجرنى يا ابن أختى من القنا

فأجابه الجرو بهذه الأبيات :

أيا خال اقصر عن ملامك — دنى أجلك وقد وافى حمامك
تقول أجرنى يا ابن أختى — ألا يا جرو اعطينا زمانك
قتلت كليب ظلما وعدوانا — تظنوا بأنى أسمع كلامك
وبعد كليب أصبحت حاكم — تسامى فى الملا أيضاً كلامك
طغيت وجرت فى حكمك علينا — فأذنى لم تعد تسمع كلامك
تريد اليوم منا أن نجيرك — فهـذا ما تشوفه فى منامك

(قال الراوى) فلما فرغ الجرو من كلامه جعل جساس يتوسل إليه بأن يعفو عنه وقال بالله عليك أن تصفح عنى فإن الذى مضى قد مضى وهل إذا قتلتنى يعيش كليب ويقوم فاتركنى لوجه الله الواحد القيوم فقال الجرو لا بد من قتلك كما قتلت أبى حتى أكون قد بلغت أربى فلما أطال بينهما الخطاب قال لهما الزير أراكما قد أطلتما الكلام والعتاب فعند ذلك طعنه الجرو بالرمح فى صدره فخرج يلمع من ظهره وتقدم إليه الزير بالسيف على رأسه فقطعه ثم وضع فمه على عنقه وجعل يمصه حتى شرب جميع دمه وكان الجرو ينهش فى لحمه حتى بلغ مراده وشفى فؤاده وبعد ذلك أعطى الرأس إلى الجرو ليأخذه إلى شقايقه فسلمه الجرو إلى بعض عبيده وهجم مع قومه فى باقى الابطال على جموع بنى مره فى الحال وأذاقوهم الوبال وبلغوا منهم الامال وكانت بنو مرة لما علمت بقتل جساس أيقنت بالموت الاحمر لانه كان القائد الاكبر وعليه الاعتماد فى الحرب والطراد فولت الأدبار وطلبت الهزيمة والفرار وكان المهلهل قد قتل منهم فى ذلك النهار خلقا كثيرا بهذا المقدار فمنهم أمراء وقواد وسادات أمجاد وأما الذين سلموا منهم فإنهم طلبوا الزمام من الزير والجرو فأجارهم وعفوا عنهم بشرط أن يكونوا مثل العبيد لا يتقلدون سلاح ولا يحضرون حربا ولا كفاحا ولا يوقدون نارا لا ليلا ولا نهارا ولا يعرف لهم قبر ميت فى جوار لا فى مقبرة ولا فى دار إلا مشتتين فى البرارى والقفار يقضوا حياتهم بضرب الطبل ونفخ المزمار وإن غابت نساءهم طول النهار لا يسألها فين كانت بل يسألها إيش جابت وليس لهم صنعة سوى الرقص والخلاعة فقبلوا على هذا الشرط بكل رضا وقناعة وبعد هذه الشروط تسلطن الجرو على كل القبائل نظير أبيه وطاعته العباد وشاع ذكره فى البلاد وفرحت بنات كليب كل الفرح وزال عنهم الغم والترح وخلعن عنهم ثياب السواد وكان ذلك النهار عندهم من أعظم الاعياد وكان الجرو قد تزوج بثلاث بنات وولد له ولدان فسمى الأول تغلب والثانى مالك ولما بلغا سن الرجولية زوجهما بنتين شقيقتين وهما بنات الأمير هلال حاكم حماة وزوج أخته اليمامة للأمير مفلح ابن الأمير مذكور وهذا ما جرى بينهم وهكذا اتصل الحسب والنسب وخمدت نيران الحروب بين قبائل العرب وكان أفرح الناس الأمير مهلهل وكان الجرو قد عرض عليه الزواج فامتنع وكان منعكفا على الجلوس فى الخيام وأكل الطعام وشرب المدام وأقام له عشرون عبدا فى رسم خدمته وكان يرقد وينام وهو لابس آلة الحرب والصدام لانه كان قد اعتاد

عليه مدة الحروب والشهور التى استمرت أربعين سنة وكسور كما فى التاريخ
مذكورهذا ما كان من أمر المهلهل فى تلك الأيام وسوف يقع له حديث وكلام
وأما الجرو فإنه قد زوج أربعة من شقايقه إلى جماعة من الامراء وصنع لهن
ولائم وأفراح مدة طويلة وأما ولداه مالك وتغلب فإنهما بقيامدة خمسة عشر سنة
ولم يرزقا بأولاد من بنات الامير هلال المذكور وبعد نهاية المدة طلبت نساؤهما
زيارة أهلهما فى حماة فطلب أزواجهما من أبيهما الجرو أن يأذن لهما بذلك فأمر لهما
فساروا مع نسائهما إلى تلك الاطراف ولما بلغ الامير هلال بقدوم أصهاره بنسائهما
خرج للتفاهم مع ولده الامير مفلح وخرجت معهما اليمامة زوجة الامير مفلح المذكور
وخرج أيضاً أكابر المدينة فالتقوهم بالترحاب والإكرام وأنزلوهم فى أحسن مكان
وقاموا فى تلك الاوطان مدة من الزمان وهم فى سرور وأفراح وبسط وانشراح
ولما صمم الامير مالك وتغلب على الرجوع إلى الاطلال مات الامير مفلح مع أبيه
الامير هلال فأقاما يحكمان فى تلك الديار وانقادت لامرهما أهل تلك البلاد وكانا
محبوبان من جميع العباد وكانت اليمامة بعد وفاة بعلها ذهبت إلى عند أهلها .

(قال الراوى) فاتفق ذات يوم الامير مالك قال لاخيه تغلب إعلم يا أخى إنه
قد مضى علينا مدة من الزمان ولم نرزق بولد ذكر حتى يبقى لنا ذكر يذكر بين
البشر فدعنا نتزوج الآن على نسائنا فلعل الله يرزقنا بأولاد وإلا انقطع نسلنا من
بين العباد فقال تغلب من الصواب أن نصلى إلى الله فى هذه الليلة ونتضرع إليه أن
يرزقنا أولادا من نسائنا لأنه على كل شىء قدير فامتثل أخوه رأيه وصليا تلك
الليلة بحرارة قلب وأشار تغلب يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الفتى تغلب على ما جرى — بدمع جرى فوق الخدود نهود
أقول وفى قلبى من البين لوعة — وبى حسرات ظى الفؤاد تثور
لفراق أبينا الجرو والزير عمنا — عليهم قلبى والحشا مكسور
يا رب يا رحمن يا سامع الدعا — عليك اتكالنا يا جابر المكسور
سألناك ربى بالخليل وإبنه — بحق الذى إليه العبيد تزور
فيارب يا رحمن اجبر قلوبنا — بجاه عيسى وموسى الفاضل المشهور
بجاه داود مع يحيى مع الخضر — وبالعرش والكرسى وبحر النور
ترزقنا بولدين يحيوا ذكرنا — أيا من ترزق كل وحش كسور

(قال الراوى) وكان الامير تغلب ينشد هذه الابيات وأخوه مالك يقول آمين يارب العالمين فاستجاب الله دعاهما ولم يخيب تكواهما فما مضت مدة يسيرة وبرهة قصيرة حتى حبلت نساهما ولما تمت أيامهما ولدن الإثنتان فى يوم واحد فولدت زوجة مالك بنتاً وزوجة تغلب ولداً ذكراً فقامت فى الحى الافراح والمسرات وكان جناب الاميرين فى الصيد والقنص فأرسلوا لهما بعض العبيد يبشرهما بذلك وكان إسمه مسرور فلما أقبل إليهما العبد قالا له علامك يامسرور أبشير أم نذير فقال إننى بشير وأشار إليهما بهذه الأبيات :

قال الداعى المسمى سرور	يا سادتى أتيتكم قاصد بشير
يا أمير مالك أتاك بنت كالقمر	ووجهها كالشمس والبدر المنير
وأنت يا تغلب أتاك غلام	يصرح القلب المتيم يا أمير
أتيت إليكم حالا بلا بطا	فوق حمرا كأنها طير يطير
أريد منكم ياكرام بشارتى	اجـبروا بالله قلبى الكسير

(قال الراوى) فلما سمع كلام العبد فرحا فرحاً شديداً وأعتقا للعبد وأعطوه الف دينار ولما حضرا إلى الحى أمر بذبح الذبائح وأولما الولائم وأقاما الفرح والسرور مدة شهرين كاملين وأرسلا حالا يعلما أباهما وعمهما الزير ويبشرهما بذلك وسميا الغلام الأوس والبنت مى وتعاهدا الاخان على زواج البنت بالغلام إذا كبر ولما بلغ الجرو والمهلهل ذلك الخبر فرحا جدا وشكرا الله على هذه النعمة العظيمة وركب الجرو فى جمع غفير من قومه وأبطاله وسار جهة أولاده لانه كان له غاية الاشتياق لمشاهدتهما ولما اقترب من تلك الديار وبلغا ولديه قدومه خرجا لملاقاته فى موكب عظيم وعند وصوله سلما عليه ووقعا على يديه يقبلانها فقبلهما بين عينيهما ودعا لهما ثم سألاه عن عمهما فقال إنه فى خير وعافية وإنه مازال فى خيامه وهو ملازم طعامه مع مدامه ثم سار إلى المدينه وكان ذلك اليوم أعظم من يوم الزينة ونزل الجرو فى القصر الكبير ووقف بخدمته الصغير والكبير والمأمور والأمير وأقام فى تلك الديار مدة شهرين كوامل وكان فى آخر هذه المدة مرض إبنه تغلب فأقام عشرة أيام فى الفراش ومات فحزن عليه الجرو حزنا عظيما وعملوا عليه مناحة عظيمة ودفنوه بكل احترام ووقار ولما عزم الجرو على الرجوع إلى بلاده استدعى ولده مالك وأوصاه بالرعية وأن يكون عادلا فى حكمه وأن يزوج ابنته مى بالأوس ابن أخيه وبعد ذلك سار وحـــده فى قطع القفار إلى أن وصل إلى أطلاله

واجتمع بأهله وعياله وأما الامير مالك فإنه اعتنى بتربية إبنته وابن أخيه كما أوصاه جناب ابيه حتى كبرا وبلغا درجة الكمال وكان الاوس يركب ظهور الخيل ويتعلم الفروسية مع الفرسان واستمر على ذلك مدة من الزمان حتى صار من صناديد الرجال وشاع ذكره فى كل مكان وكانت إبنة عمه مى من أجمل النساء والرجال وكان الأوس يحبها محبة عظيمة فكانا كروحين فى جسد واحد فلما شاع ذكرها فى قبائل الاعراب وتواردت على أبيها الخطاب وكان قد سمع بها الصنديد بن الاكوع وهو ابن عم الملك تبع حسان فعشقها على السماع وكان من الملوك العظام فأرسل وزيره ليخطبها من أبيها فلما وصل الوزير وعلم مالك بالخبر فقال والله هو نعم الصهر وبه أنال الفخر على طول الدهر غير أنه لا اخفاك أطال الله عمرك وبقاك بأن إبنتى مخطوبة لابن عمها الاوس ونحن الآن مباشرين بأمر العرس فلا يمكننى أن أنقض الكتاب وهذا الذى يمنعنى عن إجراء الإيجاب فقال له الوزير أكتب لى الجواب فكتب لى هذه الابيات :

يقول الفتى مالك على ماجرى له	بدمع جرى فوق الخدود صدود
أيا غادياً منى على متن ضامر	تسابق لضرب المرهف المبرور
تهدى هداك الله خذ لى رسالتى	اعطيه مكتوبى تنال سعودى
إذا جيت للصنديد فقل له	بأنى على طول الزمان ودود
ومى ترى مخطوبة لابن عمها	ومعها تربى والانام شهود
لحاشى لمثلى أن يخون أقاربه	وأفسح زمانى ثم أكو عنود
ترى الاوس روحى ياأمير ومهجتى	وهو عندنا أحلى من المولود
فلو كنت أعطيها لغير ابن عمها	لكنت أنت اليوم أولى بالمقصود

ثم أن الزير أخذ هذا الجواب ورجع إلى عند الصنديد وأعطاه إياه فلما وقف على حقيقة الحال خرج عن دائرة الاعتدال فغير زيه وتنكر وركب جواده وسار إلى تلك الديار وحده وعند وصوله إلى مضارب الامير مالك لم يجده هناك ولم يكن فى الحى إلا النساء والبناء فسأل بعض النساء عن غياب الرجال فقالت منهم من سار إلى القبائل ليعزموا الناس إلى العروس والفرح ومن ذهب مع الامير مالك للصيد والقنص ففرح بهذا الاتفاق وتقدم لنحو الصيوان وأركز رمحه ووقف على الباب ونادي هيا يا أصحاب البيت فقد أتاكم ضيف من أبعد مكان وكانت مى

داخل الخيام وحدها فما ردت جواباً وما أبدت خطاباً ولما أبطلت عليه الجواب وعرف أن الصيوان خالياً من الرجال أنشد يقول :

قال الفتى الغريب الذى شكا ولى قلب من بين الجوانح ذاب
أتيت قاصد مالكا فى حاجة ولى ساعة واقف أنا فى البـاب
يا أهل هذا البيت أين أميركم وأين مضى من الديار وغاب
يا ربة البيت الذى داخل الحمى ما بالكم لا تردوا الجواب
ألا فاخبرونى يا بنات بحالكم قلبى غدا من أجلكم مرتاب
إذا كان أهل الحى غابوا جميعهم أما فيكم كريمة ذات حجاب
فتقر ضيفا قد أتى غريبة وتستر أهاليها مع الغياب
أكيد ما كل النسا تستر الفتى ولا كل من يحوى الردية صاب

(قال الراوى) فلما سمعت مى شعره ونظامه وعرفت قصده ومرامه أخذتها الغيرة والمروءة لتستر عرض أهلها من القيل والقال وأشارت تقول :

تقول فتاة الحى مى التى شكت ألا فاسمع للقول يا نجاب
يا مرحبا بالضيف لما زارنا لك الخير والإكرام والترحاب
انزل مكانك حتى أحضر لك الغدا وتأكل من وادنا وتشرب
أنا بنت مالك راح للصيد والدى مع ابن عمى الاوس والاحباب
انزل حتى يرجعوا رجالنا ويأتوا لنحو الحى بعد غياب
فكم جاء إلينا يا أمير مثالكم خلائق كثيرة ما لهن حساب
نحن نحب الضيف إذا جاء محلنا انزل واجلس جانب الاطناب

(قال الراوى) فلما فرغت من شعرها ونظامها وقع الصنديد فى حبها وغرامها ورفع ستار الخيمة بسنان رمحه فوجد صبية بديعة الجمال فزاد به الوجد والبلبال فصاحت عليه من خلف الستار وقالت علامك تنظر بنات الملوك ياغدار ثم ردت منديلها على وجهها وقالت له لا شك أنك قليل الحياء كامخ فإن كنت ضعيفاً كما تقول فانزل كى آتيك بالغدار وإلا فاهذه الوقاحة ثم قالت لجاريتها إطلعى افرشى له حتى يجلس ويتغذى لبينما يأتى أبى من العرية فخرجت الجارية اليه وسألته كى ينزل فى الصيوان فقال لها إنه عيب على أن أنزل عند الحريم وأنا سيد عظيم لئلا أدعى يكامخ وهذا من أعظم القبائح وما أتيت إلى هذه الديار إلا لأمر ضرورى هذا فلم يسمع لها كلام وقال لابد من أخذك إلى الاطلال وهناك أتزوج بك بالجلال لأنى

أتيت من بلاد بعيدة لأحل هذه الغاية الوحيدة وقد نلت مرادى وحصلت على مسرة فؤادى ثم إنه قام تلك الليلة فى تلك المكان وهو مسرور فرحان ولما كان الصباح ركب ظهر الحصان وأردفها خلفه وصار يقطع القفار ويوصل سير الليل بسير النهار حتى وصل الديار ولما سمعت أكابر قومه بقدومه ظافرا غانما اجتمعوا إليه وهنوه بالسلامة وسألوه عن سفرته وما جرى له فى غربته فقال إنى عند وصولى الى تلك الأطلال هجمت على الفرسان والأبطال ومددت أكثرهم على بساط الرمال وفعلت فعالا تذكر على طول الأجيال وقتلت الأمير مالك وابن أخيه وأتيت بالعروس إلى هنا وقد بلغت غاية المنى فلما سمعت منه هذا الكلام كان عليها أشد من ضرب الحسام فنهضت على الأقدام وقالت له أمام الأعيان لقد نطقت بالزور والبهتان فوحق الإله الديان لو كان أبى وابن عمى حاضران لما كنت رجعت سالما إلى أوطانك ولاجتمعت بأهلك وخلانك ولكنك خطفتنى بالاحتيال وهربت فى الحال قبل أن تدركك الرجال ويحل بك الوبال ثم إنها بعد هذا الكلام بكت بدمع سجام ولما سمع الحاضرون فحوى كلامها خافوا من العواقب وعلموا بأن كلام الصنديد ليس له صحة فهو فى حديثه كاذب وأما الصنديد فإنه اغتاظ من هذا الكلام فنهض ولطمها على وجهها وقال هكذا تتكلمين يا بنت اللئام أمام السادات الكرام ثم سل سيفه وغمده وأراد أن يعدمها الحياة فعندذلك وثب الوزير وباقى الأمراء بالعجل وردوه عن ذلك العمل وقالوا له انت أمير أتجعل عقلك كعقل النسوان فما تقول عنك ملوك الممالك إذا سمعت بذلك وما زالوا يتوسلون بالكلام حتى لان وكان له سجان أقسى من الصوان فاستدعاه إليه فحضر وكان إسمه عمران بن الأزور فقال خذ هذه الملعونة إلى بيتك وسلمها إلى زوجتك لتقيدها بالحديد وتعذبها العذاب الشديد وتلبسها ثياب الشعر وتضربها خمس مرات فى النهار وتطعمها خمس أرغفة من الشعير فقال يا مولاى إن هذه الصبية لا تستحق الضرب والانتقام ولا تستاهل غير الإعزاز والإكرام وهي كأنها البدر التمام فقال لها كيف العمل وما نحن إلا عبيد الملك الصنديد فعندذلك نزعت عنها ثيابها الحريرية والبستها ثوبا من شعر الخنزير وأرادت أن تضربها بالسياط على قدميها فوقعت على رجليها وجعلت تبكى وتثنى عليها ثم أنشدت من فؤاد متبول

يا لله أن ترثى إلى أحوالى ..	فالدهر فرق صحبتى وعيالى
يا وحدتى يا ذلتى يا غربتى	قد صرت بعد العز بالأغلال
قد كنا فى جاه ورفعة منصب	والله ربى عالم الأحوال

فترفقي هـذا النهار بحالتي ... فلعل ربي يستجيب الحال
إني كريمة من أكابر معشر ... فاقوا الورى بالجاه والإفضال
ويعدني بعد العناء إلى الوطن ... وأرى جميع الأهل والإخوان
ولهم وقائع في البلاد جميعها ... بين الملوك وزمرة الأبطال

(قال الراوي) فلما فرغت من شعرها ونظامها ورق قلبها وقالت لها قوي نفسيا وطيبي قلباً سأصنع معروفاً لوجه الله تعالى ثم إنها جاءت بجلد جاموس يابس فصلته ثوباً وألبستها إياه من تحت الثياب وقالت إني متى ضربتك فإنك لا تشعرين بألم الضرب وما قصدت بذلك إلا ليسمع الملك صوت الضرب وأنت تصيحين وتستغيثين وأنا أقدم لك ما تحتاجين إليه من المأكل والمشرب ومتى دخل الليل تخلعين ثوب الجلد وترقدين براحة بال إلى أن يأتي الله بالفرج فشكرتها على معروفها ودعت لها بطول العمر وأوعدتها بالجميل والخير هذا ما كان من جي وما جرى لها أما ما كان من أبيها فإنه عند رجوعه من الصيد سمع الصياح والبكاء فسأل عن ذلك فأخبرته زوجته بواقعة الحال فغاب عن الصواب من شدة الغيظ وأما الأوس ابن عم الصبية فإنه غشي عليه لأنه كان يحبها محبة عظيمة ولما أفاق من غشوته أنشد يقول:

يقول الأوس ابن تغلب قصيد ... ألا يا مي من هذا دهاك
أتاك اللص في غيبة أبيك ... ولم يعلم بمن يسعى وراك
ألا يا بنت عمي لو تدري بي ... على فقدك أنا محزون باكي
تري في أي أرض قد حللت ... فما قلبي غدا يطلب سواك
فلا بد لي أغزو دياره بالعجل ... واقتله وافرح في لقاك
وأبذل كل مجهودي لأجلك ... وروحي بعد ذلك هي فداك
لما قال الفتى الأوس بن تغلب ... فقلبي قد تعلق في هواك

(قال الراوي) فلما فرغ الأوس من هذا الشعر والنظام وقع مغشياً عليه وبقي طول ذلك الليل في هم وغم وقلق شديد ما عليه من مزيد فجعل عمه يلاطفه بالكلام ويقول له طيب قلبك يا ولدي فما يصلح الحزن إلا إلى الفساد فاصبر ريثما ترسل من يكشف لنا خبر ذلك الرجل وبعد ذلك نسير إلى دياره فنخربها ونسبي حريمه وعياله فقال الأوس من يذهب غيري فوالله لا سرت إلا وحدي ولا أريد رفيق ولا معين سوى رب العالمين ثم نهض فاعتد جلاده وركب ظهر جواده وودعهم وسار وجد

فى قطع القفار ودموعه تجرى على خديه كالأنهار وهو لا يدرى الى أين يذهب والى أى حلة يقصد من قبائل العرب إلى أن وصل الى واد عميق ضيق الطريق كثير الاشجار والوحش والأحجار فبينما هو يتأمل ذلك المكان وإذا قد ظهر عليه أحد الفرسان وهو بالسلاح الكامل والفروسية عليه علائم ودلائم فلما رأى الاوس منفردا وحده مال اليه وقصده وقال له إنزل ياجبان عن ظهر الحصان واخلع ما عليك من الثياب وفز بنفسك فى هذه الهضاب قبل أن أسقيك كأس العطب فأنا جرة بن غمرة فارس العرب .

فلما سمع الأوس هذا الكلام صار الضيافى عينيه كالظلام وهجم عليه فى الحال وصدمه صدمة تزعزع الجبال فالتقاه جرة فى الحال والتحما فى ساحة المجال واشتد بينهما القتال وتجاولا ساعة من الزمان وهم فى ضراب وطعان تقشعر منه الابدان فاختلفا بينهما طعنتين قاتلتين وكان السابق الاوس بن تغلب فجادت فى صدره فخرجت تلمع من ظهره فوقع قتيلا وفى دمه جديلا فأخذ عدته وجواده وجد فى المسير وهو يقطع البرارى والآكام مدة خمسة أيام واتفق فى اليوم الخامس أنه التقى بفارس وهو يجد فى قطع القفار كالسهم الطيار فتقدم اليه وسلم عليه وقال له إلى أين سائر والى من تنسب من القبائل والعشائر فقال إننى من بنى عبس وعدنان أصحاب الفضل والإحسان وإنى سائر إلى ديار بنى عامر لأستدعى حامينا عنتر فارس الخيل لانه سار من عشرة أيام ليحضر وليمة دعاه اليها عامر بن الطفيل وفى غيبته غزانا عمرو ابن معديكرب فى خمسة آلاف فارس فحاربنا محاربة شديدة وجرى بيننا وبينه وقائع عديدة فأرسلنى مولاى قيس بن زهير لأستدعيه للحضور قبل أن يظفر عمر المذكور فقال الاوس وقد تعجب ومن هو عنتر بن شديد فارس الصدام الذى اشتهر ذكره فى هذه الايام بطعن الرمح وبضرب الحسام وقهر كبار الجبابرة وحارب الملوك والاكاسرة والقياصرة وافتخر على الابطال والفرسان فى ساحة الميدان فلما سمع الاوس هذا الخبر وانبهر ثم ودعه وجد فى قطع البر الاقفر وما زال يقطع البرارى والآكام مدة سبعة أيام حتى أشرف على جماعة من العبيد ترعى الاغنام فحياهم بالسلام وأخذ يسألهم بهذا الشعر والنظام :

يقول الفتى المضنى الفائض مابه ... فدمعى جرى فوق الخدود سوائح
ألا يا عبيد الخير بالله أشفعوا ... لصب بعيد الدار ولهان نازح

بجميع وجيع مستهام ملوع ... تركه البين مضنى كثير الجرايح
لقد ضاع لى حرة عفيفة من الخنا ... فهل من يبشر بها يا فوالح
ويخبرنى لأى البلاد توجهت ... من أجلها نارى تزيد اللقايح
لقد أحرقت قلبى ولبى ومهجتى ... وكل عظامى أوثقتهم جرايح

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه تقدم إليه كبير الرعيان وكان اسمه مرجان وقال له إعلم ياغلام انه من برهة عشرة أيام سبى أميرنا الصنديد ابنة اسمها مى لا يوجد أجمل منها فى نساء هذا الحى. فأراد أن يتزوجها فامتنعت عنه فلم تميل اليه فقيدها بقيود من حديد وهو كل يوم يعذبها عذاب شديد فعسى تكون الحرة التى ذكرتها فى نظمك افرج الله همك وغمك فلما سمع الأوس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام ونزل عن ظهر الحصان وقبل العبد مرجان وأوعده بالجميل والإحسان فبينما هو بالحديث والكلام وإذا بسعد ابن أخت الصنديد قد أشرف فى ذلك الوقت ليتفقد المراعى فنظر الأوس فاستغربه فسأل بعض العبيد فقال هذا ابن عم الصبية مى التى عند خالك الصنديد قد جاء ليكشف أخبارها ويرجع بها إلى ديارها فلما سمع هذا الكلام رجع إلى عند خاله واعلمه بما سمع ورأى وأشار إليه يقول :

قال سعد قد أتيتك عارا ... يا خال منى فاسمع الإخبارا
البنت التى غربتها من أهلها ... من خلفها فارس اتاك جهارا
يا خال فارس فى اللقا مجرب ... وعيونه يا خال تقدح نارا
إن كان راقت لك ليالى الصفا ... فبصفوها تأتى لك الأكدارا
قد جاء إلى عند العبيد يسأل ... انبوه فجاء كالأسد هدارا
لما سمعت أتيت نحوك عاجل ... هذا الذى ياخال تم وصارا

(قال الراوى) فلما فرغ سعد من شعره ونظامه وفهم الصنديد فحوى كلامه قال له فارس واحد قال نعم أيها السيد الماجد فشتمه خاله وقال ارجع وخذ روحه من بين جنبيه فإنه لايليق بى أن أركب لقتال صعلوك من صعاليك العرب فخرج سعد من عند خاله وقصد الأوس .

فلما اجتمع به وصاح فيه وحمل عليه فالتقاه كالأسد وضربه بالحسام المهند فألقاه على الأرض قتيلا فأخذ سلبه وثيابه ولما بلغ خاله الخبر طار من عينيه

الشرير فركب ظهر جواده واعتد بعدة جلاده وقصد الاوس حتى التقى به وانطبق
عليه كليث الآجام وأخذ معه فى القتال والكفاح ولم تكن إلا ساعة حتى أثخنه
بالجراح فولى وطلب لنفسه الهرب فتبعه الاوس مثل السرحان حتى وصل إلى
الصيوان واحتمى عند النسوان فلما دخل على الحريم قالت له زوجته سعدا علامك
داخل وانت مرعوب كل هذا لاجل الإبنة التى خطفتها وما نلت المرغوب فقالت
انك تستحق أكثر من ذلك ثم وبختة بالكلام وقالت له انت تدعى الفروسية
على كل واحد وتهرب من أمام أمرد هذا والاوس يصيح عليه ويقول اخرج يالئيم
من بين الحريم حتى أجازيك على تلك الفعال يا غدار يا محتال نخاف الصنديد وقال
لزوجته سعدا أعطيه إبنة عمه واكفينا همنا وهمه فخرجت زوجته اليه وقبلته
وطلبت منه العفو والسماح فأعطاهم الأمان فجاؤا له بابنة عمه مى بعد أن ألبسوها
الثياب الفاخرة وذبحوا لها الذبائح وقدموا لها الأطعمة المتكاثرة ولما اجتمع بها
زال عن قلبه الكدر من كثرة فرحه أخذ يسكب العبر وهكذا فعلت مى وكان
ذلك النهار عندها كيوم العيد حيث التقت بحبيبها الوحيد .

(قال الراوى) فباتا تلك الليلة فى الحلة وعند الصباح أركب مى فى هودج
وسار معه جماعة من العبيد وتوجه قاصدا دياره ولما اقترب من بلاده أرسل يبشر
عمه الأمير مالك بقدومه وشاع الخبر فى الحى فخرجت النساء والبنات وأكابر
السادات ولما اجتمعوا ببعضهم البعض نزل الامير مالك فسلم على الاوس وابنته
وشكر ابن أخيه على أفعاله وعند وصوله إلى الخيام حدثهم بحديث عنتر وما سمع
عنه من الخبر فقال عمه والله سمعنا بذكره وأنه من أفرس فرسان عصره
وبعد ذلك ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم ثم زفوا الاوس على ابنة عمه فكانت
ليلة من أعظم الليالى حضرها جمهور من السادات والموالى فزادت أفراح الاوس
بتلك العروس وحظى بذلك الحسن والجمال وعاش معها بأرغد عيش وأحسن
حال وبعد ذلك وضعت له غلاماً سماه مالك وله حديث طويل فاتفق بعد عشرة
أيام أن الاوس ضعف ضعفا شديداً فمات فحزن الاوس عليه ودفنه بالاحترام
والوقار وبكت عليه الكبار والصغار وكان موصوفا باللطف والايناس ومحبوبا
من جميع الناس وأرسل الأوس وأعلم جده بذلك الخبر فحزن وتكدر فقالت
أختك اليمامة أرسل يا أخى وأحضر ابن عمك الاوس مع أهله ليجمع شملنا بشمله

أجابها إلى ذلك وفى الحال أرسل رجلا من بنى عمه ليحكم مكانه فجاء الاوس مع أهله وسكن عند الجرو وجده وراة، لهما الزمان وأما ما كان البطل الهمام صاحب الذكر الشهير المدعو بسالم الزير فإنه كان قد أخناه الدهر وضعفت قواه وهو مع ذلك مواظب على أكل الطعام وشرب المدام وكان لاينام إلا وهو لابس عدة الحرب والصدام وما زالوا على تلك الحال حتى برز له أسنان جدد وصار عقله مثل عقل الولد وكانت بنات أخيه تخدمه وتداويه فاجتمع يوما بالجرو وقال له يا ابن أخى قد ضاقت أخلاقى من الوحدة والانفراد فأريد منك ترسلنى مع بعض الاتباع للتنزه فى البلاد فأجابه إلى ما طلب وأركبه فى هودج وأعطاه عبدان برسم الخدمة وجميع ما يحتاج اليه من لوازم السفر فودعه المهلهل ومازال يجول حتى اقترب من بلاد الصعيد وكان العبدان قد تعبا من مشقة الطريق وهما يلاقيان من التعب أشد الضيق فصمما على قتله وإعدامه بالكلية وإنما يقولان لأهله قد أدركته المنية فعرف الزير منهما فقال قد دنى همامى وليس إلا القبر أمامى فإذا أدركتنى منيتى أريد منكما أن تبلغا أهلى وصيتى قالا وما هى وصيتك فعاهدهما على حفظها وتأيدها حلفا له بأعظم الاقسام بأنهما يبلغونها بالكمال والتمام فقال إذا وصلتم الحى فاقريا أهلى منى السلام وأنشدوهم هذا البيت وقولا لهم إنى فى القبر قد اختفيت .

من مبلغ الاقوام أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما

وكرره عليهم حتى حفظاه ولما دخل الليل ذبحوه ودفناه تحت التراب ورجعا إلى ديارهما ودخلا على سيدهما الجرو وأعلماه بموت عمه الزير فبكا بكاء شديدا من ومن حضر ثم أن العبدان اقتربا من الجرو وأنشداه البيت المذكور

فلما سمع الجرو هذا استغربه حيث لامعنى له فاستدعى بأخته اليمامه وكانت من أزكى نساء العرب وعلمها عمها وأنشدها ذلك البيت فلطمت على وجهها وبكت قالت إن عمى لايقول أبيات ناقصة بل أراد أن يقول :

من مبلغ الاقوام أن مهلهلا أضحى قتيلا الفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

ثم أنهما قبضا على العبدان والقوهما تحت العذاب والضرب الشديد إلى أن أقر بأنهما قتلاه ودفناه فقتلهما الجرو وفى الحال وهكذا انتهت حياة الزير وقد أخذ

ثاره فى حياته وبعد مماته وبعد وفاة الزير وضعت امرأة الاوس غلاما فسموه عامراً وعندما بلغ سن الرجولية تزوج بامرأة من أشراف العرب فولدت له فى نفس الليلة التى مات فيها جدة الجرو فدعاه هلال وهو جد بنى هلال وكان من أعقل العرب ولما كبر الأمير هلال تزوج بامرأة ذات حسن وجمال فولدت له غلاما دعاه المنذر واتفق أن هلالا زار مكة فى بعض السنين فى أربعمائة فارس كرار وكان وقتئذ ظهور النبي المختار وعند وصوله ضرب الخيام وطلب هو ورجاله حول البيت الحرام ثم تشرف بمقابلة النبي المشار إليه وقبله بين عينيه فأمره النبي أن ينزل فى وادى العباس وكان النبي ﷺ فى تلك الايام يحارب بعض العشائر فعاونه الأمير هلال وأمده بالعساكر وقاتل معه القوم فى ذلك اليوم وكانت فاطمة الزهراء راكبة على هودجها فلما رأت هول القتال زجرت جملها لتخرج عن مشاهدة القتال فشردتها فى البرارى والفلوات وعند رجوعها دعت على الذى كان السبب فى البلاد والشتات فقال لها أبوها ادعى لهم بالانتصار فإنهم بنى هلال الاخيار وهم لنا جملة الأحباب والأنصار فنفذت فيهم دعوتها بالتشتيت والنصر على طول الدهر .

﴿ تمت قصة الزير أبو ليلى المهلهل بعون الله تعالى ﴾

